رجال صنعوا التاريخ

التاريخ الأندلسي

رانيا عدلي نور الدين

كتوبيا للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

رجال صنعوا التاريخ

(التاريخ الأندلسي)

رؤية جديدة

رانيا عدلي نور الدين

عن الكتاب..

التاريخ هو علم أحوال البشر ومواقفهم وحياتهم على مر العصور والأزمان، فإن لم نتعلم الفراسة والسياسة من سير من سبقونا فممن نتعلمها؟!! والسياسة هنا ليس المقصود بها ما هو متعارف عليه من الأمور السياسية المتعلقة بالدول والحكام فحسب، وإنما المقصود بها أيضاً على مستوى الأفراد والجماعات حسن التفكر والتدبر في المواقف السلبية التي وقع فيها من سبقونا فتوجب علينا تجنبها، لأننا إذا ما سرنا في نفس الطريق، فسوف نحصل على نفس النتيجة، وكذلك تلمس الطرق الإيجابية التي ساروا فيها وأثمرت عزاً ونهضة فنسير فيها مقتفيين أثارهم..

إن دراسة التاريخ بهذه الطريقة تجعله حياً.. ينبض بالحياة.. وليس مجرد أحداث صلبة جامدة لا تغنى ولا تسمن من جوع، فـ نحن نقرأ لنتفاعل.. نتعلم.. نستفيد..!! وليس لمجرد التسلية أو الدراسة الأكاديمية البحثية فحسب.
ومما سبق نصل لنتيجة مفادها: ليس الهدف من التاريخ هو مجرد سرد القصص والتباهي أننا نعرف قصة هذا الزعيم أو ذاك، ونعلم تاريخ هذه البلدة أو تلك، فضلاً عن أن يكون الهدف منه مجرد التغني بالأمجاد أو البكاء على الأطلال، بل الهدف من التاريخ هو تغيير مفاهيم وقناعات واهتمامات، وغرس قيم ومبادئ وأخلاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداءٌ خاص

إلى..

إنسانة لم تمسك يومًا ب ورقة أو قلم، لم تقرأ جملة فضلًا عن كتاب، إلا أنها استطاعت أن تعلمني ما لم يعلمني إياه من أمسكوا الأوراق والأقلام، وتدبروا الكتب والمؤلفات منذ نعومة أظفارهم..

إهداء إلى من حفرت عبق وعطر كلماتها في قلبي مرددة: «إياكِ أن تتخلي عن أحلامك.. لأنك ستندمين.. وإذا ما مت ستتذكرين كلماتي تلك»..

إهداء إلى من علمتني من الأخلاق أرقاها..

إليك أمي أهدي أول أحرفي فأنتِ من صنعتني وصنعتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة..

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، أما بعد..

تحدث الأستاذ/ فاروق سعد مصحح كتاب «كليلة ودمنة» لابن المقفع؛ قائلا: «إن أتحف العوارف، وألطف المعارف، علم يتوصل إلى صدق الفراسة، ويستنبط منه علم السياسة»؛ فإن كانت هذه الكلمات القليلة التي تميزت بالبساطة مغلفة بالعمق تدل على العلوم بصفة عامة، فهي تدل على علم التاريخ بصفة خاصة، وذلك لأنّ علم التاريخ هو علم أحوال البشر ومواقفهم وحياتهم على مر العصور والأزمان، فإن لم نتعلم الفراسة والسياسة من سِير من سبقونا، فممن نتعلمها؟!!؛ والسياسة هنا ليس المقصود بها ما هو متعارف عليه من الأمور السياسية المتعلقة بالدول والحكام فحسب، وإنما المقصود بها أيضًا على مستوى الأفراد والجماعات حسن التفكر والتدبر في المواقف السلبية التي وقع فيها من سبقونا فتوجب علينا تجنبها لأننا إذا ما سرنا في نفس الطريق فسوف نحصل على نفس النتيجة، وكذلك تلمس الطرق الإيجابية التي ساروا فيها وأثمرت عزًّا ونهضة فنسير فيها مقتفيين أثرهم؛ إن دراسة التاريخ بهذه الطريقة تجعله حيًّا.. ينبض بالحياة..، فلا ينبغي أن تكون دراسة التاريخ مجرد دراسة صلبة جامدة لا تغنى ولا تسمن من جوع، ف نحن نقرأ لنتفاعل.. نتعلم.. نستفيد..!!، وليس لمجرد التسلية أو الدراسة الأكاديمية البحثية.

مما سبق نصل لنتيجة مفادها: ليس الهدف من التاريخ هو مجرد سرد القصص والتباهي أننا نعرف قصة هذا الزعيم أو ذاك، ونعلم تاريخ هذه البلدة أو تلك؛ فضلًا عن أن يكون الهدف منه مجرد التغني بالأمجاد أو البكاء على الأطلال؛ بل الهدف من التاريخ هو تغيير مفاهيم وقناعات واهتمامات، وغرس قيم ومبادئ وأخلاق.

قد يجهل الكثيرون منا نحن جيل الشباب والفتيات تقدير دور الفرد في تغيير حركة التاريخ، وتوجيه مساره، وذلك على الرغم من أنّ إحدى سنن الله تبارك وتعالى التي لا تتغير ولا تتبدل أنه سبحانه وتعالى جعل لبعض البشر ملكات نادرة وقدرات باهرة في جمع الجموع الغفيرة وتحريك الطاقات الكامنة، ومن ثَمّ قيادتها بدافع التغيير من حال إلى حال.

قد يشارك الملايين في هذا التغيير ولكن السؤال: من الذي دفعهم إلى المشاركة؟!! من الذي حول السلبية التي تجرى في عروقهم مجرى الدم إلى إيجابية يَضُخها القلب مع كل نبضة من نبضاته؟!! من الذي دفعهم للبذل والتضحية؟!! من الذي رسم لهم الطريق الذي ينبغي أن يسيروا فيه؟!!! من الذي وضع لهم الأهداف التي ينبغي أن يسعوا إلى تحقيقها؟!!!؛ إنه فرد أو شخص يملك من المؤهلات الشخصية والملكات العقلية ما لا يملكه غيره، إنه رجل من طراز فريد، وقد نبهنا إلى هذا المعنى الرسول-صلّى اللّٰه عليه وسلم- حين قال: «إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»، كما قال -صلّى اللّٰه عليه وسلم-: «إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيهم راحلة»؛ وسيرًا على نهج الحبيب -صلّى اللّٰه عليه وسلم- قال الصديق في حق القعقاع بن عمرو التميمي: «لصوت القعقاع في جيش خير من ألف رجل»، وعلى نهج الحبيب وصاحبه سار الفاروق، فعند إرساله جيشًا لعمرو بن العاص يساعده في فتح مصر، بعث له قائلًا: «إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف»، وكان هؤلاء الأربعة: المقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، والزبير بن العوام، ومسلمة بن مخلد.

وقد حفل تاريخنا الإسلامي عقب جيل الصحابة بمئات الرجال الذين غيروا مسار التاريخ، وذلك بما صنعوه من مجد رددته الأركان، ولا زالت تزخر به صفحات تاريخنا، كان منهم قادة أمثال: عمر بن عبدالعزيز، وهارون الرشيد، وعماد الدين زنكي، ونورالدين محمود، وألب أرسلان، وصلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قطز.. وغيرهم؛ وكان منهم علماء؛ أمثال: سفيان الثوري، وابن القيم الجوزية، وابن تيمية، ومالك بن أنس، والبخاري ومسلم، وأئمة المذاهب الأربعة، وغيرهم الكثير.

هنا سيتم تسليط الضوء على جملة من رجال أندلسيين تميزوا بنفس الملكات والقدرات التي دعموها وأظهروها بالسير في طريق من سبقهم من قادة وقدوات، فطبقوا مبادئ وقوانين الفروسية بحذافيرها، بمعنى أنهم أخذوا بأسباب العتاد والعدة ثم توكلوا على ربهم جل وعلا؛ حكام أندلسيون نهضوا بالأندلس وجعلوها بلغتنا المعاصرة في مصافّ الدول المتقدمة؛ بل في قمة هذه الدول؛ بل هي صاحبة مشروع تصدير التقدم والرقي لما حولها من دول العالم آنذاك، وفي هذا محاولة للرجوع إلى الأصول والمنابع والمعين الأساسي المتمثل في تعاليم ديننا ثم تراثنا الإسلامي الخالد، لأننا كما قال الفاروق: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله».

إنّ مَن سيتم تسليط الضوء عليهم هنا مِن رجال صنعوا التاريخ لا يعني أنّ تاريخنا الأندلسي قد خلا من الرجال باستثناء مَن تم تسليط الضوء عليهم، فالدارس والعاشق وحتى المطلع على تاريخ الأندلس ولو بقدر بسيط يعلم

علم اليقين أنه تاريخ زاخر برجال وأعلام كان لهم بصمة واضحة في صناعة هذا التاريخ وازدهار حضارته، ومِن ثَمّ سطروا أسماءهم بين صفحات هذا التاريخ بحروف من نور، وإنما آثرت اختيار هؤلاء الأعلام من الحكام دون غيرهم حتى لا أجهد القارئ، فآثرت أن تكون هذه الوجبة التاريخية وجبة خفيفة ولذيذة، فلا يُحرم القارئ الكريم فوائدها، وفي نفس الوقت يستمتع بتناولها، وأتمنى أن يكون لنا لقاء آخر مع كوكبة أخرى من رجال صنعوا التاريخ، ولكن في المرة القادمة لن يكونوا من الحكام البنائين وإنما من العلماء الربانيين.

بناء على ما سبق فإنّ المنهج أو الطريقة المتبعة في سطر هذا الكتاب هو ذكر سِير هؤلاء القادة أو القدوات أو الرجال الذين تمكنوا بسواعدهم وعقولهم وقلوبهم من صناعة هذا التاريخ ممثلًا في التاريخ الأندلسي، وسُطرت أسماؤهم فيه بحروف من نور، ومن خلال هذا العرض لسيرهم والمواقف التي تعرضوا لها في حياتهم نستخلص ونستعرض الدروس والعبر التي حوتها هذه السِّير والمواقف بين طياتها سواء كانت هذه الدروس والعبر إيجابية فنتبعها ونسير على إثرها، أم سلبية فنتفادها ونبتعد عنها لعلمنا مسبقًا بالنتيجة التي يُسفر عنها مسلك هذا الطريق أو ذاك.

الخلاصة أنه سيتم في هذا الكتاب اعتماد نظام الأسئلة والطرح والتحليل ثم استخلاص واستنباط الدروس والعِبر حتى لا يُحرم القارئ إعمال عقله وفكره وزيادة إدراكه ووعيه، وإلا فإنّ التاريخ لن يتعدى كونه تغنيًا بأمجاد الماضي وبكاءً على أطلاله كما يَتهم الكثيرون دارسي التاريخ والمهتمين به.

هذا ما حاولت قدر استطاعتي أن أوضحه وأسير وفقه فما كان من خطأ أو نسيان فمنى ومن الشيطان، وما كان من توفيق فهو من الله جل وعلا، وكما أن الكلام المسموع هو رزق السامع، فكذلك الكلام المكتوب هو رزق القارئ، فتدبر رزق ربنا جل وعلا ورسائله لك أنت تحديدًا أخي القارئ وأنتِ تحديدًا أختي القارئة دون غيركما، فأتمنى أن تجد هذه الكلمات التي منّ عليّ بها ربي جل وعلا موضعها في قلوبكم، كما أتمنى أن أكون تمثلت قدر المستطاع بقول أمامنا الحسن البصري: «إنّ الموعظة إذا خرجت من القلب، وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان»، حاشانا الله جل وعلا وإياكم وجعلنا ممن يستمعون ويقرأون القول فيتبعون أحسنه.

رانيا عدلي نورالدين

باحثة دكتوراه في التاريخ الإسلامي

٢٠١٨/٢٠١٩م

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

موسى بن نصير

(الشيخ المجاهد)

عندما يكون الحديث عن الأندلس ([1]) لا ينبغي لنا أن نتخطى صاحب فكرة فتحها، وباذل ما في وسعه لوضع فكرته موضع التنفيذ؛ أيضًا في إطار الحديث عن الأندلس لا مجال لدينا أن نذكر من هو فاتح الأندلس هل هو موسى بن نصير أم طارق بن زياد؟!! فقد تبارت الكتب والكُتاب في تدعيم هذه الحقيقة أو تلك..!! لأن الذي يهمنا هنا هو شخصية موسى بن نصير الشيخ الثمانيني الذي ظل يعتلي الفرس مجاهدًا في سبيل الله جل وعلا وكأنه شابٌّ عشريني أو ثلاثيني..!!

ولد موسى بن نصير عام ١٩ه/٦٤٠م زمن خلافة الفاروق عمر بن الخطاب، في قرية «كفر متري»([2]) قيل: إنه ينتمى إلى قبيلة لخم، وقيل: لقبيلة بكر بن وائل، وأيًا كان انتماؤه فما يهمنا هو سيرته وشخصيته بصرف النظر عن أصله ونسبه، وهنا لا يسعنا إلا أن نتذكر قول الفاروق عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص -رضي اللَّه عنه-: «يا سعد لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله -صلّى اللَّه عليه وسلم- وصاحبه، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء، ولكنه يمحو السيء بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في دين الله سواء، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي -صلّى اللَّه عليه وسلم- يلزمه، وعليك بالصبر».

إن كان مولد موسى بن نصير في الشام إلا أن نشأته وتربيته وثقافته الدينية التي تلقاها كانت في أرض الحجاز، هذه البقعة التي وطأ ثراها خير من أظلته سماء وأقلته أرض الحبيب المحب -صلّى اللَّه عليه وسلم-، وأصحابه (رضوان الله عليهم) الذين فدوا الحبيب بأموالهم وأهلهم وذويهم بل بأرواحهم، ناهيك عن بذلهم الغالي والنفيس في سبيل الإسلام ونشر دعوته، هؤلاء الذين قال عنهم الحبيب -صلّى اللَّه عليه وسلم-: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»..

كان لنشأة موسى بن نصير في أرض الحجاز أكبر الأثر وأعمقه في تربيته ونشأته وثقافته، لمِ لا؟!!!، وقد كانت أرض الحجاز آنذاك عاصمة العلم وقبلة طلاب العلم والعلماء سواء، وذلك بما حوته بين أرجائها من علماء أجلاء كرسوا حياتهم لدراسة علوم الدين من تفسير للقرآن الكريم، وجمع لأحاديث الحبيب -صلّى اللَّه عليه وسلم-، هؤلاء العلماء الذين نهلوا العلم من مظانه الأولى ممثلة في صحابة الحبيب - صلّى اللَّه عليه وسلم- الذين تكحلت

أعينهم برؤيته، وطربت آذانهم بسماع صوته، وارتوت قلوبهم بعشقه -صلّى اللّه عليه وسلم-، من هؤلاء استقى موسى بن نصير علمه وأدبه..!!.

أرض الحجاز هذه البقعة التي يظل لها مكانها وقدسيتها في قلب كل إنسان يحمل في قلبه ولو ذرة من إسلام، إنها الأرض المشرفة التي شرفت بخير الخلق «محمد -صلّى اللّه عليه وسلم-»، وأعظم رسالة «رسالة الإسلام»..!!

كانت التربية والثقافة الدينية التي تلقاها موسى بن نصير منذ نعومة أظفاره سببًا في أن يَشبّ ويكبُر على التقوى والورع ومخافة الله تبارك وتعالى ومحبته، والفزع إليه في كل ما يواجهه من جلائل الأمور وعظائمها، وظلت هذه الخصال الدينية تلازم موسى بن نصير طيلة حياته، فلم يتخل عنها يومًا حتى عقب أن ذاع صيته ورددت اسمه الأرجاء عقب فتوحه الباهرة في شمال أفريقية وبلاد الأندلس على ما سيأتي ذكره، ومما يدلل عل ذلك سؤال الخليفة سليمان بن عبدالملك له: «ما الذي تفزع إليه عند خروجك ومباشرة عدوك؟!!!، فرد عليه موسى: كنت أفزع إلى التضرع والدعاء والصبر عند اللقاء..!!.

شَبَّ موسى بن نصير في هذا الوسط الديني الثقافي العربي الخالص، فبدأت تنمو فيه ملكات العربي الأصيل من حيث حلاوة اللسان وطلاوته، ناهيك عن روعة البيان وجزالته، وقد زادته الأحداث والملابسات المستقبلية التي تعرض لها قوة ومتانة بيان، وشهدت له بذلك النماذج التي حفظتها لنا المصادر عن مناقشاته في مجالس الخلفاء، ومراسلاته لأقرانه ومعاصريه من كبار رجال الدولة، وخطبه التي ألقاها في جنوده وهم على أهبة الاستعداد للقاء العدو.

ارتبطت نشأة موسى بن نصير بأحد أهم فترات تاريخ الأمة، وهي انطلاق موجة الفتوحات الإسلامية من قاعدتها الأولى بالحجاز، ومتابعة التطور السياسي والحضاري الذي صاحب تلك الفتوح متابعة دقيقة مستفيضة، فسمع موسى في صباه سيرة سيف الله المسلول خالد بن الوليد، وما قام به من انتصارات باهرة، فاستمع في شوق إلى والده وهو يروي قصة جهاد هذا البطل منذ شاهده في «عين التمر»([3]) بالعراق حتى أتم فتح الشام، وقد توفي خالد بن الوليد عام ٢١هـ/٦٤٢م بعد عامين من ميلاد موسى بن نصير، وصار والد موسى هو أحد مصادر معلومات ابنه عن هذا الفاتح العظيم الذي شاءت الأقدار أن يرتبط اسمه باسم والده نصير، فوجد موسى في خالد بن الوليد أول أستاذ يستفيد منه ومن تراثه الذي خلفه لمدرسة القادة العظام في القرن الأول الهجري.

الجدير بالذكر أنه إذا كان موسى قد استمد مقومات دراساته الدينية والأدبية من أرض الحجاز ممثلة في علماء المدينة ومكة آنذاك، فإنه مدين بتربيته

ونشأته السياسية والعسكرية إلى بلاد الشام، حيث بدأت بوادر هذه النشأة منذ أن تولي والده نصير رئاسة الحرس لوالي الشام آنذاك معاوية بن أبي سفيان، هذا المنصب الذي لم يكن لمعاوية أن يوليه إلا لرجل حاز من الثقة أعظمها ومن الملكات أندرها، هذا المنصب الذي تقلده نصير أتاح لموسى أن يتدرب في أكبر المدارس السياسية والعسكرية - إن صح التعبير-، حيث هنا في بلاد الشام تابع موسى عن كثب النشاط السياسي والعسكري؛ بل والبحري لواليها.

كان أول درس سياسي وعسكري تلقاه موسى في هذه المدرسة هو أحداث الفتنة التي أدت إلى مقتل ذي النورين عثمان بن عفان، وما تلاها من الصراع الذي دار بين معاوية وعلى بن أبي طالب، ثم تنازُل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وغيرها من الأحداث السياسية التي كانت مع مرور الأيام تزداد تعقيدًا، حيث كان موسى آنذاك قد اقترب من العشرين من عمره أي أصبح ناضجًا وعلى وعي كامل لمتابعة المناورات السياسية والحربية التي تموج بها المنطقة آنذاك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلنا يعرف معاوية بن أبي سفيان، إنه كاتب الوحي، وأحد دهاة العرب، وأوفرهم سياسة، وحسن تدبير لأمور الدنيا، كان محبًّا للرياسة شغوفًا بها، كما أنه كان فصيحًا، بليغًا، ناهيك عن حيازته لقسط وافر من الحكمة التي خوّلت له أن يقدر كل موقف حق قدره، فيحلم في موقف الحلم، ويشتد في موضع الشدة، إلا أن المتتبع لسيرته يلحظ أن الغالب على طبعه هو الحلم، فقد كان يأتِي إليه في دمشق أشراف قريش ويُغَلِّظُون له الحديث، فيستقبلهم بالترحاب ويكرمهم ويقضي حوائجهم، ويداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى؛ فروي عنه أنه جاءه رجل أثناء توليه الشام فأغلظ له الحديث قائلًا: «والله لتستقيمنَّ بنا يا معاوية، أو لنقوِّمنك، فرد معاوية: بماذا؟!!، قال الرجل: بالخشب، فرد معاوية: إذن نستقيم..!!».

أطلق لعقلك العنان وتخيل أن يحدث مثل هذا الموقف مع أحد حكام زماننا، تُرى كم من الوقت سيظل حيًّا الناطق بمثل هذه الكلمات عقب نطقه بها؟..! !؛ بل تخيل أن تقولها لرئيسك في العمل وليس رئيس دولتك..!!؛ بل تعمق أكثر وتخيل أن يقولها شخص ما لك، ماذا ستكون ردّة فعلك؟!!، توقف قليلًا وتفكر في حالك وموقفك وردّة فعلك..!!.

أيضًا مما يوضح جوانب شخصية معاوية بن أبي سفيان هذه الشخصية الفذة التي تلقت علمها الأول في مدرسة الحبيب -صلّى اللّه عليه وسلم-، وتربت على يديه الشريفتين الرواية التي رواها رجل يُدعى قبيصة بن جابر حيث قال: «صحبت معاوية، فما رأيت رجلًا أثقل حلمًا، ولا أبطأ جهلا، ولا أبعد أناة منه».

تذكر

بمثل هذه الأخلاق تُعرف الرجال، وبمثل هذه الأخلاق صَنع هؤلاء الرجال مثل هذا التاريخ..!!

ظل معاوية بن أبي سفيان على هذه الدرجة العالية من الحلم والأناة حتى عقب توليه الخلافة، بل كان دائم النصح لبنيه بني أمية بسلوك مسلكه في ذلك، فمما روي عنه أنه أوصاهم قائلًا: «يا بني أمية فارقوا قريشًا بالحلم، فو اللهِ لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية، فيوسعني شتمًا وأوسعه حلمًا، وأرجع وهو لي صديق، إن استنجدته أنجدني، وأثور به فيثور معي، وما وَضع الحلم عن شريف شرفه، ولا زاده إلا كرمًا»؛ وكان يقول أيضًا: «لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم»، كما ذُكر عنه أنه كان دائمًا ما يتمثل بهذه الأبيات:

فما قتل السفاهة مثل حلم

يعود به على الجهل الحليم

فلا تسفه وإن ملئت غيظا

على أحد فإن الفحش لوم

ولا تقطع أخا لك عند ذنب

فإن الذنب يغفره الكريم

بهذه الصفات استطاع معاوية بن أبي سفيان أن يكبح جماح المسلمين عامة والخوارج خاصة، وأن يسوس الأمة الإسلامية سياسة تدل على حكمة وحسن تدبير منقطع النظير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاش موسى بن نصير في كنف هذه الشخصية ممثلة في معاوية بن أبي سفيان وبذلك حاز العديد من الدروس العملية في السياسة والحرب أهلته فيما بعد أن يكسب ثقة معاوية ويتولى قيادة الحملات البحرية التي وجهها معاوية لإعادة غزو قبرص التي سبق أن فتحها معاوية عام ٢٧ه/٦٤٨م، فنجح في غزوها، وبني بها الحصون، وتولى إمارتها؛ كما أنه في عام ٥٣ه/٦٧٣م نجح في غزو جزيرة رودس، هذه التجربة البحرية ل موسى التي تعتبر رصيدًا يضاف إلى سيرته الذاتية العطرة، هذه التجربة التي ستؤتي أكلها وثمارها في مستقبله القريب.

انغمس موسى بن نصير في المشاكل السياسية الكبرى التي أعقبت وفاة يزيد بن معاوية - مخالفًا بذلك والده الذي آثر السلامة- ولم يربأ بنفسه عن

التدخل في الصراع الذي دار بين معاوية وعلي بن أبي طالب، وذلك على الرغم من منصبه الحساس آنذاك باعتباره رئيسًا للحرس من قبل معاوية، فشهد موسى عام ٦٤هـ/٦٨٤م معركة «مرج راهط» مع الضّحاك بن قيس الفهري الذي كان يدعو سرًّا ل «عبدالله بن الزبير» ثم دعا لنفسه، فلما قُتل الضّحاك وانتصر مروان بن الحكم، لجأ موسى إلى عبدالعزيز بن مروان، فحماه الأخير، وبذلك ابتدأت أواصر الصلة الوثيقة بين موسى وعبدالعزيز بن مروان، وذهبا سويًّا إلى مصر، ومنذ ذلك الحين أصبح موسى مستشارًا ووزيرًا أول لوالي مصر عبدالعزيز بن مروان، وتعتبر هذه التجربة مرحلة جديد في حياة موسى ستضيف له بُعدًا آخر في مجال اكتساب الخبرات في شؤون السياسة والحكم.

تابع موسى بحكم اتصاله الوثيق ب «عبدالعزيز بن مروان» عن قُرب وصايا والده له التي كان منها: «يا بني، انظر إلى عُمالك، فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها، تستوجب بذلك الطاعة منهم، وإياك أن يَظهر لرعيتك منك كذب فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق، واستشر جُلساءَك وأهل العلم، وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تُؤاخذه به عند ثورة الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة، فيكونوا أصحابك وجلساءك، ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم، على غير استرسال ولا انقباض».

فضلًا لا تمر على هذه الرسالة مرور الكرام، وكأنك تقنع نفسك أنه لكونها رسالة موجهه من خليفة لابنه الذي يحكم إحدى الولايات أو الأقاليم، يوضح له فيها بعض القواعد التي ينبغي أن يتبعها في معاملته مع من هم تحت إمرته، إذا لا علاقة لك بما فيها..!!، إذا ما أعدت قراءة هذه الرسالة ولكن بقليل من التأني ستلاحظ أنها تمثلني وتمثلك، لذلك ينبغي لنا أن نعيد تدبر ما حوته بين طياتها من معانٍ، ونسقطها على أنفسنا نحن الأفراد في تعاملاتنا مع من هم حولنا، فلنعِد تدبر الرسالة، متذكرين أن هدفنا من دراسة التاريخ هو استخلاص العبر والدروس ومن ثَمَّ إسقاطها على واقعنا وليس مجرد معرفة أحداث وسياسات وترجمة شخصيات، وليسأل كلٌّ منا نفسه ما هو أسلوب تعاملي مع من هم حولي: والداي، إخوتي، أقربائي، أصدقائي؟!!؛ ما هو تصرفي؟ ما هي الكلمات التي ينطلق بها لساني بمجرد أن تبدأ ثورة الغضب بداخلي؟!!؛ من هم جلسائي وأصفيائي وأمناء أسراري؟!!؛ فلنتساءل ولنكن صرحاء مع أنفسنا، من منطلق معرفة الداء ومن ثم تشخيص الدواء..!!.

علمتني الحياة

علمتني الحياةُ أنَّ لها طعمَين

مُرا، وسائغا معسولا

فتعوَّدتُ حالَتَيْها قريرا

وألفتُ التغيير والتبديلا

أيها الناس كلُّنا شاربُ

الكأسَين إنْ علقمًا وإنْ سلسبيلا

قد تسرِّي الحياةُ عني فتبدي

سخرياتِ الورى قَبيلا قَبيلا

فأراها مواعظا ودروسا

ويراها سواي خَطْبًا جليلا

أثناء تواجد موسى بن نصير في مصر مستشارًا ووزيرًا لواليها آنذاك عبدالعزيز بن مروان أثبت كفاءة عالية في إدارة شؤون البلاد وتدبيرها، مما اكسبه إضافة إلى ثقة والي مصر ثقة الخليفة آنذاك عبدالملك بن مروان الذي كان دائم النصح والإرشاد لقادته شأن سلفه من الخلفاء، فكان من ضمن وصاياه لأحد قادته: «أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحًا اتّجر، وإلا تحفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرًا من احتيال عدوك عليك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبد الملك بن مروان أحد أشهر خلفاء بني أمية، كان قبل توليه الخلافة من المشهود لهم بالفضل والعلم، فكان من الزهاد الملازمين للمسجد، والفقهاء المعتنين بطلب العلم ودوام العناية بالقرآن، روى عنه أحد معاصريه قائلًا: «لقد رأيت المدينة ما فيها شابٌّ أشد تشميرًا، ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان»؛ من ضمن المواقف التي ترسم لنا صورة واضحة لشخصية عبدالملك بن مروان وتوضح مدى تعظيمه لخالقه تبارك وتعالى: أنه ذات يوم وقع منه فلس في بئر به بقايا ماء متسخ، فطلب من رجل أن ينزل البئر ويحضر له الفلس، وأعطاه مقابل ذلك ثلاثة عشر دينارًا، فتعجب مَن حوله، كيف له أن يدفع مقابل فلس وقع في بئر ثلاثة عشر دينارًا، فقال لهم: «إنه كان عليه اسم الله جل وعلا».

كما كان عبد الملك بن مروان عقب توليه الخلافة دائم النصح لمؤدب أبنائه إسماعيل بن أبي المهاجر قائلًا له: «علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن،

وجنبهم السفلة فإنهم أسوأ الناس رعة – قلة الورع – وأقلهم أدبًا»؛ وعلى الصعيد الآخر كان يأبي أن يهين المؤدبُ أولادَه أمام غيرهم، مما يؤدي إلى عدم احترام الناس لهم، لذلك كان من ضمن وصاياه له: «وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في سر لا يعلم بهم أحد من الحاشية فيهونوا عليهم».

المتتبع لسيرة عبد الملك بن مروان يعلم تمام العلم إلى أي مدى كان اهتمامه الشديد بأن يسير بدولته قدُما نحو التقدم والرقي، كما يلحظ بصمته الواضحة في بناء صرح الدولة الأموية بما استُحدث في عهده من أعمال إدارية وعلمية وفتوحات نشرت راية الإسلام شرقًا وغربًا، إلا أن هذه الإنجازات والعطاءات التي تخللت فترة حكمه لا تمنع ذكر أحد مواقفه التي كانت قبل اعتلائه عرش الخلافة تنحى اتجاهًا، وعقب ارتقائه هذا العرش اتخذت منحى مخالفًا تمامًا عن سابقه، وهذا حال الكثير من البشر الذين إذا ما حازوا السلطة، وتربّعوا على عرشها تنازلوا على الفور عن الكثير من المبادئ التي كانوا يعتنقونها ويتنادون ويتغنون بها قبل ارتقائهم هذا الكرسي السلطوي..!!.

يتجسد ذلك في موقف عبد الملك بن مروان من عبد الله بن الزبير الذي بايع له أهل الحجاز بالخلافة عقب وفاة يزيد بن معاوية، وإطاعته فيما بعد اليمن والعراق وخراسان؛ هذا الموقف يتلخص في التالي: كان عبد الملك بن مروان قبل اعتلائه عرش الخلافة جالسًا في مسجد النبي -صلّى اللّه عليه وسلم-، وحدث أن جاء رجل يُدعى مسلم بن عقبة وجلس بجواره، فحدثه عبد الملك متسائلًا: أمن هذا الجيش أنت؟ - يقصد جيش بني أمية الذي جندوه ضدّ عبد الله بن الزبير- فرد عليه عقبة: نعم. فانتفض عبد الملك قائلا له: «ثكلتك أمك، أتدري إلى من تسير؟ إلى أول مولود في الإسلام، وإلى ابن حواري النبيّ -صلّى اللّه عليه وسلم-، وإلى ابن ذات النطاقين، وإلى من حنّكه النبي -صلّى اللّه عليه وسلم-، أما والله إن جئته نهارًا وجدته صائمًا، ولئن جئته ليلًا لتجدنه قائمًا، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبّهم الله جميعا في النار»، هذا موقفه قبل اعتلائه العرش..!!

أما موقف عبد الملك بن مروان من عبد الله بن الزبير عقب اعتلائه العرش فيتلخص في صدور أمره ل «الحجاج بن يوسف الثقفي» بالذّهاب إلى مكة والقضاء على حركة ابن الزبير، وبالفعل قام الحجاج بن يوسف الثقفي بما جُبل عليه من بطش وغلظه بتجهيز جيش واتجه به نحو ابن الزبير في مكة، وحاصره أشهرًا، ورماه ومن معه بالمنجنيق، فخذل أصحاب ابن الزبير قائدهم، وتسللوا متوجهين للانضمام إلى جيش الحجاج، فانتهى الأمر بالانتصار والقبض على ابن الزبير وقتله وصلبه، إضافة إلى ذلك قام الحجاج بقتل عبد

الله بن عمر حيث دَسَّ له مَن طعنه بحربة مسمومة، فلبث مريضًا أيامًا قلائل ثم مات، كما حدث أن ذهب الحجاج إلى المدينة وأخذ يتعنت على أهلها ويستخف بمن بقي فيها من صحابة الرسول -صلّى اللّه عليه وسلم-، وفي العام التالي لهذه الأحداث بعث الخليفة عبد الملك بن مروان الحجاج إلى العراق لولايتها خلفا لأخيه بشر بن مروان الذي كان له الاسم ولموسى بن نصير الرسم، على ما سيأتي تفصيله خلال الأسطر القليلة القادمة.

ذكر هذا الموقف ليس الهدف منه الحكم على عبد الملك بن مروان سواء بالإيجاب أم السلب، كل ما في الأمر أننا نحاول قدر الإمكان التوضيح أن هذه الشخصيات التي تزخر بها صفحات تاريخنا الإسلامي تقع في عداد البشر لها ما لها وعليها ما عليها، وفي النهاية حسابها على المولى جل وعلا، وبهذا نستطيع أن نتعرف مواطن القوة ونسير وفقها، ونستشف مواطن الضعف فنبتعد عنها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه الثقة التي حازها موسى من جانب الخليفة جعلت الأخير يرسل إلى أخيه عبد العزير بن مروان والي مصر ويطلب منه أن يبعث موسى إلى العراق ليكون وزيرا لأخيهما بشر بن مروان الذي أصدر الخليفة قرارًا بتوليته على البصرة قائلًا: «إني وليت أخاك بشرًا البصرة، فأشخص - ابعث - معه موسى بن نصير، وزيرًا ومشيرًا، وقد بعثت إليك بديوان العراق، فادفعه إلى موسى، وأعلمه أنه المأخوذ بكل خلل أو تقصير»، هذه الرسالة من قبل الخليفة عبد الملك لأخيه عبد العزيز توضح بصورة جلية مكانة موسى ومهارته السياسية والإدارية التي لم يتنبه لها عبد العزيز فحسب؛ بل تنبه لها الخليفة أيضًا مما دفعه إلى أن يطلب من أخيه أن يرسل موسى مع بشر وأن يكون موسى المسئول عن الإدارة، والمحاسَب على كل شاردة وواردة، والمأخوذ على كل كبيرة وصغيرة، وكأن الخليفة يهمس في أذن موسى قائلًا: لبشر الاسم، ولك أنت الرسم»، وهذه التجربة الجديدة التي سوف يخوضها موسى ستضيف له رصيدًا آخر يُضم إلى خبراته في مجال السياسة والحرب وإدارة شؤون البلاد.

خذها قاعدة:

لا تستهن بأي خطوة أو طريق قدّر ربنا جل وعلا لك أن تسلكه مهما حمل هذا الطريق من صعوبات وشبه مهالك، وحاول الاستفادة منه قدر استطاعتك، فقد يكون هذا الأمر بداية لدور أعظم اختاره لك المولى تبارك وتعالى..!!

لم يلبث الخليفة أن ضمّ إلى بشر ولاية الكوفة إلى جانب البصرة، فقام بشر على الفور وترك موسى في البصرة وتوجه مع البعض من جنوده نحو الكوفة، وفي أثناء طريقه إلى الكوفة أصيب بمرض غريب ابتدأ بحدوث حكة في لحيته

ثم وقوعها في كفه، مما أدى إلى تراجعه عن الذهاب إلى الكوفة وعودته مرة أخرى إلى البصرة، وما لبث إلا قليلًا حتى مات، وعقب سماع الخليفة بوفاة أخيه بشر أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي لولاية العراق، وهنا أرسل رجلٌ يُدعى خالد بن أبان رسالة إلى موسى بن نصير بما صدر من قرار الخليفة ونصحه بمغادرة العراق قبل قدوم الحجاج حتى لا ينال الحجاج منه حيث كتب له قائلًا: «إنك معزول، وقد وجه إليك الحجاج بن يوسف، وقد أمر فيك ب أغلظ أمر، فالنجاة، والرحيل، فإما أن تلحق بالفُرس فتأمن، وإما أن تلحق بعبد العزيز بن مروان مستجيرًا به، ولا تمكن ملعون ثقيف - يقصد الحجاج - من نفسك فيحكم فيك».

عندما وصلت موسى هذه الرسالة ارتقى فرسه وأسرع على الفور متجهًا إلى الشام لملاقاة الخليفة مقدمًا له تقريرًا عن المدة التي قضاها بالبصرة متوليًا أمرها ومديرًا شؤونها، وفي تلك الأثناء وصل الحجاج إلى العراق، وعلم بخبر مغادرة موسى وتوجهه نحو الشام، فأرسل إلى الخليفة موضحًا له أن موسى أهدر الكثير من أموال بيت المال، طالبًا منه إعادته له حتى يعلم فيمَ أنفقها قائلًا: «يا أمير المؤمنين، إنه لا قدر لما اقتطعه موسى بن نصير من أموال العراق، وليس بالعراق، فابعث به إليّ»، مما أدى إلى اتهام الخليفة لموسى بالتقصير، وفرض عليه غرامة جزاء هذا التقصير، وشاءت الأقدار أن يأتي إلى دمشق في تلك الأثناء والي مصر عبد العزيز بن مروان صديق موسى الصدوق، فدافع عنه وتحمل شطرًا من الغرامة التي فُرضت عليه، ثم اصطحبه معه مرة أخرى إلى مصر، وأطلق يده في إدارة شؤون البلاد وتدبيرها([4]).

تربى موسى بن نصير على سيرة السلف أمثال الفاروق الذي كان دائم التمثل بمقولته: «نحن نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله»، فلم يكن موسى بن نصير ينقطع لسانه فضلًا عن قلبه عن يقينه بتدبير ربنا جل وعلا لشؤونه، لذلك نجده يتحدث عن هذه الحادثة قائلًا: «لما قدمت الشام لقيت بها عبد العزيز، وكان ذلك من صنع الله»، وكأنه يهمس في أذن من يحدثهم مرددًا لولا تدبير ربي جل وعلا بقدوم صديقي الصدوق عبد العزيز بن مروان، ما كان عبد الملك بن مروان ليرد كلام الحجاج عني؛ بل لكان إضافة إلى تصديقه أنني أخذت من أموال بيت مال المسلمين، أن أرسلني إليه في العراق لمحاسبتي ونيل عقاب لم أقترف عليه جرمًا.

درة القول

إخوان الصفا خير مكاسب الدنيا، هم زينة في الرخاء وعدة في البلاء ومعونة على الأعداء، ولا يكون الصديق صديقًا – كما قال علي بن أبي طالب - حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في غيبته، ونكبته، ووفاته..!!

كان موسى بن نصير مثال الفارس الذي استقى مبادئ وقوانين الفروسية من معينها الأول والأصلي ممثلًا في مدرسة العظماء هذه المدرسة التي شيّدها كبار القادة الذين زخرت بهم صفحات تاريخنا الإسلامي؛ مثل: خالد بن الوليد، وأبو عبيدة بن الجراح فاتحًا الشام، وسعد بن أبي وقاص فاتح العراق وفارس، وعمرو بن العاص فاتح فلسطين ومصر؛ هؤلاء القادة الذين تربوا على وصايا عمر بن الخطاب الذي أرسل لسعد بن أبي وقاص قائلًا له: «أمّا بعد فإني آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال، فإنّ تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم على عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوفُ عليه من عدوهم، وترفق بالمسلمين في سيرهم، ولا تجشمهم مسيرًا يتعبهم، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تخص بها أحدًا بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت من أهل خاصتك، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها، فتصنع بعدوك كصنيعه بك، والله ولي أمرك وولي النصر لكم على عدوكم والله المستعان».

استطاع الصحابة بتنفيذ هذه الوصايا من جهة، وبجهودهم العملية من جهة أخرى أن يثروا مبادئ وقوانين الفروسية، كما أنهم قدموا للأجيال اللاحقة تجارب رائعة في فن إدارة البلاد وتدبير شؤونها، ناهيك عما خلفوه وراءهم من نماذج يحتذى بها في إتقان فن ودروب القيادة، هذه النماذج ممثلة في الأسماء اللامعة التي تخرجت من هذه المدرسة وكان لها الفضل في أن تحمل الدولة الأموية على عاتقها مشعل الفتوحات الإسلامية شرقًا وغربًا أمثال: مسلمة بن قتيبة الباهلي فاتح بلاد ما وراء النهر، ومحمد بن القاسم الثقفي الذي أعلا كلمة الإسلام في إقليم السند هذه البقعة النائية عن بلاد المسلمين، ومسلمة بن عبد الملك قائد الجيش والأسطول الإسلامي الذي خاض غمار محاولة فتح القسطنطينية قبل أن يتم تكليل نجاح فتحها على يد محمد الفاتح، ناهيك عن قادة الفتوح الإسلامية في شمال أفريقيا من أمثال: عقبة بن نافع الفهري، وزهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان الذين نقلوا راية الجهاد في تلك الأرجاء إلى موسى بن نصير وتركوا له تثبيت أقدام الإسلام هناك على هدى ما توافر له من مؤهلات انفرد بها عن غيره.

عندما يطرق مسامعنا اسم «موسى بن نصير» كل ما يتجسد في مخيلتنا هو ما حققه من فتوحات وإنجازات في الغرب الإسلامي، وننسى أن هذه الصورة لها خلفية، هذه الخلفية عبارة عن التجارب التي خاضها، والخبرات التي اكتسبها في المشرق الإسلامي قبل أن تكلل هذه التجارب والخبرات بأن

يُخَوّل له خوض غمار مغامرة بل مغامرات جديدة، ولكن هذه المرة ينتقل ميدان مغامراته من الشرق إلى الغرب، فكانت هذه السنوات السابقة لقدومه إلى الغرب بمثابة سنوات الإعداد التي أصبحت الدليل الذي أخذ بيد موسى وخَوّل له سطر اسمه في التاريخ بحروف من نور، فمحطات التدريب واكتساب الخبرات في المشرق الإسلامي تجسدت لتثبت فعاليتها ومن ثَمَّ تؤتي ثمارها وأُكلها بما سيحققه موسى من إنجازات وبطولات في الغرب الإسلامي.

توافدت الجيوش الإسلامية على موسى بن نصير، فحشدها وأكمل تحضيراته الإدارية ثم وقف خطيبًا على رأس جيشه، حيث قال: «وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فلينكرها، فإني أخطئ كما تُخطئون، وأُصيب كما تُصيبون، وقد أمر الأمير – يقصد عبد العزيز بن مروان - أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثًا، فخذوها هنيئًا مريئًا، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عزّ وهان، ومع المواساة إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله»، بهذه البداية الموفّقة بدأ موسى خوض غمار تجربته الجديدة في الشمال الأفريقي.

كانت خطة موسى بن نصير في الشمال الأفريقي هي إكمال جهود مَن سبقه من الجند والدعاة قادة وجيشًا من حيث ترسيخ الإسلام في هذا القطر حديث العهد به، لذلك أدرك منذ الوهلة الأولى أن تعميق الإسلام في هذه المناطق يتطلب تثبيته في النفوس، لذلك جهز موسى بن نصير جيشًا لا يحمل السيوف فحسب بل يحمل معه العلم والمعرفة أيضًا، وذلك لترسيخ وتفقيه وإفهام أهل الشمال الأفريقي هذا الدين، وتَمكن موسى بن نصير بهذا لا أن يرسخ الإسلام في قلوبهم فحسب، بل غدوا فيما بعد هم حاملي مشعل نشر هذا الدين خارج القطر المغربي، ويلحظ القارئ ذلك من جيش المسلمين الذي توجه لفتح الأندلس، هذا الجيش الذي كان أغلبه من أهل هذا القطر المغربي.

بدأ موسى بن نصير مغامرته الجديدة متجهًا إلى المغرب، وعندما وصل إلى بلاد المغرب وجد أن البربر قد طمعوا في البلاد عقب ترك واليها حسان بن النعمان لها، فجمع موسى الناس وألقى فيهم خطابًا بيّن فيه بوضوح الخطوط العريض لسياسته العامة في الفتح، وهي قتال العدو القريب أولًا، حتى إذا انتهى من أمره يتم التوغل بالتدريج لإعادة إخضاع المناطق البعيدة، وذلك تفاديًا للخطأ الذي وقع فيه مَن سبقه مِن القواد الذين غلب على فتوحاتهم طابع السرعة، بمعنى السير في فتح المناطق والتوغل فيها دون توقف لتأمين ظهورهم، ويتضح ذلك جليًّا مما حدث للقائد الفذ عقبة بن نافع من انقلاب البربر عليه والإحاطة به ثم قتله.

أيضًا لا يفوتنا أنْ نشير أن من ضمن السياسة التي انتهجها موسى بن نصير حتى يصهر العرب والبربر في بوتقة واحدة، اتجاهه عمليًّا في عدم التفرقة بينهم وبين العرب الفاتحين، وذلك عن طريق إسناد المناصب للأكفاء من العرب والبربر سواء، ولعل تولية طارق بن زياد أحد أخطر المناصب القيادية ممثلة في قيادة جيش فتح الأندلس خير دليل على سياسة موسى الموفقة، وهي أنّ الكفاءة وحدها هي التي تُقدم الرجال أو تُؤخرهم بصرف النصر عن جنسهم وانتمائهم أو أقدميتهم - كما هي السياسة الدارجة في زماننا -؛ هذه السياسة التي انتهجها موسى بن نصير جعلت البربر يبذلون قصارى جهدهم ويقفون مع العرب الفاتحين كتفًا بكتف سواء كان ذلك في ساحات المغرب، أم في ساحات الأندلس، وهذه النتيجة تثبت أن موسى بن نصير كان آنذاك رجل المرحلة، ورجل دولة، وقائدًا حصيفًا بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ.

بهذه السياسة استطاع موسى بن نصير أن يفرض سيطرته على الشمال الأفريقي، ومن ثم اتجه للخطوة التي تليها وهي: بذله الجهود المضنية في سبيل نشر الإسلام وغرسه في قلوب أهل هذا القطر، فوطّن الدعاة ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام، وساهم في نشر اللغة العربية بين البربر عن طريق هؤلاء الدعاة، إضافة إلى الاختلاط وتوثيق أواصر الثقة بين العرب والبربر، فأقبل البربر على الإسلام وتعلموا العربية ونشروها فيما بينهم، مما كان له أبلغ الأثر في عروبة المغرب، وشيوع روح الانسجام الفكري بين العرب والبربر، فصاروا قوة موحدة تجسدت معالمها في تكاتفهما – العرب والبربر - في فتح الأندلس؛ بهذه السياسة الحكيمة جعلهم موسى يدافعون عن عقيدة واحدة بقيادة واحدة، لتحقيق هدف واحد هو: إعلاء كلمة الله ونشر دينه.

خذها قاعدة:

ليس النجاح أن تهدم ما أقامه أسلافك من أعمال، وإنما يتجسد النجاح بكل معانيه في أن تحافظ على هذه الأعمال وتعدلها إذا ما وجد فيها بعض من قصور، ثم تضيف إليها بصمتك الشخصية الناجمة عن وعيك وثقافتك البناءة..!!

لم يكتفِ موسى بن نصير بما حققه من انتصارات حربية وعسكرية فضلًا عن الإدارية، حيث شرع في استخدام خبراته البحرية السابقة التي اكتسبها في المشرق وبدأ تطبيقها هنا على أرض المغرب، فأمر ببناء ترسانة بحرية في تونس، وأحضر مَن لديهم الخبرة في صناعة المراكب مِن المسلمين، وأمرهم بتجهز أسطولا بحريا، وبمجرد أن تمّ له ذلك جهز جيشًا وأمره بارتقاء هذا الأسطول البحري وعلى رأسه ابنه عبد العزيز، وأمره بالتوجه لفتح صقلية، وبالفعل تم للمسلمين فتح صقلية والعودة منها سالمين غانمين، كما وجّه عياش بن أخيل على مراكب أهل أفريقية، ففتح جزيرة صقلية للمرة الثانية،

واستولى على مدينة من مدنها تسمى سرقوسة وعاد منتصرًا؛ وفي عام ٨٩ه/ ٧٠٨م بعث قوة لغزو سردينيا ففتحها، وفي العام نفسه جهز ابنه عبد الله بما يحتاجه من جند وعتاد، ثم سار في البحر، ففتح جزيرتي ميورقة ومنورقة، وهما جزيرتان في البحر بين صقلية والشاطئ الأندلسي.

عقب ضمان موسى بن نصير ولاء أهل المغرب وتمسكهم بدعوة الإسلام، أخذ يعد العدَّة لغزو جديد، وبينما هو يفكر في هذا الأمر جاءه رسول يخبره بأنّ يوليان حاكم سبتة يعرض عليه أن يتقدم لغزو شبه الجزيرة الأيبيرية([5]) – الأندلس-، حيث كانت آنذاك خاضعة لحكم القوط الغربيين، وكان ملكها آنذاك ويدعى لذريق، قد اغتصب الملك من أبناء الملك السابق له ويدعى غطشة، ولم يكن أتباع الملك السابق ومؤيدوه فضلًا عن أفراد أسرته راضين عن هذا الحكم، فتحينوا الفرص لاستعادة ملكهم الذي اغتصب منهم، وقد وجدوا ضالتهم في ذلك الوقت عند المسلمين.

اجتمع موسى بن نصير مع يوليان صاحب مدينة سبتة هذه المدينة التي استعصى على المسلمين فتحها؛ ويرجع ذلك لمناعة قلاعها، غير أن تطور الأحداث دفع بصاحبها إلى الارتماء في أحضان المسلمين؛ فعرض على موسى وحَسَّنَ له فتح شبه الجزيرة؛ وذلك لحقده على ملكها الذي قام بالاعتداء على ابنته؛ إلى جانب رغبته في مناصرة أبناء الملك غطشة الذين استنجدوا به لمعرفتهم بما كان يربطه بوالدهم من علاقات وطيدة، فنالت الفكرة قبولًا لدى موسى بن نصير، وكان صاحب حنكة ودهاء، فلم يُبدِ ليوليان ذلك، وأرسل إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يخبره، ويستأذنه في فتح الأندلس، فكتب إليه الوليد «أن خضها بالسرايا - قلة من الجنود - حتى تختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال».

يمكن القول بأن فكرة فتح شبه الجزيرة الأيبيرية هي فكرة إسلامية، بل ويروى أنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، فقد كان القائد عقبة بن نافع الفهري يفكر في اجتياز المضيق إلى إسبانيا لو استطاع، أما الاتصال بيليان حاكم مدينة سبتة أو بغيره من الإسبان، فإنها كانت مواتية على ما يبدو في الوقت الذي كان موسى بن نصير يفكر في تنفيذ فكرة الفتح.

استدعى موسى بن نصير أحد رجال جيشه ويدعى أبا زرعة طريف بن مالك المعافري، وأرسله على رأس نحو ثلاثة آلاف رجل من البربر، وقيل: أربعمائة رجل، وقيل: مائة فارس وأربعمائة راجل في رمضان سنة ٩١ه/يوليه سنة ٧١٠م، فعبر طريف وجنوده إلى الأندلس، ونزل الجزيرة([6]) التي سميت باسمه، فأغار عليها وعلى المناطق القريبة منها، فأصاب سبيًا ومالًا كثيرًا ورجع سالمًا.

اغتنم موسى بن نصير في السنة التالية فرصة ابتعاد لذريق عن طليطلة لانشغاله بإخماد إحدى الثورات القائمة ضده، فندب مولاه طارق بن زياد، وعقد له الراية، ومن ثَمّ أمره بالتوجه إلى الأندلس، فتجهز طارق بن زياد في جيش قوامه سبعة آلاف من المسلمين جُلهم من البربر في أربعة سفن وحط بجبل طارق (الذي نُسب إليه عقب هذه الواقعة) وظلت هذه المراكب تذهب إلى العدوة المغربية ذهابًا وإيابًا إلى أن توافد عليه جميع أصحابه واستقروا بالجبل، ولعل نسبة الجبل لطارق مكافاة دنيوية طيبة على عمل طارق وتخليد بطولته، زيادة على مكانته في نفوس المسلمين ممن يقدّرون هذه الصفات ويشيدون بهذا العمل، ولقد سمى هذا الجبل عقب الفتح الإسلامي بأسماء أخرى، مثل: الصخرة، وجبل الفتح، لكن الشائع هو جبل طارق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طارق بن عمرو بن زياد، وقيل: طارق بن زياد بن عبد الله، ذكر أنه فارس همذاني، وذكر آخرون أنه بربري من نفزة، ونكرر لا يهمنا نسبه بقدر ما يهمنا عمله الذي خلده في صفحات التاريخ عملًا بقول الله-عزّ وجل- يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٍ وقول رسوله -صلّى اللّه عليه وسلم- في حجة الوداع: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...».

وصدق القائل

عليك بتقوى اللهِ في كل حالةٍ

ولا تتركنَّ التقوى اتِّكَالا على النسبِ

فَقَدْ رفَعَ الإسلامُ سلمانَ فَارسٍ

وقدْ خَفَضَ الشركُ اللعِينَ أبا لهبِ

ناهيك عن غيرها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، إضافة إلى الأبيات الشعرية والأقوال المأثورة التي تزخر بها صفحات تاريخنا الإسلامي والتي تشير إلى أن الإنسان ليس ابن عائلته، لأن هذا لا بد له منه، فهو لم يختر أن يكون سليل هذه العائلة أو تلك، وإنما تتجسد مقومات اختياره في اختيار الطريق الذي قرر السير فيه، فأي الطريقين تختار: هل تريد أن تولد ومن ثم تمر عليك دورة الحياة الطبيعية إلى الممات شأنك شأن الملايين بل المليارات من الناس منذ بدء البشرية حتى يوم الناس هذا، والذين لم نسمع

أو نعرف أعدادهم فضلًا عن أن نقف على أسمائهم وأسماء عائلاتهم وانتماءاتهم و...؟!!، أم تريد أن تسلك الطريق الذي سلكه أسلافك الذين سُطرت أسماؤهم في صفحات التاريخ بحروفٍ من نور، سطروها بأفعالهم التي نبعت من إيمانهم وحبهم لهذا الدين، فجندوا أنفسهم للذود عنه وإيصاله للبشرية جمعاء بما توافرت لهم من مقومات آنذاك، بسواعدهم صنعوا هذا التاريخ؛ بل من دونهم ما كان هناك تاريخ فضلًا عن خلق حضارة يتغنى بها العالم حتى يوم الناس هذا..!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نزل طارق بن زياد الأندلس في شعبان عام ٩٢ه/٧١١م، فتمكن هو وجيشه من القضاء على المقاومة التي تصدت لهم، وبدأ المسلمون ببسط سلطانهم على المناطق المجاورة لجبل طارق، وجرت لقاءات بين المسلمين والقوطيين انتهت بانتصار المسلمين حتى إن القوط أرسلوا إلى زعيمهم لذريق، وكان على رأس جيش لإخماد ثورة أقيمت ضده في شمال شبه الجزيرة الأيبيرية، أرسلوا إليه يطلبون نجدته قائلين له: «أدركنا فقد غشينا قوم لا ندري أمن أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيناهم فلتنهض إلينا بنفسك».

أدرك لذريق أن البعوث التي أرسلها لإيقاف زحف الجيش الإسلامي لا طائل من ورائها، لذلك قرر حشد رجاله وقيادتهم بنفسه، واستطاع أن يضم إلى جيشه كثيرًا من الأمراء والأشراف والأساقفة، فتَكَوَّنَ منهم جيش ضخم اختلفت الروايات في تقديره بين مائة ألف، وتسعين ألفًا، وذكر ابن خلدون أن تعداد الجيش كان أربعين ألفًا، الغريب في الأمر أنه على الرغم من إرسال القوط لملكهم موضحين له هول الموقف الذي هم بصدده لدرجة أن يبعثوا له قائلين: «أدركنا فقد غشينا قوم لا ندري أمن أهل الأرض أم من أهل السماء» إلا أن هذا لم يجعله يفكر مجرد تفكير في التخلي عن غروره وغطرسته حتى يتمكن من تقدير الأمر قدره، فنجده قدم إلى لقاء المسلمين وهو على سرير ملكه المحلى بالذهب الذي يحمله بغلان، وعلى رأسه تاجه الملكي المصنوع من الذّهب الخالص، ويرتدى أفخر الثياب الموشاة والمزركشة بالذهب والفضة، فالناظر إليه من قريب أو بعيد يخيل له أنه قادم لحضور حفل امبراطوري وليس لصدّ قوم جاءوا للاستيلاء على بلاده، وأقاموا السيوف على رقاب جنده، ولم يكتفِ بذلك بل كلّف جنده بحمل الحبال التي يهدف منها إلى توثيق المسلمين عقب إيقاعهم في الأسر، وكأنه على يقين من النصر عليهم، وهذا حال المتكبرين والمتغطرسين والجُهّال على مر العصور.

عندما تناهى إلى سمع طارق بن زياد قدوم جيش لذريق، كتب إلى موسى بن نصير يستنجده، فأرسل له موسى جيشًا قوامه خمسة آلاف من المسلمين

فاكتمل تعداد المسلمين اثني عشر ألفًا؛ بمجرد النظر لطرفي هذه المعركة التي أوشكت على الاندلاع والتي بلغ تعداد المسلمون فيها اثني عشر ألف مقاتل، وتعداد عدوهم أربعين ألف مقاتل على أقل تقدير، يتملك قلب الناظر الشفقة على المسلمين لعدم تكافؤ المعركة مع عدوهم على كافة المستويات، فهم بلا عدد ولا عدة مقارنة بأعدائهم، ناهيك عن قتالهم في أرض مجهولة بالنسبة لهم، على الصعيد الآخر نجد أعداءهم تفوقوا في العدد والعدة، ناهيك عن معرفتهم بدروب بلادهم ومسالكها، فتُرى من سيكون النصر حليفه في هذه المعركة غير المتكافئة؟!!.

هل عوامل النصر هنا تُحسب بالورقة والقلم بمعنى مَن يملك العدد والعدة، ويكون على دراية بمسالك أرض المعركة ودروبها سينتصر لا محالة؟!! أم سيكون للمعركة حسابات أخرى، بمعنى سيكون النصر فيها حليف من يملك الهدف والرؤية، هدف النصر متطلعين إلى رؤية مفادها إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة؟!!.

توجه لذريق وجيشه جنوبًا والتقى بجيش المسلمين في ٢٨ رمضان ٩٢ه/ ٧١١م في «وادي برباط» أو «وادي لكة» على مقربة من مدينة «شذونة»، ودارت رحى المعركة بين الطرفين، واستمرت ما يقرب من ثمانية أيام، ثم انتهت بنصر وظفر المسلمون، وهزيمة ساحقة لأعدائهم من القوط، فرّ على إثرها لذريق مع البعض من فلول جيشه وانقطع خبره عقب هذه المعركة، فلا يُعرف إلى أي مآل قد آل، لذلك تعتبر هذه المعركة التي عرفت في التاريخ بمعركة «وادي برباط» أو «وادي لكة» هي المعركة التي فتحت أبواب الأندلس أمام الفاتحين الجدد فتوغلوا فيها فاتحين ظافرين، حتى تم لهم فتحها وانضواؤها تحت راية الإسلام..!!

تذكر

انتصر المسلمون في هذه المواقع أو المعارك لأنهم كانوا يخوضون هذه المعارك وهم على يقين أنهم سيحوزون إحدى الحسنيين؛ إما نصر؛ وإما شهادة، أملًا في جنة عرضها كعرض السموات والأرض أعدت للمتقين، وتذكروا ليس المهم أن نصل إلى نهاية الطريق، بل الأهم أن نموت على الطريق..!!

عقب انتهاء معركة «وادي برباط» طارد طارق بن زياد فلول الجيش المنهزمة، وانطلق بجيشه فاتحًا للأندلس، وأثناء سيره نحو مدينة طليطلة عاصمة القوط آنذاك قام بإرسال حملات عسكرية لفتح المدن مثل قرطبة، والبيرة، ومالقة، وواصل سيره شمالًا مخترقًا هضاب الأندلس حتى دخل طليطلة بعد رحلة شاقة مضنية بلغت ما يزيد على ستمائة كيلو متر عن

ميدان معركة «وادي برباط» في وقت لم تتيسر فيه بالطبع وسائل المواصلات اللهم إلا الخيل، ناهيك عن وعورة الطريق وجهل مسالك البلاد كما ذكر آنفًا.

دخل طارق بن زياد مدينة طليطلة وأبقى على من ظل بها من السكان، وأحسن معاملتهم، وترك لهم كنائسهم، وأطلق لهم حرية العبادة وأمنهم على أنفسهم كما هي أخلاق المسلمون في كل المعارك التي خاضوها مع عدوهم، ثم تابع زحفه شمالًا حتى وصل إلى خليج بسكونيه، ثم عاد ثانية إلى طليطلة، وكتب إلى موسى بن نصير يحيطه علمًا بأنباء الفتح وما أحرزه من نصر.

كان موسى بن نصير يتابع سير الجيش الإسلامي في الأندلس، ومع توارد الأخبار المتواترة عليه أدرك أن الجيش الإسلامي في حاجة إلى عون ومساندة خاصة بعد استشهاد البعض من رجال الجيش أثناء خوض هذه المعارك، فعَبَر إلى الأندلس في ثمانية عشر ألف جندي في رمضان ٩٣ه/ ٧١٢م، وسار بجنده في طريق مخالف للطريق التي سلكها طارق أثناء فتحه، ليفتح بلادًا جديدة، واستمر في طريقه حتى وصل طليطلة والتقى بطارق بن زياد، وعقب استراحة القائدين وتحاورهما بشأن الفتح وحال الجند والغنائم وغيرها من الأمور، عادا إلى إكمال فتح ما تبقى من المدن، فافتتحا سرقسطة، وطركونة، وبرشلونة، وغيرها من المدن، ثم افترق الفاتحان، وسار كل منهما في ناحية حتى أتما فتح الأندلس.

اعلم أن

شهر رمضان على مر العصور الإسلامية هو شهر الجد والاجتهاد، النصر والفتوحات؛ على عكس زماننا تمامًا الذي أضحى فيه هذا الشهر هو شهر الخمول والكسل.

يقضى المسلمون في زماننا نهار شهر رمضان في النوم، ويقضون ليله في السهر في أمور لا تفيد الإنسان في دينه ولا دنياه، مثل الجلوس على المقاهي، وفي الخيام الرمضانية هذه العادة أو المسمى الغريب المستحدث، ناهيك عن التلفاز وما به من قنوات النايل سات التي لا تعد ولا تحصى هذه القنوات التي تتنافس في عدد المسلسلات أو الأفلام التي تقوم بعرضها وكأن شهر رمضان جُعل لذلك، أضف إلى ذلك الإنترنت والانشغال بالهواتف النقالة، والتنقل بين برامج التواصل الاجتماعي، وغيرها مما لا يخفى عليك أخي القارئ وأختي القارئة.

لماذا لا نعقد سويًّا اتفاقًا مفاده: أن نتعامل مع هذا الشهر على أن كل شخص منا يعطى فيه خزينة، هذه الخزينة ليست خزينة لحفظ المال، وإنما لحفظ الحسنات والأعمال الصالحات، بمعنى فليتخيل كل منا أنه يملك خزينة خاصة

به، وعليه أن ينتهز فرصة مضاعفة الثواب في هذا الشهر الكريم، ويملأ خزينته بما لذ وطاب من الحسنات والأعمال الصالحات، فعليك بالقرآن والذكر والصدقة وغيرها من أبواب الخير التي لا تخفي على مسلم.

كذلك على من يقضي جل وقته في عمله أو دراسته أن يستغل هذه الأوقات التي تُهدر ذهابًا وإيابًا إلى موطن عمله أو دراسته في قراءة القرآن أو الذكر، ولا ينسى تجديد النية، فبالنية تُحوّل العادة إلى عبادة، فكما أننا ندعو إلى عدم إهدار أوقات هذا الشهر فيما لا يفيد في دين ولا دنيا، فإننا لا ندعو إلى الاعتكاف وترك الأعمال والمهام المنوط بها المرء والانشغال بقراءة القرآن والذكر والقيام مع عظم قدر هذه الأعمال، لأن المسلمين على مر العصور لم يتركوا أو يؤجلوا الأعمال التي كانوا منهمكين فيها بمجرد دخول هذا الشهر متجهين إلى الاستيطان في المساجد كما ذكر آنفًا.

تذكر

أن هذه الخزينة هي ذخيرتك التي ستستنفد منها الكثير من جراء انشغالك بالحياة في باقي أيام السنة.

تمكن المسلمون من السيطرة على أغلب مدن الأندلس مثل إشبيلية، وقرطبة، وطليطلة، وغيرها من المدن الأندلسية غير أنهم لم يسيطروا على الأقاليم المتطرفة نظرًا لبرودتها، ووعورة مسالكها، ومنها ولاية أشتوريا([7]) التي ظلت محتفظة باستقلالها تحت حكم القوط الغربيين.

خرج موسى بن نصير من الأندلس برفقة طارق بن زياد عام ٩٥/٧١٤م متجهًا نحو الشام عقب وصول رسالة الخليفة الوليد إليه يطلب منه سرعة القدوم عليه، وذلك بعد أن استخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز، فحملا – موسى وطارق - معهما مكاسب ومغانم لم تعهدها الفتوح من قبل، مُرسيًا لأول مرة قدم الإسلام في تلك البلاد الغريبة النائية؛ بالنسبة لطارق بن زياد انقطع خبره بمجرد قدومه إلى دمشق، قيل: «إن حكام بني أمية غدروا به، وأنه عاش أخريات أيامه شريدًا متخفيًا عن الأنظار، فقيرًا منسيًّا، أرهقه الدّين، وكأنه ما كان ذلك الفاتح الذي بني ذلك البنيان، ولا أقام ذلك الصرح، ولا فتح ذلك الفتح»، إلا أننا لا نستطيع الجزم بذلك، وكل ما يمكننا الاعتماد عليه أنه لم يولَّ لبني أمية أي عمل عقب قدومه إلى دمشق ومن هنا انقطعت أخباره.

حدث أنه عندما مرض الوليد المرض الذي مات فيه، كتب إلى موسى يأمره بسرعة القدوم إليه ليدركه قبل الموت، وفي نفس الوقت ودون علم الوليد كتب سليمان ولي العهد آنذاك إلى موسى أن يبطئ في المجيء، وكلاهما كان يرنو إلى أن يُنسب إليه فضل الفتح الأندلسي دون صاحبه، وفي نفس

الوقت يحوز ما يحضره موسى وطارق من هدايا وغنائم غنماها من الأندلس؛ وكانت كما وصفها ابن عذاري: «لم يُسمع بمثل سبايا موسى في الإسلام».

وصل كتابا الوليد وسليمان إلى موسى بن نصير، وكان عليه أن يتخير أحد الأمرين؛ هل يختار أن يسرع حتى يدرك الخليفة الوليد وهو على فراش الموت مهما غضب عليه سليمان الخليفة القادم؟!! أم يتملق ولى العهد الذي أوشك على اعتلاء عرش الخلافة؟!!.

اختار موسى بن نصير بما جُبل عليه من رقي الأخلاق وسمات الرجولة أن يجيب رسالة الوليد الذي وافق على فكرته بفتح الأندلس، فأسرع في القدوم إليه، وهذا ليس بمستغرب على أخلاق الرجال التي تعطرت بأخلاق الفروسية.

فلا غرو أن يصدر مثل هذا الفعل من موسى الذي تربى وترعرع على يد أبيه نصير الذي حدث أن ولاه معاوية بن أبي سفيان على قيادة جيشه، إلا أن نصير لم يوافق أن يقاتل معه عليًّا، وهنا عاتبه معاوية قائلًا: «ما منعك من الخروج معي على عليّ – يقصد علي بن أبي طالب – ويدي عليك ولم تكافئني عليها»، فرد عليه نصير: «لم يمكنني أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكري»، فقال معاوية: ومن هو؟!!، قال نصير: الله تبارك وتعالى، وهنا أطرق معاوية مليًّا، ثم قال: استغفر لله، وعفا عنه.

فهذا موسى فاتح المغرب والأندلس، وذاك معاوية كاتب الوحي فلا عجب أن يحوزا من الأخلاق ما لا يحوزها غيرهما..!!

فأين نحن الخلف من ذاك السلف؟..!!

أدرك موسى الوليد على فراش الموت، وهنا غضب سليمان وقال: «والله!! لئن ظفرت به لأصلبنه»، وعقب وفاة الوليد دعا سليمان موسى بن نصير وعنّفه على فعله قائلا: «والله!! لأقلّن غَربك، ولأفرقنّ جمعك، ولأصغرنّ من قدرك»؛ فرد عليه موسى ردّ العزيز الذي لم يبغِ بجهاده يومًا غير وجه الله تبارك وتعالى، حيث قال: «أما قولك تقلّ من غربي، وتخفض من قدري، فإن ذلك بيد الله، وإلى الله لا إليك وبه أستعين عليك»؛ فأمر به الخليفة سليمان أن يقف في يوم شديد الحر تحت أشعة الشمس الحارقة، وحدث أن وقع موسى مغشيًّا عليه، وهنا قال سليمان: «هكذا، ما أراني إلا وقد بررت في يميني وخرجت منه»، ثم أخذه يزيد بن المهلب عقب استئذان الخليفة سليمان، واستضافه لديه إلى أن تعافي واستقرت الأمور بينه وبين الخليفة.

تعرض موسى بن نصير عقب وفاة الوليد لجملة من المحن والابتلاءات التي اخُتبر بها مدى صبره وجلادته، فاستقبل هذه المحن والابتلاءات راضيًا مُذعنًا لقضاء الله تبارك وتعالى وقدره، حيث حبسه الخليفة سليمان كما بعث إلى

رجاله في الأندلس أن يقتلوا ابنه عبد العزيز الذي ولي الأندلس خلفًا لأبيه([8])، وبالفعل قام عليه رجاله وقتلوه وفصلوا رأسه عن جسده وأحضرها أحدهم إلى سليمان، فأمر سليمان أن تُعرض على موسى بن نصير، وعندما وقعت عين الأب على رأس ابنه مطروحة بين يده ابتلع ريقه وانهال نزيف قلبه أنهارًا، إلا أنه صبر ورضي بالبلاء وقال: «هنيئًا له الشهادة، قتلتم والله صوّامًا قوامًا» وقد وصف ابن عذاري حالته تلك قائلًا: «فتجلّد لحر المصيبة»، وقد علق أحد أعلام العصر وهو الرازي على هذا الحادث قائلا: «فكانوا يعددون فعل سليمان هذا بموسى وابنه من كبار زلاته التي لا تزال تُنقم عليه»([9]).

على الرغم من استقرار الأمور بين سليمان وموسى بن نصير إلا أن الخليفة سليمان كان لا زال يحمل على موسى، ولم يزل يعنّفه على فعلته معه بأسلوبه الخاص، فنجده وقد دعاه يومًا وتحدث معه عن الفتوحات والغزوات التي قام بها، وعقب ذلك دعا سليمان بطست من ذهب وجعل ينظر إليه تارة وإلى موسى تارة أخرى، وهنا أدرك موسى مرمى سليمان من هذا الفعل، فكأن لسان حال الخليفة يقول له أنت الذي رفضت أن تسعى إليّ بقولي لك أبطئ في المجيء إلى الوليد حتى تأتى لي بالهدايا والغنائم التي حزتها من الأندلس، ها قد جاءني من الفتوحات هذا الطست الذي صنع من الذهب الخالص..!!.

فقل له موسى: «إنك لتعجب من غير عجب!!، والله!! ما أحسب أن فيه عشرة آلاف دينار!!، والله!! لقد بعثت إلى أخيك الوليد بتنور من زبرجد أخضر ، كان يُصب فيه اللبن فيخضر وتُرى فيه الشعرة البيضاء، ولقد قوّم بمائة ألف مثقال، وإنه لمن أدنى ما بعثت به إليه، ولقد أصبت كذا!، وأصبت كذا»، واستمر يعدد لسليمان كل ما أصابه من الدرر والياقوت والزبرجد وغيرها مما لم يسمع عنه فضلًا عن أن يُرى مثله، وهنا سكت سليمان ولم ينبس ببنت شفة.

لم يفتأ سليمان يتحدى موسى فيما ملك وحاز من جراء قيام قواده بالغزوات والفتوحات، وكان من جملة ذلك أنه خرج يومًا للصيد واصطحب موسى معه، وأثناء سيرهما مرَّا بمكان يحوي ألف شاة كلها للخليفة سليمان، وهنا التفت الخليفة إلى موسى وقال له: هل كان لك مثل هذا؟!! فضحك موسى وقال له: «والله!! لقد رأيت لأدنى موالي أضعاف هذا»، فعجب سليمان قائلًا: لأدنى مواليك؟!! فقال موسى: «نعم والله!! نعم والله!!»، وظل يرددها مرارًا ثم قال: «وما هذا فيما أفاء الله عليّ؟، لقد كان الألف شاة تباع بعشرة دراهم، كل مائة بدرهم!!، ولقد كان الناس يمرون بالبقر والغنم فلا يلتفتون إليها، ولقد رأيت العلج الفاره وامرأته وأولاده يباعون بخمسين درهمًا»، وكالعادة لم يملك سليمان ردًّا أمام عزة موسى بن نصير واعتزازه.

كذلك عندما حجّ سليمان اصطحب معه موسى، وأثناء الحج رأى موسى رؤيا، وفي الصباح حدّثَ أحد أقربائه عن هذه الرؤيا قائلًا: «ليموتن بعد غد رجل قد ملأ ذكره المشرق والمغرب»، فظنّ رفيقه أن هذا الرجل هو خليفة المسلمين، ولكن لم يكن ظنه في محله لأنّ الذي مات في اليوم التالي هو موسى بن نصير.

أثناء غوصنا في قصة موسى نلاحظ كلماته وكأننا نستمع نبرة صوته تهز الأرض من تحت أقدامه وهو يرد على الخلفاء بكلمات مُلئت بالعزة والقوة، وفي نفس الوقت مُزجت بالتواضع وإرجاع الأمر إلى فضل الله تبارك وتعالى وكرمه، فشعور العزة والكرامة واحترام الذات وتقديرها لا يتنافى بحال والتواضع وخفض الجناح للمسلمين.

سأل الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير هذا الشيخ المجاهد الذي ظل يقود جيوش الفتح الإسلامي بنفسه معتليًا فرسه حتى بلغ الثمانين من عمره، هذه السن التي تُعرف في زماننا بسن التقاعد، هذه السن التي يقضيها الرجال في المقاهي وحل الألغاز والكلمات المتقاطعة، سأله قائلًا: «ما الذي تفزع إليه عند خروجك ومباشرة عدوك؟!!!، فقال موسى: كنت أفزع إلى التضرع والدعاء والصبر عند اللقاء..!!؛ قال: أخبرني عن الروم؟!!!؛ قال موسى: «أُسُد في حصونهم، عقبان على خيولهم، نساء في مواكبهم، إن رأوا فرصة انتهزوها، وإن زادوا غلبة، فأوغال في الجبال، لا يرون الهزيمة عارًا»؛ قال سليمان: «فأخبرني كيف كانت الحرب بينك وبينهم، أكانت لك أم عليك؟!!!؛ فقال موسى: أما هذا!!! فو الله!!! ما هُزمت لي راية قط، ولا بُدد جمعي، ولا نُكب المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين».

إنه زمان العزة، كان زمان العزة بمثل هؤلاء الرجال..!!

وضّح موسى بن نصير للخليفة سليمان بن عبد الملك أنه منذ دخل الأربعين حتى شارف على الثمانين لم تُهزم له راية..!!، وهذا القول بالطبع لم يكن دربًا من الخيال أو فيه أي شبهة مبالغة، تدرون لمَ؟!!، لأن من تتبع حياة أي رجل من طراز موسى بن نصير ومن هم على شاكلته من الرجال الذين قدروا هذا المصطلح وأعطوه قدره حتى استحقوه بجدارة، يلحظ أنهم قضوا سنواتهم الأول في الدرس والتحصيل كما كانت حياتهم حافلة بالمواقف العصيبة والتجارب الفريدة التي استفادوا منها، فهم لم ينزلوا على القمة من أعلى؛ بل تسلقوا سلم الصعود للقمة درجة تلو الأخرى، وكان تسلق كل درجة أصعب من التي سبقتها حتى جاءت اللحظة الحاسمة ووصلوا إلى القمة، ولم يكتفوا بالوصول بل حافظوا على ما حققوه ثم اعدّوا الجيل اللاحق لهم حتى يسلموا له الراية ثم يتركوا له خيار المحافظة عليها أو تركها والتخاذل عنها..!!.

اعلم

أنت..!! أنت فحسب.. الذي تضيف للرجولة الصفة، وليست الرجولة التي تضيف لك ذلك..!!

قبل أن ننهي حديثنا عن بطلنا موسى بن نصير لا بد من الإشارة إلى قول خوليان ريبيرا في كتابه «التربية الإسلامية في الأندلس» عن المسلمين الذين قدموا إلى الأندلس، حيث تحدث عنهم قائلًا: «في أيام الفتح الأول انحصر عدد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية في الجاليات العسكرية التي كانت تحتل المدن والقلاع القوية، لكي يخضعوا الأرض التي فتحوها، وتميزت الكتب والتعليم بغيابهما، وكل ما هنالك أن المسيحيين احتفظوا بتقاليدهم اللاتينية في نفس لغة أسلافهم، ولكن عندما ارتفع عدد الذين اعتنقوا الإسلام، وتطلبت حاجة الدولة رجالًا تعمقوا في دراسة الشريعة الإسلامية، بدأنا نلحظ طلائع استيراد الكتب والمعرفة من المشرق، ولو أنها كانت قليلة محدودة، وانحصرت في العلوم الفقهية والدينية».

هذا الزعم غير صحيح بحال من الأحوال، فكما أننا لا نستطيع إنكار ما أضافه الذين اعتنقوا الإسلام من الإسبان إلى الحضارة الأندلسية، كذلك لا نستطيع إنكار أن أعداد المسلمين الذين توالوا على الأندلس عامًا بعد آخر لا تحصى ولا تعد، وهو ما يؤكده صاحب نفح الطيب؛ حيث قال: «اعلم أنّ الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الأعيان منهم، فضلًا عن غيرهم، ومنهم من اتخذها وطنًا، وصيرها سكنًا، إلى أن وافته منيته، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قضيت بالأندلس أمنيته».

لم يكن يهاجر إلى الأندلس إلا مَن كان يمتلك الملكات التي تؤهله لمجابهة المشاق والمخاطر التي ستواجهه جراء انتقاله من بلده إلى بلد آخر بمنأى عن بلدان العالم الإسلامي لا علم له بأرضه، وعاداته، وتقاليده، ونظمه، فهذه الملكات التي امتاز بها المهاجرون هي التي مكنتهم من أن يجعلوا الأندلس أحد مراكز الحضارة الإسلامية؛ يقول المؤرخ الإنجليزي نيفيل باريز: «إن الأندلس بالنسبة للعرب بلاد ما وراء البحار أي إنه بلاد المهجر البعيد الذي ينهض إليه كل رجل جريء مغامر يريد أن يفتح لنفسه بابًا واسعًا من أبواب الرزق والرفاهية، ومن البديهي أن يكون المهاجرون إلى الأندلس من خيرة العناصر العربية والبربرية التي أسلمت وأظهرت قدرة على مجابهة الصعاب، ويؤكد ذلك أن الأندلسيين جعلوا من وطنهم واحدًا من أزهى بلاد الإسلام وأقاموا وراء البحر دولة مجيدة هي الدولة الأموية الأندلسية ودولًا أخرى غيرها، وأقاموا صرح حضارة لا زلنا نفخر بها إلى اليوم ومدوا جسرًا حضاريًا عبرت به حضارة العرب إلى بلاد الغرب الأوربي».

ظلت الأندلس تابعة للخلافة الأموية في دمشق إلى أن قامت الدولة العباسية، وأخذ عمالها في تتبع بني أمية وقتلهم فهرب أحد أمراء البيت الأموي إلى الأندلس وهو عبد الرحمن بن معاوية (ت ١٧٢ه/٧٨٨م)، وأقام هناك دولة بني أمية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)
(قاهر المستحيل)

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص، يلحظ القارئ الكريم من خلال نسب عبد الرحمن أنه سليل البيت الأموي الحاكم، فجدَّه الخليفة هشام بن عبد الملك، الذي عاش عبد الرحمن في كفالته نظرًا لوفاة والده وهو في سن صغير، أمه من سبي المغرب تدعى «ردحًا» أو «رداحًا» ولد بموضع يدعى «دير حسينة» بدمشق عام ١١٢ه/ ٧٣٠م.

هنا لابد من ذكر حقيقة علمية مفادها أن أيتام الأب فرصتهم في القيادة أعلى من المتوسط العام للبشر لأنهم لم يفقدوا حنان الأم وعلى الصعيد الآخر تحملوا عبء المسئولية مبكرًا، لذلك أن نظهر الأيتام في عصرنا بهذه الصورة البائسة المسكينة الباهتة لا ينبغي على الإطلاق؛ بل ينبغي أن نعزز ثقتهم بأنفسهم ونوضح لهم أن الإنسان هو فعله وليس أبيه..!!

وصدق الشاعر

ليس الفتى من قال كان أبى

إنّ الفتى من قال ها أنا ذا

وفي هذا المعنى قال ابن الوردي:

لا تقل أصلي وفصلي أبدا

إنما أصل الفتى ما قد حصل

قيمة الإنسان ما يحسنه

أكثر الإنسان منه أو أقل

نشأ «عبد الرحمن بن معاوية» ونما وترعرع في بيت جده الخليفة «هشام بن عبد الملك»، وقد تحدّث عبد الرحمن عن نفسه نقلًا عن ابن عذاري في «البيان المغرب» أنه عندما كان صبيًا كان جالسًا ذات يوم مع جده «هشام»، ودخل عليهما جده «مسلمة بن عبد الملك»، وهنا طلب «هشام» من «مسلمة» تنحية «عبد الرحمن» لأنه يريد أن يحدثه في أمرٍ هام، فقال له مسلمة: «دعه يا أمير المؤمنين!! فإنه صاحب بني أمية، ومحيي دولتهم بعد زوالها»، فلم يزل هذا الموقف وهذه النبرات تتردد في أذن «عبد الرحمن»؛ بل ويجد لها صدى في نفسه حتى تم له ذلك بالفعل.

على مر العصور الإسلامية والدول لم يختصّ «عبد الرحمن بن معاوية» فحسب بمثل هذا الموقف، فكان من الصبية الذين صاروا من العظماء الذين سطرت حياتهم في التاريخ بحروف من نور بسبب كلمة وإن كانت بشكل غير مباشر: القاضي «أبو يوسف بن إبراهيم بن حبيب» وهو أحد تلاميذ إمامنا الجليل «أبو حنيفة النعمان»؛ يروي «أبو يوسف» عن نفسه أن والده توفي ولم يكن يبلغ من العمر إلا عشرة أعوام، فدفعت به أمه للعمل لدى خياط واتفقت مع الخياط أن يتقاضى منه يوميًا درهمًا، فكان دائمًا ما يهرب من خدمة الخياط ويذهب إلى مجلس الإمام «أبي حنيفة» الذي يُعقد يوميًا في المسجد القريب، وكان «أبو يوسف» صبيًا ذكيًا فطنًا تنبه له الإمام من خلال عمق الأسئلة التي كان يوجهها له، فاشتكى الخياط لوالدته أن ابنها دائمًا ما يهرب ولا يقوم بما أوكل إليه من أعمال، فذهبت السيدة للبحث عنه فوجدته جالسًا في المسجد في حلقة للإمام «أبي حنيفة» فأخذته وردته إلى الخياط، وتكرر هذا الموقف في عدة أيام متتالية حتى جاء يوم ولم تستطع المرأة التحمل فصرخت في وجه الإمام «أبي حنيفة» قاطعة درسه وموجهه له كيلًا من التهم والإهانات أنه هو السبب في فساد هذا الصبي الذي يهرب يوميًا لمجلسه مما يحرمنا من الدرهم الذي يتقاضاه من الخياط والذي يستعينون به على معاشهم، فقال لها الإمام: «يا بلهاء – قليلة العقل – إنما أعلمه أكل الفالوذج([10]) بدهن الفستق([11])..!!!» ، فلم ترد عليه وأخذت ابنها ومضت به إلى الخياط، وجاء اليوم التالي وقام الصبي بنفس الفعل فلما ملّت منه أمه تركته، ثم صار هذا الصبي في المستقبل أعظم تلاميذ الإمام «أبي حنيفة»، وقائد أتباع المذهب الحنفي بعد معلمه، وعينه الخليفة العباسي «هارون الرشيد» قاضيًا للقضاة، وهو مؤلف كتاب «الخراج» الذي بلغت شهرته الآفاق؛ والجدير بالذكر أيضًا أنه ذات يوم كان أبو يوسف جالسًا مع «الرشيد» وجيء له بحلوى يراها لأول مرة، وقال له «الرشيد»: كُل يا «أبا يوسف» فليس يأتينا هذا الصنف في كل وقت..!!، فقال «أبو يوسف»: ما هذا؟!! فرد «الرشيد»: هذا فالوذج بدهن الفستق، فابتسم «أبو يوسف». فسأله «الرشيد» متعجبًا عن سبب تبسمه، فقال له «أبو يوسف» تذكرتُ شيئًا، فسأله «الرشيد» أن يحدثه، فطلب «أبو يوسف» معافاته، إلا أنّ «الرشيد» ألحّ عليه فحدثه بقصته.

وإذا عبرنا الأراضي والجبال والأنهار وصولًا إلى إسطنبول سندرك أن محمد الفاتح الذي تنبأ له شيخه آق سنقر أنه هو فاتح القسطنطينية الذي قصده الرسول في حديثه ولا زال يؤكد له ذلك ويحدثه على أنه هذا الفاتح حتى استقرت الفكرة في عقل الفاتح ولم يجد عنها بديلًا.

الكلمة.. لا تستهن بالكلمة سواء كانت إيجابية أو سلبية فالكلمة كفيلة أن تحيي قلبٍ وتميت آخر، ولا تستصغر طفلًا، وتقول إنه طفل لا يعي ولا

يستوعب أو يدرك ما يرى ويسمع..!!

هنا لا بد من الاستفاضة بعض الشيء في مسألة التربية، وأتمنى أن يعذرنا القارئ عن الخروج من أصل الموضوع إلى التحدث عن بعض المفاهيم والأفكار، وسيكون هذا الفعل طوال عرضنا للكتاب، لأن الكتاب ليس مجرد سرد لتاريخ الشخصيات فحسب، وإنما السرد المصحوب بالتحليل والاستنباط واستقراء الدروس والعبر كما سبق وتم التوضيح..!!

إذا ما أحسن الآباء والأمهات تربية وتوجيه الطفل في سنوات عمره الأولى سيكون لديهم فرصة عظيمة لتشكيل شخصيته، ومن ثم ظهورها مستقبلًا في أفضل صورة وأبهاها، والدليل على ذلك قول الحبيب -صلّى اللّه عليه وسلم-: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه»، فمعظم الآباء والأمهات في زماننا يمارسون مع أطفالهم الرعاية وليس التربية.

الرعاية: هي الاهتمام بصحة الطفل، ونظافته، وملابسه، وواجباته الدراسية، فهذه رعاية بدليل إذا ما استأجر أحدهم خادمة للقيام بمثل هذه الأمور ستقوم بها على أكمل وجه وأتمه.

أما التربية: فهي أن تغرس في نفس الطفل العقيدة، القناعات، القيم، المبادئ، الأخلاق، وذلك يكون عن طريق التحاور والحديث معه عن طموحاته المستقبلية، ماذا يود أن يصبح مستقبلًا؟!!، وهذا يحتاج أن يدرك الآباء والأمهات سواء أن الطفل ليس مجرد طفل صغير لا يفهم أو يستوعب شيئًا من مثل هذه الأمور، فهذا فهم قاصر وخاطئ في نفس الوقت، لأن ٩٠٪ من شخصية الإنسان تتشكل في السبع سنوات الأولى من عمره، ففي هذه السنوات الأولى يستطيع الآباء والأمهات توجيه أبنائهم وتصويب أخطائهم وتعديل شخصياتهم، لأنه كلما كبر الطفل في العمر كلما كان القيام بمثل هذا الأمر أصعب من ذي قبل.

تتلخص التربية في الجوانب التالية:

غرس الأفكار

العقيدة، القيم، الأخلاق، المبادئ، الأخلاق، الطموحات.

تعديل الاهتمامات

ففي هذه السن الحديثة من الممكن تعديل اهتمامات الطفل من مجرد متابعة توم وجري فحسب إلى الاهتمام بالكتب المتناسبة وعمره، الاهتمام بالدين، الاهتمام بالشخصيات التي امتازت بالبطولة والصلاح والتي يمتلئ بها تاريخنا الإسلامي، فكما تستطيع أن تغرس في الطفل الاهتمامات التافهة

بقصد أو بدون قصد مثل تقليد المغني الفلاني واللاعب العلاني، كذلك تستطيع أن تغرس فيه الاهتمامات المذكورة أعلاه.

تنمية المهارات

تنمية مهارات الحفظ والاستيعاب، مهارات التعامل مع الكمبيوتر، تعلم لغة أخرى، الإلقاء، الرسم، ولا تقلق عليه وتقول إن هذا سيتعبه ويرهقه، لأن البديل للانشغال هو الفراغ، والفراغ أحد أبواب الفساد؛ بل أعظمها.

فن بناء العلاقات

توجيه الطفل إلى كيفية التعامل مع: والده، والدته، أعمامه، أخواله، جيرانه، الغرباء، معلمه، معلمته، زملائه، أصدقائه..

القدوات

وذلك يتأتى أيضًا من خلال سرد قصص الأبطال، والصالحين، والمفكرين على مسامع الطفل، والتي لا يخلو منها؛ بل يفيض بها تاريخنا، وحاضرنا لمن يبحث، فالقصص من أقوى الوسائل الفعالة في غرس القناعات البناءة في شخصية الطفل.

قد تكون أصبت بالشرود أخي القارئ وأختي القارئة ونسيت عن ماذا نتحدث؟!!! فأذكرك أيها القارئ الكريم وأيتها القارئة الفاضلة أننا نتحدث عن «عبد الرحمن بن معاوية» وهو خير مثال للشاب الذي لم يعرف للمستحيل معنى، الشاب الدؤوب صاحب الحنكة والسياسة والدراية، الشاب الذي استطاع بحنكته وسياسته ودرايته بناء دولة من العدم - إن صح التعبير - فإن كان لدولته جذور فجذورها الأصلية هناك في المشرق وليس هنا في هذه البقعة النائية من بلاد الغرب الإسلامي.

استطاع عبد الرحمن بن معاوية وضع أسس دولة بدأها من الصفر في بلد بمنأى عن العالم الإسلامي الذي كان يحكمه أسلافه، هذا الأساس الذي وضعه عبد الرحمن كان السبب في إشعال حماس من جاء بعده لإكمال صرح هذه الدولة التي أبت كل الإباء إلا أن يكون لها بصمة في تاريخ الغرب الإسلامي تحاكى في جودتها البصمة التي تركتها في الشرق الإسلامي وإن لم تلحق بها، ومن هنا مضى سلفه «عبد الرحمن الأوسط» قدمًا في سبيل إكمال هذا الصرح، فبذر بذور النهضة العلمية في الأندلس بعد أن سار على نهج سلفه في تثبيت أركان الدولة وتوطيدها، هذه البذور التي آتت ثمارها وأكلها في عصر «عبد الرحمن الناصر» وابنه «الحكم المستنصر» الذي يعتبر عصرهما بحق هو العصر الذهبي للأندلس.

خذها قاعدة:

ليس من العقل في شيء أن تبدأ من الصفر، إنما العقل أن تدعم وتكمل ما بدأه غيرك..!!

عقب سقوط الدولة الأموية في المشرق عام (١٣٢ه/٧٥٠م) ومقتل آخر حكامها مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢ه/٧٤٥-٧٥٠م) على أيدي أبناء عمومته من العباسيين([12])، شاء القدر أن ينجو من سطوة العباسيين الذين أطلقوا سيوفهم لتقتيل الأمويين وكأنها حرب إبادة فتى من البيت الأموي يدعى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان (ت ١٧٢ه/٧٧٨م) ولم يكن آنذاك قد تجاوز العشرين من عمره.

عبد الرحمن بن معاوية هذا الفتى الذي خرج طريدًا شريدًا يلتمس النجاة من بطش أعدائه بعد أن زودته أخته ببعض النقود ليستعين بها على تدبير معاشه، ثم بعثت على إثره بخادم يدعى «بدر» – هذا الخادم الذي سيكون له دور واضح في حياة عبد الرحمن – وظل عبد الرحمن ومولاه «بدر» يتنقلان خفية من مكان إلى آخر ومن بلدة إلى أخرى حتى تسنى لهما بعد جهد مضنٍ حط رحالهما في أرض الأندلس، حيث كان لبنى أمية فيها عدد كبير من المَوالي والأنصار، ومعظمهم ممن اشترك في الفتح من الشاميين الذين قامت على أكتافهم الدولة الأموية في المشرق..!!.

صدق القائل

وأخت إن قَسَت دُنيايَ تَحنو

لها في القلبِ من أمي مكان

أَرَى في بسمة أطياف عُمر

فلا ابتعدت ولو بَعُدَ الزمان

نظرًا لما قام به العباسيون من تقتيل وتشريد لبنى أمية ومواليهم عقب سيطرتهم على الحكم فرّ هذا الفتى متخفيًا هاربًا من بطشهم واستقر في قرية بالقرب من الفرات مع أخيه وبعض من أهله، وعلى حين غرة هجم جنود العباسيين على الدار التي يقطنها عبد الرحمن ومن معه، فتمكن هو وأخوه من الفرار في حين سطا الجنود على مَن في الدار وقتلوهم عن بكرة أبيهم، ثم خرجوا في أثر عبد الرحمن وأخيه فلحقوهما وقد دنا من الفرات وعندما وجد عبد الرحمن وأخوه أنّ الفرات أمامهما وجنود العباسيين خلفهما لم يجدا بُدًا من إلقاء نفسيهما في الفرات أملًا في النجاة، واستمرا في السباحة، وصار جنود العباسيين ينادونهما أن يرجعا ولهما الأمان، وهنا استجاب لهم أخو عبد الرحمن، وعلى الرغم من تحذير عبد الرحمن لأخيه بعدم الاستجابة لهم

إلا أنه لم يستجب، وبمجرد أن وصل إليهم ذبحوه وفصلوا رأسه عن جسده ومضوا بها.

تخيل أن هذا يحدث في أخيك وعلى مرأى منك وأنت لا تملك أن تدافع عنه أو تمد له يد المساعدة..!!

عبر عبد الرحمن الفرات متجهًا إلى مصر ومنها إلى برقة حيث أخواله من بني نفزة، فأقام لديهم وقتًا ولكن كُشف أمره ففر هاربًا إلى المغرب الأقصى وأقام به متخفيًا عند شيخ من شيوخ البربر.

تدبر معي رحلة الداخل وصولًا إلى الأندلس متخفيًا من العباسيين الذين نشروا عيونهم في كل موطن للقبض على الأمويين ومن يواليهم فما بالك عندما يكون الفار من البيت الحاكم ذاته، وبالنظر والتمعن في هذه الرحلة يتضح جليًا مدى المعاناة التي عاشها عبد الرحمن بن معاوية حتى تسنى له الوصول إلى الأندلس، إلا أن معاناة عبد الرحمن لم تقف عند هذا الحد؛ بل كان في انتظاره نوع آخر من المعاناة والصعوبات التي تتناسب وطموحه الذي لا يقف عند حد.

خذها قاعدة:

المستحيل في نظرك إذا ما غلف بوضوح الهدف ثم الإرادة والرغبة الجموح لتحقيقه، لن يصبح لمصطلح «المستحيل» لديك معنى..!! لذلك تسلح في رحلة حياتك بالصبر والمثابرة والاستمرارية، وتذكر أن رحلة الألف الميل بل المليون ميل في النهاية تبدأ بخُطوة..!!

على الرغم من هذه الأهوال والمآسي التي مر بها «عبد الرحمن بن معاوية» من تقتيل أهله وذبح أخيه أمام عينيه ووحدته وغربته وخوفه وفزعه إلا أنه لم يقف مكتوف اليدين يلعن الظروف؛ بل ظل يفكر في وسيلة يخرج بها من هذا الوضع المأساوي لعله يصنع لنفسه الحياة التي تليق به وبطموحاته وملكاته.

أثناء وجود «عبد الرحمن بن معاوية» متخفيًا في بيت أحد شيوخ البربر نظر حوله نظرة تفحصيه لعله يجد مخرجًا أو سبيلًا يبدأ به ليحيا الحياة التي تتناسب وملكاته الفذة من شجاعة وكراهية للدعة والراحة، وحب للجد والعمل الشاق، وعقب هذه النظرة أدرك أن الشرق الإسلامي قد سيطر عليه العباسيون، ولن يستطع بحال أن يقف أمامهم ويعيد بعضًا من مجد أجداده، وقد بذلوا كل ما في وسعهم من أجل ترهيب الناس وتخويفهم حتى لا يوالوا أحدًا من الأمويين، وهنا وقعت أنظاره على الأندلس هذه البقعة التي ترضخ تحت نيران العصبية القبلية؛ ناهيك عن انتهاز العدو النصراني الفرص

للانقضاض على المناطق النائية واغتصابها من يد المسلمين وسط انهماك العباسيين بصراعاتهم مع الأمويين، وهنا وجد أن الأندلس هي الأرض التي سيحقق فيها ما يرنو إلى تحقيقه، فاتجه صوب الأندلس حيث حطّ رحاله واستقر بها عام ١٣٨ه/٧٥٥م، وتم له حكمها منذ ذلك التاريخ وحتى عام ١٧٢ه/ ٧٨٨م وهو عام وفاته؛ ولم تكن رحلة الداخل إلى الأندلس معبّدة أو مفروشة بالورود ورحابة الاستقبال؛ بل لاقى في هذه الرحلة أهوالًا وخطوبًا ومأسي لا تَقل عمّا لاقاه في رحلته السابقة فارًّا من بطش العباسيين.

قبل أن نبدأ الغوص في حياة «عبد الرحمن بن معاوية» ونرسم صورة عامة لشخصيته الفذة، لا بد من إلقاء نظرة خاطفة على حال الأندلس قبل وصوله إليها وسيطرته عليها، ثم نترك للقارئ تصور وتقدير مدى المعاناة والمحن والشدائد؛ بل والأهوال التي لاقاها عبد الرحمن بن معاوية قبل أن يتسنى له تحقيق حلمه بإقامة أُسس دولة صارت فيما بعد نبراسًا اهتدى به العالم الإسلامي؛ بل والأوربي بما أضافته من علوم وآداب وفنون.

كانت الأندلس قُبيل قدوم «عبد الرحمن بن معاوية» إليها ترضخ تحت وابل من الفتن والصراعات والحروب الداخلية بين القيسية واليمنية، هذه الحروب التي كان من أبسط نتائجها عموم الفوضى واضطراب الأمن؛ ناهيك عن انتهاز النصارى الفرص واستغلالهم لهذا الوضع الحرج بالانقضاض على المناطق النائية واغتصابها من أيدي المسلمين الذين انشغلوا بثوراتهم وصراعاتهم الداخلية عن عدوهم الحقيقي.

ما أشبه اليوم ب البارحة..!!

استمر الحال هكذا إلى أن تولى الأندلس رجل يدعى «يوسف بن عبد الرحمن الفهري»، هذا الرجل الذي استطاع وسط انشغال العباسيين في المشرق بصراعاتهم مع الأمويين أن يوطد أقدامه في الأندلس محاولًا الاستقلال بها نهائيًا وذلك بفضل وجود وزيره «الصميل بن حاتم» الذي قيل عنه: «كان ليوسف الاسم وللصميل الرسم»، وذلك لما استأثر به الأخير من الحكم وتدبير شؤون الدولة؛ في ظل هذ الأجواء الملبدة بالغيوم ظهر «عبد الرحمن بن معاوية» هذا الشاب الفطن الذي لم يشأ دخول الأندلس دخول المتهور الطائش؛ بل أراد دخولها عن طريق التأني المغلف بالفكر الرصين الذي يقدر عواقب الأمور؛ لذلك نجده يبعث مولاه بدرًا إلى وجهاء الأندلس يحسِّن لهم قدومه وهو من بيت الخلافة، وبالفعل ذهب بدر إلى وجهاء الأندلس آنذاك الذين اتجهوا بدورهم إلى «الصميل بن حاتم» وزير «الفهري» لعلمهم بما بينه وبين «الفهري» من خلافات وحدَّثوه عن «عبد الرحمن بن معاوية»، فكتم أمرهم عن الفهري ووعدهم خيرًا.

دخل «عبد الرحمن بن معاوية» الأندلس عام ١٣٨ه/٧٥٥م ونزل بموضع يعرف ب «المنكب» ثم توجه إلى إحدى قرى كورة البيرة، فأقبل عليه جماعة من الأمويين يبايعونه، وعندما علم «الفهري» بأمره وبأمر من اتجه إلى مبايعته حذرهم من الالتفاف حوله إلا أنه لم يجد من يستمع له.

مضى أتباع «عبد الرحمن الداخل» يدعو كلٌّ منهم طائفة من الجند الأندلسي فاتجه أحدهم لدعوة جند الأردن، والآخر لدعوة جند حمص، وثالث لدعوة أهل فلسطين، وأقبل الناس على «عبد الرحمن» يبايعونه من كل مكان، وهنا عرض «الصميل بن حاتم» على «الفهري» أن يدعو «عبد الرحمن» له ثم يخدعه حيث قال: «هو قريب عهد بزوال النعمة، فهو يغتنم ما تدعوه إليه، ثم أنت بعد ذلك تحكم فيه وفي الذين سعوا له بما تحب»، فبعث إليه «الفهري» بكاتبه «خالد بن يزيد» يحمل معه كسوتين وفرسين وخمسمائة دينار، كما وجه معه رسالة مفادها أنه – يقصد عبد الرحمن - إذا قدم عليه سيزوجه ابنته، ويوليه أحد الجندين جند الشام أو جند الأردن أو يقيم بينهما ويكون له أمر الجندين، كما أوصى «الفهري» كاتبه أن يعرف أخباره وأخبار من معه من الأتباع، ووجه لمولاه بدرًا فرسًا ومائة دينار، فقَبِلَ «عبد الرحمن» الهدية إلا أنه كره أمر الزواج من ابنة «الفهري»، فغَلَّظ عليه كاتب الفهري القول فأمر «عبد الرحمن» بوثاقه ورد غيره ممن جاء معه إلى «الفهري» دون أن يرد عليه بإيجاب أو سلب.

الجدير بالذكر أن أتباع «عبد الرحمن» أشاروا عليه ألا يقبل بالزواج من ابنة الفهري إلا إذا قَبِل «الفهري» اعتزال الملك ومبايعته قائلين له: «إنما يمكر بك، ولا يفي بشيء، لأنّ وزيره ومالك أمره الصميل وهو غير مأمون»، وهنا استجاب «عبد الرحمن» لمشورة أتباعه كبداية لتوثيق روابط الثقة بينه وبين من جاء لمبايعته والوقوف على أمره.

ظل «عبد الرحمن» مقيمًا في سطوح الجبال مع أتباعه ستة أشهر كاملة، وكان يرسل البعض من أتباعه ليدعوا الناس إلى مبايعته ويكتب لوجهاء الأندلس إلى أن اجتمع له جمع غفير من الأتباع، ثم خرج «الداخل» بمرافقة أتباعه من كورة البيرة إلى كورة رية، ومنها إلى شذونة ثم مورو، ثم إشبيلية، وأثناء تنقله من قرية إلى أخرى ومدينة إلى التي تليها كان الناس يلتفون حوله ويبايعونه ويستقبلونه بالترحاب، حتى ذُكر أنه دخل المرية في ستمائة فارس، وخرج منها في ألفي فارس، وخرج من إشبيلية إلى قرطبة في ثلاثة مائة فارس، وأثناء اجتماع الناس والتفافهم حوله وصل إلى سمعه أن «الفهري» يتجهز لمحاربته فقام على الفور بتجهيز الجند، ودعا رجلًا من الأنصار وعقد له اللواء وارتحل هو بالجنود ناحية قرطبة لملاقاة «الفهري»، واستمر في سيره حتى وصل إلى قرية لا يفصلها عن قرطبة إلا النهر فعسكر هو وجنوده، وعلى

الجهة المقابلة وتسمى المصارة اصطف «الفهري» ومن معه، ومرت ثلاثة أيام لا يفصل بين الفريقين إلا النهر، ثم تقدم «عبد الرحمن» وجنوده وعبر النهر إلى «الفهري» والتقى الفريقان واشتدت بينهما وتيرة الحرب التي انتهت بانتصار «عبد الرحمن» وجنده على خصومهما ودخل «عبد الرحمن بن معاوية» إلى قرطبة وبايعه العامة من أهلها، في حين فرَّ «الفهري» ومن نجا من جنده هاربًا إلى البيرة([13]).

دخل «عبد الرحمن « قرطبة وعقب انتهائه من قدوم الناس عليه لمبايعته أمر بتجهيز جيش قاده بنفسه واتجه به نحو البيرة طالبًا لخصومه وعلى رأسهم الفهري والصميل، وعندما علم «الفهري» بذلك ترك المدينة، فاقتفي «عبد الرحمن» أثره حتى إذا ما اقترب من الحصول عليه عاد «الفهري» مرة أخرى إلى البيرة وتحصن بها، فلحق به «عبد الرحمن» وحاصر المدينة، وعندما طال الحصار طلب «الفهري» الأمان على أن يعطيه ابنيه رهنًا وضمانًا عنده، فوافق «عبد الرحمن» بذلك، وأعطاه الأمان، وحمله والصميل معه إلى قرطبة، وأمر الفهري أن يسكن بمنزله في المدينة، والصميل يسكن بمنزله بالربض([14])، وعندما تم ل «عبد الرحمن» ذلك اتجه للخطوة التي تليها: فأمر بقطع الدعاء للخليفة العباسي «أبي جعفر المنصور».

لم يكن «عبد الرحمن بن معاوية» شابًا متهورًا لا يقدر عواقب الأمور وتوابعها الوخيمة التي تنتج لعدم الإدراك الكافي لمعرفة ما ينبغي فعله وما لا ينبغي فعله، وما هو الوقت المناسب للفعل من عدمه؛ لذلك لم يكن ليكتفي بمجرد النجاح في دخول قرطبة، واستقبال الناس والتفافهم حوله، ومصادرة أموال خصومه، لأنه لم يرد أن يكون هناك في موضع ما حجر عثرة يعطله عن المضي قُدمًا في سبيل إقامة دولته الناشئة؛ لذلك لم يترك خصومه لمجرد هروبهم، بل اعتبر هروبهم مسألة لا بد لها من حل فورى حتى لا يؤدى مرور الأيام إلى تفاقمها، لأنه يعلم علم اليقين أن في هرب خصومه تهديدًا له ولدولته فلن يفتأوا ينتهزون الفرص لانتزاع ملكه أو حتى زعزعته؛ لذلك جهز على الفور جيشًا وقاده بنفسه، وعندما أوقع بخصومه لم يطلق فيهم سيفه وسيوف رجاله، وذلك حتى لا يؤلب الرأي العام آنذاك عليه، وينظر إليه الناس على أنه سفَّاك للدماء ولا يعرف قلبه سبيلًا للعفو عند المقدرة، فنجده بما تمتع به من حكمة ممزوجة بالحنكة يكتفي بحمل خصومه معه وجعلهم يقيمون في قرطبة حتى يكونوا أمام ناظريه، والجدير بالذكر أنه عندما صار «الفهري» من جملة رجال جيشه أعاد إليه أمواله التي صادرها عقب دخوله قرطبة، كما أطلق له ابنيه اللذين أخذهما رهنًا لديه عند طلب «الفهري» الأمان منه عند محاصرته في البيرة.

سبق أن ذكرنا أن الذي مكّن «الداخل» من السيطرة على الأندلس اشتعال نيران الصراعات بين العصبيات العرقية والقبلية بها؛ لذلك ما لبث أن سيطر على مقاليد الحكم حتى أعلن إقامة العدل والمساواة بين الجميع، ولكن هذا لم يكن ليجعله أبدًا يتهاون مع المخطئين أو المناوئين له الراغبين في انتزاع الحكم منه أو حتى زعزعته؛ بل كان يضرب عليهم بيد من حديد؛ لذلك نجده عقب نقض «الفهري» للعهد وهربه من قرطبة عام ١٤١ه/٧٥٩م، ثم جمع الأتباع حوله لمحاربة «الداخل»، جهز «عبد الرحمن» جيشه على الفور والتقى الطرفان بالقرب من قرطبة وانتهى القتال بهزيمة «الفهري»، الذي فرّ مع من بقي معه من الجند إلى ناحية طليطلة وظل مختفيًا بها حتى عام ١٤٣ه/٧٦١م حيث قام عليه رجاله فقتلوه وقطعوا رأسه وأحضروها ل «الداخل»، وعندما رأى «الداخل» رجال «الفهري» يقدمون له رأس زعيمهم لم يقربهم منه أو يكافئهم أو يُعلي من شأنهم جزاء قتلهم لأحد ألدّ أعدائه؛ بل قال لهم: «أنتم لم تحفظوا مولاكم، فكيف تحفظونني وتنتظمون في طاعتي»، ثم أمر بقتلهم، كما أمر بأخذ رأس «الفهري» وتعليقها على جسر قرطبة، وأمر بقتل ابن الفهري الذي قام بحبسه فور فرار والده وقطع رأسه وتعليقها بجوار رأس والده، وفي ذلك إرهاب لمن يفكر مجرد تفكير في الخروج عن طاعته أو زعزعة الاستقرار في دولته؛ والجدير بالذكر أن «الصميل بن حاتم» وزير الفهري ظل محبوسًا طوال هذه الفترة حتى مات بالسجن وقيل: قُتل فيه.

كذلك من جملة الأحداث التي توضح شدة بأس «الداخل» في تعامله مع خصومه ومن يحاولون مناوأته وانتزاع الحكم منه، أن الخليفة العباسي «أبا جعفر المنصور» أرسل جملة من رجاله على رأسهم «العلاء بن مغيث» على أن ينتزعوا الأندلس من «عبد الرحمن بن معاوية» ويتولاها «العلاء» تحت لواء العباسيين، وبالفعل ذهب «العلاء» ومن معه من الرجال ودخلوا الأندلس ونشروا بها الرايات السود الخاصة بالعباسيين، كما أعلنوا الدعاء للخليفة العباسي فالتف حولهم البعض من الأتباع، وعندما وصل ذلك إلى «الداخل» أسرع لملاقاتهم وتمكن من هزيمتهم، ثم أمر بقطع رأس «العلاء» ورؤوس كبار رجاله، ثم تعليق صكوك - قرط أو حلق - في آذانهم تحمل اسم كلٍّ منهم، ثم أمر رجاله بحملها والتوجه بها إلى القيروان ونشرها في الأسواق ليلًا، وبالفعل قاموا بذلك وعندما استيقظ الناس وجدوا الرؤوس ووصل الخبر «لأبي جعفر المنصور» فقال قولته الشهيرة: «الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه بحرًا»..!!؛ وقيل: إن «الداخل» أمر بقتل «العلاء» وقطع رأسه ووضع ملح بداخلها وحملها إلى مكة وتعليقها هناك وقد وافق ذلك حج «أبي جعفر المنصور» فعندما رأى ذلك قال: «إنا لله!! عرضنا هذا المسكين للقتل!! الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان».

خذها قاعدة:

ليس دومًا ما يكون الانسحاب من ساحة المعركة ضعفًا؛ بل في بعض الأحيان يكون هو عين القوة، وذلك حتى تحافظ على مكاسبك وتضيف إليها..!!؛ وتذكر أن بين الشجاعة والتهور «شعرة»، هذه الشعرة غالبًا لا تُرى إلا بإمعان الفكر وتدقيق النظر..!!

حكم «الداخل» الأندلس ثلاثًا وثلاثين سنة قامت فيها ضده ما يقرب من خمس عشرة ثورة وحركة تمرد، استطاع أن يتغلب عليها بالمهادنة تارة وبالقوة تارة أخرى، وهنا سنتعرض لبعض المواقف التي توضح جليًّا ما تمتع به «الداخل» من أخلاق أو بالأحرى ما تمتع به من رجولة حتى مع الثوار الذين ثاروا ضده وجَنّدوا الأجناد لمحاربته وزعزعة ملكه؛ من هذه المواقف: عندما ثار عليه شخص يدعى «الحسين بن يحيى بن سعد بن عبادة الأنصاري» بمدينة سرقسطة، جهز «الداخل» جيشه وتوجه صوب الثائر ووصل سرقسطة وحاصرها، وتقدم رجال «الحسين» قسمًا تلو الآخر لمحاربة «الداخل»، وعندما وجد «الحسين» هزيمة أصحابه لم يجد بُدًّا من الخروج ل «الداخل» بنفسه ولكنه لم يشأ أن يخرج محاربًا إنما خرج طائعًا معلنًا استسلامه وولاءه في نفس الوقت، وفور خروجه ارتمى أمام «الداخل» يناشده العفو والصفح، فترى ماذا فعل «الداخل»؟!!، هل انتهز فرصة مذلة هذا الرجل وانصياعه له ونكّل به أو أهانه أمام من وُجِدْ في ساحة القتال آنذاك؟!! أم قرر أن يأخذه معه موثقًا إلى قرطبة ليكون عبرة لمن يعتبر ثم يودعه السجن حتى يموت حتف أنفه؟!!، أم قتله على الفور واحتز رأسه وصلبه وفعل به الأفاعيل؟!!.

لم يفعل «الداخل» أيًّا مما ذكر وإنما أرتقَ أروع معاني العفو ممثلًا في «العفو عند المقدرة» فقَبِلَه وعفا عنه، ولم يكتفِ بذلك، بل زيادة في الإحسان تركه في مكانه واليًا على سرقسطة، وقد تحدث ابن عذاري عن هذه الحادثة قائلًا: «خرج طائعًا – يقصد الحسين - إليه - يقصد الداخل - مترامِيًا عليه، فقَبِلَ إنابته، ولم يُحرم إجابته، فلما عفي عنه، وأغضى عما كان منه أبقاه بسرقسطة واليًا، وقفل الأمير - يقصد الداخل - إلى قرطبة سامي اللواء، وقاهر الأعداء».

تذكر

إنّ الأخلاق الحقيقية تظهر في تعاملك مع أعدائك، ومبغضيك، ومن هم أدنى منك منزلة، وليس مع أصدقائك، ومحبيك، ومن هم أعلى منك منزلة، لأن هؤلاء لا بد لك من احترامهم وتقديرهم وإنزالهم المنازل العليا لديك، فلا أحد يهين أصدقائه أو محبيه، أو من هم أعلى منه علمًا أو أكبر منه سنًّا..!!

على الرغم من هذا الموقف المشرف من قبل «عبدالرحمن الداخل» تجاه رجل قام بالثورة عليه، وحرض الناس ضده، إلا أنّ هذا الثائر لم يكن من طراز الرجال الذين يحترمون مثل هذه المواقف المشرفة، لذلك نجده لم يلبث إلا أن نقض العهد مع «الداخل» وأعلن الثورة ضده مرة أخرى، وهذا شأن الكثير من الأشخاص الذين مهما تعاملت معهم وبادرتهم بأعلى درجات الأخلاق لا يحفظون لك عهدًا ولا ذمة..!!

لم يكن من «عبد الرحمن الداخل» جرّاء هذا الانقلاب مرة أخرى عليه من «الحسين بن يحيي» إلا أن جهز جيشه، وتوجه إلى سرقسطة للقضاء على هذه الثورة، فحاصر سرقسطة، وحارب الثائرين وعلى رأسهم «الحسين بن يحيي» وتمكن من القضاء عليهم جميعًا، ثم ولّى على المدينة رجلًا آخر يدعى علي بن حمزة، وقفل عائدًا إلى قرطبة ظافرًا وقد وصف لنا صاحب المؤلف الزاخر «البيان المغرب» نقض الحسين للعهد مع «الداخل» قائلًا: «إنّ الحسين خفر الذمة، وكفر النعمة، وأعلن بالنفاق إعلانًا، وأرسل في الشقاق عنانًا، فسار إليه الإمام – يقصد عبد الرحمن الداخل - ونازله نزالًا، وأذاق سرقسطة نكالًا إلى أن فتحها، وقتل الحسين وأصحابه قتلًا ذريعًا، وولّى عليهم علي بن حمزة، وقفل إلى قرطبة ظاهر العزة».

أيضًا لا يفوتنا في معرض حديثنا عن هذه الشخصية الفذة أن نشير إلى براعة تعامله مع بعض المواقف بما جُبل عليه من عقل وحنكة وسياسة، حيث عند قضائه على ثورة «الحسين الأنصاري» في سرقسطة، أقبل عليه خواصه وعليّة القوم يقدّمون له التهنئة ويشيدون بشجاعته وبطولته، وأثناء ذلك خرج من بين القوم رجل لا يؤبه له من عامة الجند فهنأه بصوت عالٍ، فقال له «الداخل»: «والله لولا أنّ هذا اليوم أسبغ عليّ فيه النعمة مَن هو فوقي، فأوجب عليّ ذلك أن أنعم فيه على مَن هو دوني، لأصليتك ما تعرضت له من سوء النكال.. من تكون حتى تقبل مهنئًا رافعًا صوتك غير متلجلج ولا متهيب لمكان الإمارة ولا عارف بقيمتها؟!!! حتى كأنك تخاطب أباك أو أمك..!!، وإنّ جهلك ليحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة» فرد عليه الرجل قائلا: «ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة، لا أعدمنيه الله تعالى»، فتهلل وجه «الداخل»، وقال: «ليس هذا باعتذار جاهل، نبهونا عن أنفسكم إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها» ثم رفع مرتبته وزاد في عطائه.

كذلك من المواقف الجديرة بالذكر والتي توضح عظمة هذه الشخصية التي نحن بصدد الحديث عنها، أنه عقب ظفره بأحد الثوار الذين ثاروا ضده، وحمله معه متجهًا إلى قرطبة، وكان الثائر مكبلًا ومحمولًا على بغل في حين كان «الداخل» يرتقي الفرس، وأثناء الطريق لحق البغل بفرس «الداخل» حتى

صار موازيًا له في المسير، وهنا نظر الداخل إلى البغل قائلا: «يا بغل! ماذا تحمل من الشقاق والنفاق؟..!!»، فرد الثائر: «يا فرس!! ماذا تحمل من العفو والإشفاق؟..!!»، فقال الداخل: «والله!! لا ذقتَ موتًا على يدي»، ثم أطلق سراحه.

إنها شخصية الداخل التي تميزت بالأخلاق والأدب، الهيبة والرهبة، التواضع وخفض الجناح، احترام الناس وإنزالهم منازلهم متى ظهرت له مكانتهم، ومكانة أي إنسان لا تظهر إلا بخُلقه وعقله..!!

اعلم أن

تقدير الذات واحترامها لا يتعارض بحال مع التواضع وخفض الجناح وإنزال الناس منازلهم، وتذكر: أنه كما بين الشجاعة والتهور شعرة، كذلك بين تقدير الذات والغرور شعرة لا تُرى إلا بدوام التفكير وإمعان النظر..!!

أيضًا من المعاني التي أحببت أن أذكرك بها أخي القارئ وأختي القارئة عن فارسنا، تساؤل؛ مفاده: ما هي العبارة التي نقشها «عبد الرحمن بن معاوية» على خاتمه (خاتم الإمارة)؟!! هل نقش «قاهر الأعداء عبدالرحمن بن معاوية»؟!! أو «سليل العظماء» بحكم أصله الأموي؟!! أو «صقر قريش» كما لقبه أبو جعفر المنصور العباسي»؟!! كان نقش خاتم الأمير «عبد الرحمن بقضاء الله راضٍ».

هكذا نقش اسمه مفردًا دون لقب أمير أو وزير أو قاضي أو... أو...؛ في زماننا مستحيل أن ينقش اسم هذا أو ذاك دون أن يسبق بلقب عقيد، لواء، عميد، مهندس، دكتور، فضلًا عن أن تنعته باسمه مفردًا دون لقب..!!

بالطبع أنا لا أقصد هنا التقليل من قدر الناس حولك وعدم إنزالهم منازلهم، إنما المقصد لا تسمح لنفسك أن تكون عبدًا للقب؛ بل الأكثر من ذلك أننا نجد الكثير أو القليل من جيلنا جيل الباحثين والباحثات في مراحل الدراسات العليا فضلًا عن الماجستير إذا ما حدثه طالب واستخدم اسمه مفردًا دون لقب دكتور يستاء وكأنه تعرض للإهانة..!!

خذها قاعدة

ليس من حقي أو حقك النعت بهذا اللقب (دكتور)، بناء عليه ليس من الأخلاق في شيء الافتخار بشيء ليس من حقنا..!!، وتذكر أن الإنسان هو الذي يصنع لقبه، بل قدره وقيمته بما يغرسه في قلوب الناس من أخلاق ومعانٍ فضلًا عن علم، وليس اللقب هو الذي يصنعه..!!

على الرغم من انشغال «الداخل» بهذه الثورات والاضطرابات الداخلية التي لم تكِن تفتأ تهمد نيرانها في جهة حتى تستعر في أخرى، إلا أنه لم يتهاون

بالشأن الخارجي ونقصد العدو النصراني؛ بل وقف في وجهه وواجهه بشدة وحزم، وكان من أبرز التهديدات الخارجية التي جابهها محاولة شارلمان دخول الثغر الأعلى الأندلسي والسيطرة على سرقسطة، وذلك بمساعدة بعض المتمردين غير الراغبين في حكم «الداخل»، وهنا لم يقف الداخل موقف المتفرج أو المتهاون أو المتخاذل، بل هبّ على الفور وجهز جيشًا قاده بنفسه عام ١٤٦ه/٧٦٣م لملاقاة أعدائه في ذاك الثغر الأندلسي، وذلك لبثّ وإثارة الحماس في نفوس جيشه من جهة، وزرع الرعب في قلوب أعدائه بتعريفهم بقوة الدولة الإسلامية من جهة أخرى.

لعل ما سبق يوضح مدى إنصاف «ابن كردبوس» للتحديات التي لاقاها «الداخل» أثناء تأسيس دولته الناشئة وطوال فترة حكمه حيث قال: «لقي فيها حروبًا، وقاسى خطوبًا»، لك أن تتدبر هذا الوصف وستجد أن الأحرف تحمل بين طياتها من المآسي والمعاناة ما لا يطيقه بشر في نظرنا القاصر.

على الصعيد الآخر بالرغم من هذه الثورات الداخلية والتهديدات الخارجية إلا أن «الداخل» لم يغفل عن الاهتمام بدولته الناشئة، وذلك بإقامة المشاريع العلمية والمعمارية وغيرها، ناهيك عن الاهتمام والعناية بالنظم والإجراءات الإدارية للدولة.

كان «الداخل» منذ توليه الإمارة حريصًا كل الحرص على توطيد دعائم الأمن والاستقرار السياسي والاقتصادي في الأندلس، حيث قضى على عناصر الفوضى والاضطراب المتمثلة في الصراع بين العرب والبربر من جهة وبين القيسية واليمانية من جهة أخرى، كما شجع الزراعة والصناعة والتجارة، وأدخل كثيرًا من الصناعات في البلاد، كصناعة المنسوجات والملابس، وصناعة تطعيم الصلب والذهب والفضة، وهي صناعة دقيقة عرفت باسم «الفن الدمشقي»، واهتم بإقامة المنشآت العمرانية، كالقصور والمساجد والمتنزهات، متبعًا في ذلك التقليد الشامي، ومتشبهًا بما كان يفعله أجداده في المشرق.

كان حب بنى أمية وعشقهم للشام عامة ودمشق خاصة سببًا في أن يبذلوا الغالي والنفيس في سبيل أن يصنعوا من قرطبة بل والأندلس صورة طبق الأصل من دمشق لذلك نجد «الداخل» وقد بنى الجامع القرطبي على الطراز الأموي ناهيك عن غرس الحدائق الغنَّاء والعناية بالعلم والعلماء.

كان من المشاريع التنموية التي أقامها «الداخل» واعتنى بها لما فيها من فوائد للدولة إقامة دور لتصنيع السفن في عدد من المدن الأندلسية منها: طرطوشة، وإشبيلية، والمرية، وغيرها من المدن الأندلسية، هذه السفن التي كانت تستخدم في الوقوف في وجه التهديدات الخارجية للدولة من جهة، كما

أنها كانت سببًا في تنشيط الحركة التجارية للأندلس مع بلاد المغرب والشام ومصر والعكس من جهة أخرى.

ما سبق يعبر عن فكر الدولة ممثلًا في حاكمها المدرك لأهمية الصناعة في النهوض باقتصاد الدولة؛ ناهيك عن أهمية صناعة السفن في الجانبين التجاري والعسكري.

قد يلحظ القارئ الكريم أنه بمجرد دخول «عبدالرحمن بن معاوية» إلى الأندلس أصبحنا ننعته ب «الداخل»..!!، أعلم علم اليقين أن أغلب القراء الكرام يعلمون السبب الذي جعل المؤرخين يطلقون عليه هذا اللقب، وهو أنه كان أول أفراد البيت الأموي الحاكم دخولًا للأندلس.

في ضوء هذه الحقيقة لا ينبغي أن يفوتنا الاستخلاص أو الاستنتاج أن التاريخ كما أنه لا ينسى المواقف المخزية، كذلك لا ينسى المواقف المشرفة، كما أنه يسطر تلك بمداد أسود، فإنه يسطر هذه بمداد النور..!!، استحق «الداخل» تخليد اسمه وسطر مواقفه المشرفة بماء الذهب على مر الأيام والأزمان، وذلك بما قام به من عمل معجز يتمثل في إقامة الدولة الأموية الثانية - إن صح التعبير - في الغرب، لتعيد ذكرى الأولى في الشرق، وذلك بتوحيد الشعب الأندلسي تحت رايته، وإقامة أسس دولة إسلامية تسنى لها فيما تلا من سنوات قذف الرعب في قلوب ملوك النصارى، وإرغامهم صاغرين على قبول الصلح معها وطلب ودها..!!.

خذها قاعدة:

التاريخ.. لا ينحصر في كتب التاريخ، فقد يُسطر تاريخك ومواقفك المشرفة في ذاكرة أحدهم بحروف من نور، وكلما طاف بخياله ذكراك سبق قلبه لسانه داعيًا لك بخيري الدنيا والآخرة، لذلك اصنع لك تاريخًا مشرفًا في ذاكرة أحدهم وإن لم يُسطر في الكتب..!!.

وصدق القائل:

دقات قلب المرء قائلة له

إن الحياة دقائق وثواني

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها

فالذكر للإنسان عمر ثاني

«صقر قريش»، هذا اللقب الثاني الذي لقب به «عبد الرحمن بن معاوية»، تُرى ما قصة هذا اللقب؟!!! ومن لقبه به؟!!! ولمَ لُقب به؟!!!

لم يلقبه بهذا اللقب أبوه أو أمه، أخوه أو أخته، جده أو صديقه، إنما لقّبه بهذا اللقب أحد ألدّ أعدائه بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ، فكفى بسطوة العداوة بطشًا أن تكون بسبب صراع على ملك أو سلطان، أو بدافع الخوف من انتزاع سُلطة أو الاستحواذ عليها..!!

لُقّب «عبد الرحمن» ب «صقر قريش» من قبل الخليفة العباسي «أبي جعفر المنصور»، حيث كان الأخير يومًا في أحد مجالسه التي يحفها العلماء والفقهاء والأدباء ورجال الدولة للمحاورات والمناظرات ومناقشة شؤون الدولة، وهنا طرح على المتواجدين في المجلس آنذاك سؤالًا، مفاده: من هو من وجهة نظركم «صقر قريش»؟!!

رد بعض الحضور على الخليفة فقال أحدهم: أنت يا أمير المؤمنين. كعادة الأتباع في التملق للحاكم والتقرب منه، كما هو شأن الكثيرين ممن يلتفون حول بلاط الحكام في زماننا..!!، وقال آخر: معاوية بن أبي سفيان، وقال ثالث: عبد الملك بن مروان.

نفى «أبو جعفر المنصور» كل هذه الإجابات وأجاب قائلًا: صقر قريش هو «عبد الرحمن بن معاوية»؛ ثم تابع حديثه موضحًا السبب الذي استحق به «الداخل» أن يحوز هذا اللقب..!! - وهو بحق كما وصفه أبو جعفر المنصور - قائلًا: « صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية، الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميًا، منفردًا بنفسه، فمَصَّرَ الأمصار، وجند الأجناد، ودوّن الدواوين، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدة شكيمته... وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد برأيه، مستصحب لعزمه، وطّد الخلافة بالأندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذلّ الجبابرة الثائرين».

خذها قاعدة:

مهما بلغت عداوتك لأحدهم سواء كانت هذه العداوة دينية أو دنيوية، هذا لا يخوّل لك ألا تقول فيه كلمة الحق، وإن كانت هذه الكلمة ضدك؛ بل وإن كانت تضرك، إنها الأخلاق فلا تبغي بها بديلًا، وتذكر أن رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام هي «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، أفلا نتخلق نحن بأبسط الأخلاق وإن لم نبلغ التمام..!!

عند تدبر القارئ وتعمقه في التاريخ الأندلسي السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي؛ بل والمعماري، يلحظ إن الأمويين بذلوا الغالي والنفيس في سبيل أن يصنعوا من الأندلس شامًا أخرى، ومن قرطبة دمشقَ ثانية؛ لذلك نجد «الداخل» وقد اعتنى بقرطبة أشد العناية، فبنى قصر الرصافة تشبيهًا برصافة جده الخليفة «هشام بن عبد الملك» التي عاش فيها قبل أفول نجم دولتهم، وبنى المسجد الجامع بقرطبة على طراز الجامع الأموي بدمشق، كما

أنه اعتنى بتزيين عاصمة دولته بالحدائق الغنَّاء وجلب إليها النخل، ونظم قصيدته الشهيرة مشبهًا نفسه بهذه النخلة على ما سيأتي ذكره، كما اعتنى أشد العناية بتوقير العلم، وإكرام العلماء وأنزالهم المنازل العليا، ومن هنا نجد البعض من المؤرخين من أمثال البكري صاحب «المسالك والممالك» يصف الأندلس قائلًا: «الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها»، كما نجد «المقري» يتغنى بها في مؤلفه الزاخر «نفح الطيب» قائلًا: «الأندلس من الإقليم الشامي، وهو خير الأقاليم، وأعدلها هواءً وترابًا، وأعذبها ماءً، وأطيبها نباتًا، وهو أوسط الأقاليم».

على الرغم من أنّ «الداخل» لم ينعم طوال فترة حكمه بالراحة من جراء انشغاله بتأسيس دولته، ناهيك عن تصديه للثورات التي قامت ضده في الداخل، وتحيّن النصارى الفرص للانقضاض عليه من الخارج، إلا أنه كان لا يمضي يومه إلا وقد اقتص منه بعض الوقت للخلوة مع نفسه قارضًا للشعر، ناظمًا للنثر، مطالعًا للكتب.

قام «الداخل» منذ نعومة أظفاره بحفظ كتاب الله جل وعلا، ودراسة العلوم الإسلامية واللغة والآداب، ودراسة أيام وأحوال العرب، وحفظ الشعر والخطابة، ناهيك عن أخذه بقسط من العلوم التطبيقية، هذه النشأة خوّلت «للداخل» أن يتميز بهذه الملكات التي مكنته من إقامة أسس دولة لا زال ينعم بما أضافته للعلوم والآداب والفنون العالم الإسلامي والأوربي على حد سواء.

خذها قاعدة:

مهما بلغت درجة انشغالك لا تحرم نفسك من قضاء ولو نصف ساعة تخلو فيها مع نفسك تتدبر حالك مع ربك..!!، تفكر أين أنت الآن؟!!، وإلى أين تريد أن تصل؟!!، ما هو هدفك؟!! وهل تسير في الطريق الصحيحة التى تؤدي إليه؟!!، أم يُخيل لك ذلك؟!!، اطلق لعقلك العنان وفكر فيما يطوره ويخطو به قُدمًا نحو الأمام..!!

هذه النشأة التي نشأها «الداخل» كانت سببًا في أن يتميز بالفصاحة والبلاغة وجمال العرض، فمن المواقف التي تعبر عن فصاحته وبلاغته، وقدرته العظيمة لتوصيل ما يريد بكلمات قليلة وجمل قصيرة، أنه أمر كاتبه ذات يوم أن يرسل كتابًا لأحد عماله الذين قصروا في عملهم تجاه ولاياتهم، فقام الكاتب بسطر كتاب أفاض فيه وأطال، وعندما لحظ «الداخل» ذلك أمره بتمزيق الكتاب، وكتب هو بخط يده إلى عامله: «أما بعد؛ فإن يكن التقصير لك مقدمًا، فعد الاكتفاء أن يكون مؤخرًا، وقد علمت بما تقدمت، فاعتمد ما

أحببت..!!»، والمعنى ببساطة أنه يوضح لعامله أن له أن يختار بين أحب الأمرين إليه، الأول: أن يستمر في تقصيره. الثاني: أن يعود عن هذا التقصير، وبالطبع لا يخفي على القارئ الوعيد الذي تحمله الأسطر بين طياتها إذا ما اختار الأمر الأول.

كان الداخل يقرض الشعر ويتغنى به، وكان شعره يتميز بالسلاسة والتدفق دون تكلف أو إجهاد خاطر، فإذا به شعرٌ في غاية الجودة والإتقان، ومن القصائد التي نظمها قصيدة يعاتب فيها أصدقاء الأمس، الذين صاروا أعداء اليوم بما حوته مواقفهم من تخاذل، وضمرته نفوسهم من حنق عليه عقب تأسيس دولته الناشئة، حتى كان منهم من يقول: «لولا أنا ما توصل لهذا الملك، ولكان منه أبعد من العيوق»، وقال آخر: «سعده أعانه، لا عقله وتدبيره»..!!

وهنا نظم «الداخل» هذه الأبيات:

لا يلف ممتن علينا قائل

لولاي ما ملك الأنام الداخل

سعدى وحزمي والمهند والقنا

ومقادر بلغت وحال حائل

إن الملوك مع الزمان كواكب

نجم يطالعنا ونجم آفل

والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا

أيروم تدبير البيرة غافل

ويقول قوم سعده لا عقله

خير السعادة ما حماها العاقل

أبني أمية قد جبرنا صدعكم

بالغرب رغمًا والسعود قبائل

ما دام من نسلي إمام قائم

فالملك فيكم ثابت متواصل

نلحظ في القصيدة نوعًا من الهجاء الشخصي للمعاتبين، وكأن «الداخل» أراد أن يعاتب الصحب المتقاعسين، والناكرين لجميل ما فعل وقدم، ويهجوهم

في الوقت نفسه.

تذكر

أعداء النجاح كثر، فسر في طريقك ولا تلتفت..!!

كذلك من القصائد الرائعة التي نظمها «الداخل» ولا تكاد تخفى على محب للتاريخ الأندلسي فضلًا عن مطلع هذه القصيدة التي أرسلها إلى أخته «أم الأصبع» يصف فيها شوقه وحنينه إلى وطنه الذي تركه مرغمًا، فأصبح جسمه في مكان وقلبه في مكان آخر:

أيها الراكب الميمم أرضي

أقرِ من بعضي السلام لبعضِ

إن جسمي كما علمت بأرضٍ

وفؤادي ومالكيه بأرضِ

قدر البين بيننا فافترقنا

وطوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى الله بالفراق علينا

فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ناهيك عن قصيدة النخلة، وهي تلك النخلة الوحيدة المنفردة في «منية الرصافة»، التي توالد منها نخل الأندلس، فما إن نظر إليها «الداخل» حتى حركت عواطفه وحنينه إلى المشرق، فقال مخاطبًا إياها:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت: شبيهي في التغريب والنوى

وطول التنائي عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

سقتك غوادي المزن من صوبها الذي

يسح ويستمري السماكين بالويل

بمجرد النظر للشعر الذي نظمه «الداخل»، نلاحظ أنه امتداد للشعر المشرقي لا ينفصل عنه بحال، حيث إن «الداخل» لم يتأثر في حياته عامة بالثقافة أو الطبيعة الأندلسية؛ بل ظل طوال حياته مشرقيًا شاميًا أمويًا بالدرجة الأولى، ولذك نجد المستشرق الإسباني أميليو غرسيه غومس يعلق على القصيدة السابقة قائلًا: «لم يكن الأمير ونخلته فحسب، هما الغريبين عن الأندلس؛ بل كان الشعر الذي خاطب به النخلة غريبًا أيضًا».

استطاع عبد الرحمن الداخل توحيد الأندلس تحت حكومة مركزية واحدة، بعد أن كانت البلاد تترنح في فوضى الاضطرابات في عهد الولاة؛ حيث عمل على تثبيت أركان دولته الناشئة، فأنفق جهده في إخماد الثورات الداخلية التي قامت ضده، وكل الدعوات التي كانت لها صبغة غير الصبغة الأموية، ومما ذُكِرَ عنه أنه «دوّن الدواوين، ورفع الأواوين، وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجند الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عدته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه، وتحاموا حوزته، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس، واستقل له الأمر فيها».

توفي «عبدالرحمن الداخل» عام ١٧٢ه/٧٥٥م ودفن بقصر قرطبة، وكان قد بلغ التاسعة والخامسين من عمره، والجدير بالذكر أنه حين دخوله الأندلس كان يبلغ من العمر خمسة وعشرين سنة، وهذا يعنى أنه قضى عشرين عامًا في قصر جده «هشام بن عبد الملك» يقتبس من العلوم، وقضى أربع سنوات فارًا من بطش العباسيين وقضي الباقي من عمره في تأسيس أركان دولة بلغت شهرتها الآفاق على يد أبنائه وأحفاده.

في النهاية تذكر أن قهر المستحيل لا يكون إلا بقدرة المرء على التحكم بحياته، وتوجيه شراع أهدافه وطموحاته إلى الوجهة التي يريدها، متحديًا الرياح والأعاصير، متخطيًا العواقب والعقبات، وتذكر أن ذلك لن يتأتى لك إلا بإدراكك أنك أنت الوحيد المسئول عن تصرفاتك وسلوكياتك وأفعالك، ولك الحرية في اتخاذ قرارك...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يشاء القدر أن تسطر هذه الكلمات يوم ١٤/١٢/٢٠١٦م وهو اليوم التالي لسقوط حلب الأبية في يد قوات الأسد، وافتعال القتل والتشريد لشعبها رجالًا ونساءً وأطفالًا، ناهيك عن الاغتصاب وهتك الأعراض وغيرها من البشاعات التي قامت بها قوات الأسد في حق إخواننا من أهل حلب، وحكوماتنا العربية والإسلامية كعادتها تقف موقف المتفرج لا تحرك ساكنًا ولا تسكن متحركًا ولا تنبس ببنت شفه..!!!

فهل كنا ننتظر أن يلتفت لمأساة إخواننا في سوريا خاصة وبلاد الشام عامة المجتمع الدولي؟!!!

أو ما يطلق عليها اسم منظمات حقوق الإنسان؟!!!

هذه الحقوق التي لا يعطيها المجتمع الدولي ومنظمات حقوق الإنسان إلا لشعوبهم وبنى جلدتهم..!!

ماذا كنا ننتظر، وماذا ننتظر حتى اللحظة حتى تتوحد الحكومات العربية والإسلامية لنصرة المسلمين في بلاد الشام؟!!

هذا حال أهل الشام في زماننا، لا يجدون من يقف لنصرتهم؛ أهل الشام الذين قامت على أكتافهم الدولة الأموية التي حملت على عاتقها مهمة نشر الإسلام في ربوع الدنيا قاطبة، فقامت بالفتوحات شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا.

أهل الشام الذين شيدوا المسجد الأموي بدمشق الذي صدعت جدرانه بالمجالس والدروس الشرعية والعلمية، وتخرج منه من طلاب العلم ما لا يحصى ولا يعد في مختلف العلوم والآداب والفنون..!!

أهل الشام الذين شيدوا مسجد قبة الصخرة، وكلاهما المسجد الأموي ومسجد قبة الصخرة شحبت جدرانهما وتهدمت وهي تنتحب لعلها تجد مجيبًا أو نصيرًا ولكن لا مجيب ولا ناصر..!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبدالرحمن الثاني (الأوسط)

(باذِر بذور النهضة)

«الحمد لله، الذي جعل الموت حتمًا من قضائه، وعزمًا من أمره، وأجرى الأمور على مشيئته، فاستأثر بالملكوت والبقاء، وأذل خلقه بالفناء، تبارك اسمه وتعالى جده، وصلى الله على محمد نبيه ورسوله، وسلم تسليمًا؛ كان مصابنا بالإمام (رحمه الله)، مما جلّت به المصيبة، وعظمت به الرزية، فعند الله نحتسبه، وإيَّاه نسأل إلهام الصبر، وإليه نرغب في كمال الأجر والذخر، وعهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم، ولسنا ممن يخالف عهده، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله».

بهذه الكلمات ابتدأ «عبد الرحمن الأوسط» إمارته، فعقب وفاة والده أرسل في طلب إخوته وأهله ووزرائه أو من كانوا وزراء أبيه، فبايعوه وتبعهم مبايعة العامة، ثم صلى على أبيه «الحكم»، وعندما انتهى من صلاته وأوصل أباه إلى مثواه الأخير، جلس على الأرض مطأطئ الرأس وليس تحته بساط، وعندما رأى من كان معه ذلك، فعلوا مثلما فعل، فألقى عليهم هذه الكلمات وإن شئت فقل هذه المعاني التي نبعت من قلب حاكم وضع في قرارة نفسه أن يجعل دولته ومن هم تحت إمرته شغله الشاغل، وعقب انتهائه من سرد هذه المعاني قام عن من كانوا متواجدين حوله، وأمر بإخراج الأموال والمعونات لهم كل بحسب قدره وحاجته.

سار أبناء الداخل وأحفاده على نهجه في الاستقلال بالأندلس، وتوطيد حكمهم فيها، وظلت الأوضاع تهدأ حينًا، وتضطرب آخر حتى عهد الأمير «عبد الرحمن الأوسط»، الذي يعتبر عصره عصر بَذر بُذور النهضة في الأندلس، وذلك نظرًا لما نعم به هذا العصر من استقرار سياسي؛ حيث لم يقع في عهده أحداث سياسية عظيمة تؤرّق الدولة وتحول بينها وبين خلق نهضة علمية أينعت ثمارها في عهد «عبد الرحمن الناصر» وابنه «الحكم المستنصر» من بعده.

عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل، كنيته «أبو المطرف»، يعرف ب «عبد الرحمن الأوسط» أو «عبد الرحمن الثاني»، لأن الذي يسبقه «عبد الرحمن الداخل» أو «عبد الرحمن الأول»، والذي يليه هو «عبد الرحمن الناصر» أو «عبد الرحمن الثالث»، وهو أول مولود لأبيه، ولد ب طليطلة عام ١٧٦ه/٧٩٢م، أمه تدعى «حلاوة»، وضعته وهو ابن سبعة أشهر، اعتنى والده بتعليمه، فدفع به لمن يحفظه القرآن، ويعلمه الأحاديث النبوية الشريفة، ناهيك عن الأخبار والتواريخ القديمة، هذه النشأة الدينية والعلمية التي نشأها «عبد الرحمن الأوسط» هي التي دفعته فيما بعد إلى أن يبدأ

عهده بهدم خانات الخمور، والاهتمام بالمساجد وعمارتها على ما سيأتي ذكره.

بويع ل «عبد الرحمن الأوسط» بالإمارة عام ٨٢٢/٢٠٦هـ، وكان آنذاك يبلغ من العمر ثمان وعشرين سنة وتسعة أشهر، له من الأبناء خمسة وأربعون صبيًّا، واثنتان وأربعون فتاة، وذكر ابن سعيد نقلًا عن ابن حزم أن أولاده مائة نصفهم ذكور، والنصف الآخر إناث؛ نقش على خاتمه «عبد الرحمن بقضاء الله راضٍ»، وقيل: إنه كان يملك خاتم قبله باسمه، فتلف وضاع منه، وبحث عنه حتىً يصلحه فلم يجده، فأعاد نقش خاتم جده عبد الرحمن، وعندما همّ بنقشه بعث إلى الشاعر عبد الله بن الشمر يستشيره عما ينقش فيه، فأشار عليه ابن الشمر أن ينقش: خاتم للملك أضحى

حكمه في الناس ماض

عابد الرحمن فيه

بقضاء الله راض

استفاد «عبد الرحمن الأوسط» من العهود السابقة لحكمه في السير قُدمًا في تطوير الدولة ونهضتها، وتضافرت في عهده جهود العناصر الاجتماعية الموجودة في الأندلس (مسلمين، نصارى، يهود) لإرساء قواعد الدولة، لذلك كانت أيامه أيام هدوء وسكون، هذا الهدوء والسكون والتوافق بين طبقات المجتمع أدى إلى نشاط الدولة على كافة المستويات ومنها المستوى الاقتصادي، لذلك كان من ضمن الإجراءات التي قام بها «عبد الرحمن الأوسط» توافقًا مع هذا التطور فصل ولاية السوق عن ولاية الشرطة، وجعل لواليها ثلاثين دينارًا في الشهر، ولوالي المدينة مائة دينار، وفي هذا دلالة على زيادة التعاملات في الأسواق حتى إنها أصبحت بحاجة إلى إدارة مستقلة، وهذا بالطبع دلاله على رواج النشاط التجاري والازدهار الاقتصادي في عهده.

سعيًا في تعزيز «عبد الرحمن الأوسط» لاقتصاد الدولة ونهضتها قام بفتح أبواب الأندلس للتجار العراقيين والبضائع العراقية كالملابس وأدوات الزينة التي سرعان ما انتشرت بين أفراد المجتمع الأندلسي، وتذكر لنا الروايات أنه اشترى من أحد التجار عقدًا كان للسلطانة زبيدة زوجة الخليفة العباسي «هارون الرشيد»، بمبلغ عشرة آلاف دينار، وأهداه إلى إحدى جواريه وتدعى «شفاء»، وكان هذا العقد قد سُرق ضمن الأشياء الثمينة التي نُهبت في بغداد أيام الفتنة بين الأمين والمأمون.

إضافة إلى ما سبق قام الأمير «عبد الرحمن الأوسط» بإنشاء دار (مصنع) لسك (صناعة) النقود ونقش عليها اسمه، كما أنه أسس دارًا لصناعة الملابس

ويعتبر هذا بلغة العصر أول مصنع يُقام في بلاد الأندلس لهذا الغرض، أنشأه في القصر الحاكم وذلك لإنتاج الأقمشة الفاخرة لسد حاجته وحاجة أسرة البيت الحاكم ورجال الدولة، إضافة إلى دور النسيج التي كانت تنتج مختلف أنواع المنسوجات والأقمشة، وأيضًا نمت في عهده صناعة السفن والأساطيل الحربية حيث أسس دارًا لصناعتها في مدينة إشبيلية وذلك لحماية البلاد من الأخطار الخارجية وفي نفس الوقت تنشيط الحركة التجارية عبر الموانئ، ناهيك عن صناعة الزجاج، والمجوهرات والخزف والأثاث، كانت هذه الحرف والصناعات الأندلسية عبارة عن صورة للحرف والصناعات المشرقية، وما أضافه الأندلسيون لها في هذا الوقت لا يتجاوز التعديل والتحسين، وفي هذا يقول جورج مارسيه: «إننا لا نجد طابع الشرق وسحره عندنا في المغرب مقصورًا على هيئة البنيان وزخرفته فحسب، بل نجد أن الفنون الصناعية أيضًا تحمل من سماته الشيء الكثير، وتَنُم عن تأثرها به»، إلا أنّ هذا لا يمنع أنها أخذت فيما بعد طابعًا أندلسيًّا خالصًا، أما في عهد «عبد الرحمن الأوسط»، وخلال السنوات التي تلت حكمه فإن هذا التقليد لم يقدم أي تجديد جوهري، ولكن بقيت الحالة صورة لما كانت عليه في المشرق.

كان من نتائج هذا الرواج والازدهار الاقتصادي أن كثرت الأموال التي قام «عبد الرحمن الأوسط» بتوجيهها إلى بناء المؤسسات والقصور والمتنزهات وإقامة المشاريع مثل: جلب المياه من الجبال إلى هذه المؤسسات والقصور والمتنزهات، وأقام الجسور، وشيد العديد من المساجد، فبني جامع إشبيلية وسورها، إضافة إلى بناء الجامع في مدينة جيّان في عام ٢١٠ه/٨٢٥م، والزيادة في المسجد الجامع بقرطبة، إلا أنه مات قبل أن يتم ما قرر زيادته فيه، فأكمل ما بدأه ابنه محمد من بعده، إضافة إلى أمره ببناء سور مدينة قرطبة وذلك عقب ظهور خطر النورمانديين، كما اقتدى به جواريه وأولعوا ببناء المساجد وفعل الخير.

نجد في علم التربية من يتحدثون عن القدوة الصامتة، والقدوة الصامتة هو الشخص الذي يؤدب أبناءه ومن في رعايته بفعله لا بقوله، فلم تذكر لنا المصادر أن الأمير «عبد الرحمن الأوسط» أوصى فتيانه وجواريه بإنفاق أموالهم في أوجه البر والخير - وقد يكون حدث -، إنما كل ما نعلمه عنه أنه هو أول من بادر لذلك ثم تبعه من هم تحت إمرته، وهذا ما نفتقده في زماننا فإضافة إلى افتقار زماننا للقدوة المجاهرة فضلًا عن الصامتة نجد من يأمرنا بما لا يأتمر هو به، وينهانا عما لا ينتهي هو عنه، مع ذلك لا تجعل هذا مانعًا يمنعك أن تأخذ ما يزيدك فضلًا..!!

مما قيل:

«الناس يحبون الصالح ويكرهون المصلِح..!!»؛ ولكن بالطبع هذا لا يعنى أن نتوقف عن محاولاتنا في الإصلاح سواء بالكلام أو الأفعال على حسب ما يقتضيه كل موقف..!!

استمرت الأندلس في تلقي المؤثرات الحضارية من المشرق الإسلامي، وأخذ «عبد الرحمن الأوسط» في مسايرة حركة الازدهار الحضاري التي شهدتها بغداد -رغم العداء القائم بين الأسرتين العباسية والأموية- ففتح أبواب الأندلس أمام التيارات الحضارية العراقية وغيرها من البلدان والأقاليم المشرقية آنذاك، فسار على سنن الخلفاء في الأندلس من حيث الاهتمام بالزينة وإظهار الإمارة بمظهر الهيبة والفخامة والأبهة، لذلك نجده كما تم التوضيح وقد عُني بالعمارة الإسلامية أشد العناية، فشيد القصور، وبني المساجد بالأندلس، وأنشأ دارًا للسكة بقرطبة عاصمة ملكه، وأخذ يقلد الخلفاء العباسيين في مظهرهم ولباسهم، وفي الاحتجاب عن الرعية ليكسب إمارته علامات الرهبة والهيبة، لذلك كان «الأوسط» هو أول من فخم السلطنة بالأندلس.

لعل من أبرز المواقف التي توضح لنا شروع «عبد الرحمن الأوسط» في طريق التفخيم لدولته وإظهارها بأفخم مظاهر الهيبة أنه ألزم الوزراء في دولته أن يقدموا عليه يوميًّا للتشاور في أمور الدولة والوقوف على أوضاعها، بل أفرد لهم بيتًا مخصوصًا داخل قصره، فإذا ما حضروا جلسوا فيه جميعًا ثم يقوم بدعوتهم إلى مجلسه جمعًا أو أفرادًا للوقوف على آرائهم ومشاورتهم في كل ما يستجد بشأن دولته.

كان الحكام الأمويون في الأندلس على درجة كبيرة من الوعي، مكنتهم من تقدير قيمة العلم وإنزال أهله المنازل العليا، أضف إلى ذلك أنهم كانوا على قدر وافر من العلم والثقافة، فكانوا ينظمون الشعر، ويشتركون مع الكُتاب والشعراء وعلماء اللغة في مجالس يجرى فيها نوع من المساجلات الأدبية والمناظرات العلمية، هذه المجالس التي كانت على اختلاف أزمان متصدريها لكل منها سمة يمتاز بها عن غيره، ففي حين كان يحيط ب «عبد الرحمن الداخل» الفقهاء والعلماء الذين يذكرون له، ويذكرونه بالشام التي لم يكن ينساها، فتشتعل بداخله نيران الحنين إلى موطنه، وموطن أهله وأسرته وعزوته؛ كان مجلس ابنه «هشام» يحاط بالأدباء وأصحاب السير والتواريخ فيتداول معهم أمور الحرب، ومواقف الأبطال وما شابه؛ وذلك على العكس من مجلس أخيه «سليمان» الذي كان يمتلئ بالمجون والسخف والهذيان؛ أما مجلس «عبد الرحمن الأوسط» الذي نحن بصدد الحديث عنه فقد كان يمتاز بمداخلاته الدائمة للعلماء والفقهاء الذين يزخر مجلسه بهم كلٌّ في الفن الذي يتقنه، ناهيك عن الجود والكرم الذي امتاز به «الأوسط» الذي جعله يجزل

أعطياته لمن يحفون مجلسه، هذا العطاء الذي وصل في بعض الأحيان إلى حد التبذير على ما سيأتي التفصيل فيه.

كان «عبد الرحمن الأوسط» من أبرز الحكام الأمويين الذين عنوا بالعلم وأكرموا أهله، فكان دائم التلاوة للقرآن، والاستشهاد بالأحاديث النبوية الشريفة في المجالس التي يحيطه بها العلماء في مختلف العلوم والفنون، وكان مشجعًا للعلوم والآداب والفنون، مولعًا بالفلك والتنجيم، كما أنه كان شغوفًا بسماع أخبار الأمم سواء السالفة أو المعاصرة له، وكانت هذه اللذة تطغى على جميع لذاته حتى لذة ميله وشغفه بالنساء، فأحاط نفسه بنخبة من العلماء والأدباء وأجزل لهم العطايا من أجل الإسهام في نهضة دولته والسير بها قدمًا نحو التقدم والرقي.

كما كان الأمير «عبد الرحمن الأوسط» معتنيًا باقتناء الكتب لذلك كان يرسل رجاله إلى أقطار المغرب والمشرق للحصول على ما ندر منها، ف حدث أن أرسل عباس بن فرناس إلى المشرق لشراء بغيته من هذه الكتب، وذهب ابن فرناس واحضر له كتاب «القرش»، وبلغ ثمنه ثلاثمائة دينار، كما بعث الشاعر «عباس بن ناصح الجزيري» لإحضار ما استطاع إليه سبيلًا من الكتب المشرقية، فجلب له منها طائفة كبيرة، ومن جملة ما جلبه له كتاب «السند هند»؛ كما قصده التجار بكتب الحكمة التي أخذت من قصور العباسيين في فتنة الأمين والمأمون، ولم يكن يبخل على من يحضر له بغيته من هذه المؤلفات والمصنفات المشرقية، بل كان يكرمهم ويجزل لهم العطايا جزاء صنيعهم، لذلك ورد أن أولى المكتبات الأندلسية ظهرت في أوائل القرن الثالث الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي) عندما أسس الأمير عبد الرحمن الأوسط، مكتبة ضخمة في قرطبة، ضمت المؤلفات في كل العلوم والآداب والفنون.

الجدير بالذكر أن كون هذه المكتبة مملوكة للحكام لا يعني أنه كان يمنع ما تحويه من كتب عن مريديها، بل كان حكام الأندلس إذا ما طلب منهم أحد العلماء كتابًا معينًا موجودًا في مكتبة أحدهم، بادروا على الفور بإنفاذه له، وقد بعث عباس بن فرناس للأمير «عبد الرحمن الأوسط» يطلب منه كتاب «المثال في العروض» للخليل بن أحمد الفراهيدي ت ١٧٠ه/٧٨٦م عقب علمه بوصول تجار الكتب به، فبعث به إليه، وعقب انتهاء ابن فرناس من قراءته رده إلى الأمير وأخبره أن لهذا الكتاب كتابًا آخر سابقًا ومفسرًا لما فيه، فطلب منه الأمير الذهاب إلى المشرق لإحضاره.

كما كان «عبد الرحمن الأوسط» متمثلًا بسير سلفه من الأمراء في إحاطة مجلسه بالعلماء والفقهاء والشعراء، ناهيك عن الأعيان ورجال الدولة، كذلك لم يكن مجرد مستمع فحسب، بل كان يداخل كلًّا منهم في الفن الذي يتقنه

كما أوضحنا سابقًا، إضافة إلى أنه كان شاعرًا يقرض الشعر ارتجالًا دون تكلف، فقد حدث أن دخل عليه ذات يوم الشاعر المدعو بالغَزَّال، فقال الأمير: جاء الغَزَّال بحسنه وجماله..!!؛ فقال الوزير للغَزَّال: أجز ما بدأ به الأمير، فقال الغَزَّال: قال الأمير مداعبًا بمقاله

جاء الغزال بحسنه وجماله

أين الجمالُ من امرئ أربى على

متعدد السبعين من أحواله

وهل الجمالُ لهُ؟ الجمالُ من امرئ

ألقاه ريب الدهر في أغلاله

وأعاده من بعد جدته بلى

وأحال رونق وجهه عن حاله

ومن أشعار «عبد الرحمن الأوسط»:

أرى المرء بعد العزل يرجع عقله

وقد كان في سلطانه ليس يعقل

فتلفيه جهم الوجه ما كان واليا

ويسهل عنه ذاك ساعة يُعزل

أيضًا كان من روائع ردوده على بعض مطالب رعيته حين كتب له أحد رجاله يسأله أن يوليه عملًا ذا قدر ورفعة، ونظرًا لأن الأمير كان يرى أنه ليس أهلًا لذلك، كتب له في أسفل الخطاب الذي أرسله: «من لم يعرف وجه مطلبه، كان الحرمان أولى به».

ما سبق ذكره لا يعني أن عصر «عبد الرحمن الأوسط» كان كله ورديًّا، يسير على مسطرة الهدوء والسكون، الرخاء والنعيم؛ بل وقع في عصره من الأحداث ما نغص حياة الناس، ومنها: حدوث قحط شديد، ومجاعة عظيمة في عام ٨٤٧/٢٣٢هـ، هلكت فيها الماشية، وأقفرت الأرض من الزروع، وكثر الجراد، مما زاد في المجاعة، وضيق العيش.

كما حدث في عام ٨٤٩/٢٣٤هـ أن قام أصحاب جزيرة ميورقة بنقض العهد مع المسلمين وأغاروا على المراكب التي مرت بجزيرتهم، وهنا لم يتحجج الحاكم بأن البلاد لا زالت تعيش تحت وطأة آثار القحط والمجاعة التي حدثت في العام قبل الماضي، وبالتالي لا ينبغي للناس أن يلوموا الدولة والحاكم إذا لم

يهتم لأمر إخوانهم المتضررين من استغلال العدو للفرص والإضرار بهم، بل أمر على الفور بتجهيز جيش وإرساله لتأديب أهل جزيرة ميورقة، فغزاها المسلمون في ثلاثمائة مركب، فأظفرهم الله جل وعلا عليهم، وفتحوا أكثر الجزر التابعة لميورقة، إضافة إلى صلحهم مع البعض من الحصون على ثلث أموالهم وأنفسهم.

الغريب أنه في عام ٢٣٥ه/٨٥٠م وهو العام التالي لغزو المسلمين لجزيرة ميورقة وما تبعها، أرسل أهل جزيرتي ميورقة ومنورقة كتابًا إلى «عبد الرحمن الأوسط» يشتكون له ما فعله المسلمون بهم من تقتيل وسبي، وهنا أرسل «الأوسط» لهم كتابًا أردت أن أذكر بعضًا منه كما ورد حتى نستمتع بفنون رد حكامنا المعطرة بالفخر والعزة والاعتزاز، وفي نفس الوقت نتذوق لذة لغتنا العربية الفصحى، كتب لهم قائلًا: «أما بعد، فقد بلغنا كتابكم، تذكرون فيه أمركم، وإغارة المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم، وإصابتهم ما أصابوه منكم من ذراريكم وأموالكم، والمبلغ الذي بلغوه منكم، وما أشفيتم عليه من الهلاك، وسألتم التدارك لأمركم، وقبول الجزية منكم، وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة، والنصيحة للمسلمين، والكف عن مكروههم، والوفاء بما تحملونه على أنفسكم، ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاحكم، وقمعكم عن العود إلى مثل الذي كنتم عليه، وقد أعطيناكم عهد الله وذمته».

كما حدث في عام ٢٣٥ه/٨٥٠م أن اجتاح الأندلس سيل عظيم، خرَّب جزءًا من قنطرة استجة، وخرَّب السدود، وقام بتدمير ست عشرة قرية من قرى إشبيلية، واتصل بوادي باجة، فأذهب ثماني عشرة قرية؛ وكان لعظم هذا السيل أن ظل الناس يتحدثون عنه فيما بعد لزمن طويل.

إلا أن هذا لم يحُل دون سطر اسم الأمير «عبد الرحمن الأوسط» في التاريخ بحروف من نور، وذلك لأنه كان من طراز الحكام الذين جعلوا دولتهم هي شغلهم الشاغل فأحسنوا إدارتها، وتصريف شؤونها، لذلك كان من الأوصاف التي وصف بها المؤرخون عهده أنها كانت «أيام العروس».

وصدق الشاعر

جمال الأرض كانوا في الحياة

وهم بعد الممات جمال الكتب والسير

أيضًا مما يبرز الجوانب النيرة في شخصية «عبد الرحمن الأوسط» أن أحد المشتهرين في عهده بالاستغلال والجشع رفع له كتابًا اقترح عليه فيه أن يقوم في وقت حصاد الزروع بفرض رسوم على الدواب والأحمال التي تمر على القنطرة التي بناها جده، وأغراه موضحًا له أنه سيجتمع له مقابل ذلك

الكثير من الأموال التي تزيد في خزانة الدولة، فرد عليه الأمير «عبد الرحمن» في خطاب، وآثرت أن أذكر ما كَتب مثلما كُتب حتى نتذوق لذة المعاني التي كان ينبض بها قلب «عبد الرحمن الأوسط»، فبمجرد قراءتك أخي القارئ وأختي القارئة لهذه الكلمات سيخترق أعماقك أنها كلمات محب لبلده وأمته، ومهتم فحسب بأهله وشعبه، كتب له قائلًا: «نحن أحوج إلى أن نحدث من أفعال البر أمثال هذه القنطرة، لا أن نمحو ما خلده آباؤنا باختراع هذا المكس – الضريبة – القبيح، فتكون عائدته قليلة لنا، وتبقى تبعته وذكره السوء علينا»، ثم تابع الأمير خطابه معنّفًا الرجل، موضحًا ما هو الأولى بالاقتراح والاهتمام قائلًا له: «وهلا نبهتنا على إصلاح المسجد المجاور لك الذي قد تداعى جداره، واختل سقفه، وفصل المطر مُستقبل، لكن يأبى الله أن تكون هذه المَكرُمة في صحيفتك»؛ بل لم يكتفِ الأمير بهذا الرد والتعنيف، حيث شرع في تضمين كتابه عقابًا لهذا الرجل وكان عقابه كما أورده في الخطاب: «جعلنا عقوبتك بأن تصلح المسجد المذكور من مالك على رغم أنفك، فيكون ما تنفق فيه منك، وأجره لنا إن شاء الله».

أيضًا من ضمن أبرز المواقف التي ترسم صورة واضحة لشخصية «عبد الرحمن الأوسط»، موقفه من عم أبيه ويدعى «عبد الله» الذي قرر العصيان والثورة عليه، فعسكر بمدينة مرسية، وصلى الجمعة وقرر الخروج على «عبد الرحمن الأوسط» يوم السبت، وقبل أن ينهي صلاة الجمعة قام بالدعاء قائلًا: «اللهم إن كنتُ أحق بهذا الأمر من عبد الرحمن حفيد أخي فانصرني عليه، وإن كان هو أحق به مني فانصره عليّ، فأمنوا على دعائه»؛ ولم يستتم كلامه حتى ضربته الريح، فسقط مغشيًّا عليه، فأكمل الناس صلاتهم بدونه، وافترق الناس، وصار «عبد الله» إلى بلنسية، ومات بها عام ٢٠٨ه/٨٢٣م، ونظرًا لأن «عبد الرحمن الأوسط» لم يكن من طراز الحكام الذين يسلكون مسلك الانتقام الذي يحرق الأخضر واليابس، ويُؤخذ بسببه صاحب الذنب ومن لا ذنب له؛ بل كان من طراز الحكام الذين امتزجت شخصياتهم بالمغفرة والعفو عند المقدرة، لذلك نجده بعد وفاة عم أبيه لا يتعرض لأبنائه بسوء، بل يكرمهم ويجزل لهم الأعطيات.

من هذا الموقف وما سبقه والذي يليه يظهر جليًّا صورة الحاكم الذي لا يشغله شاغل سوى سلامة المسلمين، والاهتمام بشؤونهم، وتصريف أمورهم، فهكذا كان حكامنا يومًا ما..!!.

كان مما اشتهر به عصر «عبد الرحمن الأوسط» هو كثرة القضاة، وذلك لأن الأمير «عبد الرحمن» كان يعتمد في تولية هذا وعزل ذلك على مشورة العلامة يحيي بن يحيي الليثي، فكان لا يولي ولا يعزل رجلًا إلا برأيه، وهذا يوضحه ابن حيان، حيث قال: «وإنما كان سبب استكثار عبد الرحمن بن

الحكم من القضاة وكثرة توليته وعزله لهم اتباعه فيهم رضا كبير الفقهاء المشاورين الأثير عنده يحيى بن يحيى، إذ كان لا يزال يشير عليه بقاض، فيوليه الأمير عبد الرحمن مقتصرًا فيه على رأيه، فإذا أنكر عليه يحيى شيئًا رفع عليه إلى الأمير، فلا يؤخر عزله، ولا يحيد عن مشورته، وكان يحيى الذي يولي مكانه»، حتى إن يحيي الليثي كان إذا ما غضب من أحد القضاة هدده قائلًا: «استعفِ وإلا رفعت بعزلك»، فإن تراجع كان بها وإلا أشار يحيي بعزله، فيُعزل من فوره، لذلك عندما توفي يحيى بن يحيى الليثي عام ٢٣٤ه/٨٤٩م علق ابن عذاري على ذلك قائلا: «فاستراح القضاة من همه»؛ وعلى الرغم أن القضاة في أقطار الأندلس لم يكن يولى أحدهم إلا بمشورة يحيي بن يحيي الليثي، ألا أن يحيى نفسه لم يتولَّ القضاء، ولا قَبِلَ توليه فضلًا عن أن يطلبه وهذا كان من أسباب قبول رأيه، وزيادة فضله.

هنا لا يفوتنا أن نذكر سببًا عزل لأجله أحد القضاة، هذا السبب ممثل في كلمة قيلت للقاضي، ونظرًا لأنه لم ينكرها على قائلها عُزل من منصبه، فقد حدث أن جاءت امرأة إلى القاضي إبراهيم بن العباس المرواني لتعرض عليه قضيتها، فقالت له: «يا ابن الخلائف! انظر إليّ نظر الله إليك»، فدُسَّ له لدى الأمير بخطاب كتب فيه: «ما ينبغي للأمير أن يشركه في سلطانه مَن يُخاطب بمثل ما يُخاطب به، ويحلى تحليته»، فعزله الأمير، وقيل: إن هناك من دَسَّ له هذه المرأة لكى تقول له هذه الكلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان مما روي عن يحيى بن يحيى الليثي أنه عندما ارتحل من الأندلس قاصدًا مالك في المدينة لأخذ العلم عنه، وبينما هو في مجلسه مع مجموعة من أصحابه، إذ قال قائل: حضر الفيل؛ فخرج جميع من في المجلس متواجهين لرؤية الفيل فيما عدا يحيى، فقال له الإمام مالك: لمَ لم تخرج وليس الفيل في بلادك؟!!، فقال: «إنما جئت من الأندلس لأنظر إليك، وأتعلم من هديك وعلمك، ولم أكن لأنظر إلى الفيل»، فأعجب به مالك، وقال: «هذا عاقل الأندلس»؛ لذلك كان محمد بن عمر بن لبابة يقول: «إن يحيي هذا عاقل الأندلس، وعيسى بن دينار فقيهها، وعبدالملك بن حبيب عالمها».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرغم أن يحيى بن يحيى الليثي ارتحل إلى المشرق للأخذ عن الإمام مالك وعاد إلى الأندلس وقام بنشر مذهب مالك فيها، حيث أخذ عنه الكثير من العلماء وطلاب العلم على حد سواء، إلا أنه عندما حدث أن قام الأمير «عبد الرحمن الأوسط» ذات يوم بجمع الفقهاء في قصره يستفتيهم في أنه وقع على إحدى جواريه في نهار رمضان وأنه ندم على ذلك أشد الندم، وسألهم عن التوبة والكفارة، فقال يحيي بن يحيى الليثي: تكفر بصوم شهرين

متتابعين؛ وعندما سمع الفقهاء بقول الليثي سكتوا ولم يتحدث منهم أحد بحرف فضلًا عن كلمة وخرجوا، ثم التقى أحدهم به في الخارج وحدثه متسائلًا: لماذا لم تفتِ بمذهب مالك الذي يقول بالتخيير؟!! فرد عليه قائلًا: «لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة، ولكن حملته على أصعب الأمور حتى لا يعود».

تذكر

ليس الأطفال فحسب من يحتاجون إلى تربية وحسن توجيه؛ بل كذلك يحتاجها الكبار، مع ذلك تذكر أن تربية الكبار تحتاج إلى فطنة وحكمة وإدراك من نوع آخر.

تمكن «الأوسط» من التصدي لكل التحديات التي جابهت دولته بإقامة المشروعات التنموية والعلمية، كما أمّن المدن لا سيما مدن الموانئ وعمل على تأمين حركة السير العامة في البحر الأبيض المتوسط والحركة التجارية في الأندلس وذلك عقب إخضاعه لجزر الأندلس بعد خروجها عن الطاعة، وإضرارها بمن يمر بها من مراكب المسلمين، وهذا يوضح أن «عبدالرحمن الأوسط» كان كمن سبق من أسلافه يعمل في جميع الاتجاهات ولا يترك جانبًا حتى لا يتفاقم بتركه فكان يعمل على بناء الدولة ومقوماتها كما أنه يعمل على إرساء أمنها.

كذلك كان «عبد الرحمن الأوسط» شأنه شأن سلفه لا يغفل عن الجهاد وملاقاة العدو النصراني سواء بقيادته للجيوش بنفسه أم إرسال أبنائه، أو مقربيه، فقد حدث أن أرسل في عام ٢٢٤هـ/٨٣٩م ابنه إلى أرض النصارى، وأمره أن يتجول في الثغور للوقوف على أخبارها ومِن ثم توفير ما يلزم لحمايتها وإصلاحها، كما أمره بإصلاح قنطرة سرقسطة، وقد ذهب ابنه إلى هذه الثغور ودخلها وتلاقى فيها بالنصارى، فأذاقهم أشد ألوان العذاب، وقتل منهم ما لا يحصى، حتى قيل إنه اجتمع له من رؤوسهم فحسب دون أجسامهم مثل الجبال، حتى إن الفارس منهم إذا ما وقف في ناحية لا يتمكن من رؤية صاحبه في الناحية المقابلة، نظرًا لعظم الرؤوس المكدسة والتي تم حصدها.

كما أن الأمير «عبد الرحمن الأوسط» قام في عام ٢٢٥هـ/٨٤٠م بقيادة حملة لغزو جليقية، ففتح حصونها، وأخذ يتجول في أرضها للوقوف على أخبارها، وظل في هذه الغزوة فترة طويلة، حتى إنه تعب كثيرًا وكان يصاب في معظم الليالي بالأرق، وحدث أن أصابه الأرق ذات ليلة فحضر الشاعر عبد الله بن شمر فحكى له الأمير أنه يصاب كل ليلة بالأرق لأنه يتذكر بعض من يحن

إليهم، فأنشد له ابن شمر شعرًا حتى يسري به عن نفسه، وكان من جملة هذه الأبيات: أنا ابن الهِشَامَين من غالب

أشب حروبًا وأطفي كروبا

وبي أدرك الله دين الهدى

فأحييته واصطلمت الصليبا

سموت إلى الشرك في جحفل

ملأت الحزون به والسهوبا

كذلك خرج «عبد الرحمن الأوسط» في عام ٢٢٨ه/٨٤٣م إلى أرض العدو، وجعل في قرطبة ولده المنذر نائبًا عنه، وجعل في ميمنة جيشه ولده محمدًا، وعلى الميسرة ولده المطرف، ودارات بينه وبين النصارى معركة كان النصر فيها أيضًا حليف المسلمين، وغنموا من هذه المعركة الكثير من الغنائم ثم قفلوا عائدين إلى قرطبة، وفي عام ٢٣١ه/٨٤٦م جعل ابنه محمدًا على رأس الصائفة التي اتجهت إلى جليقية، فحاصرها، وحاصر مدينة ليون، ورماها بالمنجنيق، وعندما أيقن أهلها بالهلاك نظرًا لشدة وطأة الحصار الإسلامي، خرجوا منها ليلًا مهرولين نحو الجبال للاحتماء بها، فقام «محمد بن عبد الرحمن الأوسط» بإحراق المدينة بعد أن خلت من سكانها، وعزم على هدم سورها ولكن تراجع عند ذلك نظرًا لكبر السور حيث كان يبلغ سبعة أو ثمانية عشر ذراعًا، ثم أمعن في اجتياح بلاد النصارى قتلًا وسبيًا.

كذلك حدث في عهد الأمير «عبد الرحمن الأوسط» أن ظهر معلم في منطقة الثغر الأعلى عام ٢٣٧ه/٨٥٢م وقام بادعاء النبوة، حيث شرع في تحريف القرآن، وحمل الآيات ومعانيها على غير محملها وتأويلها، وكان مما يدعو الناس إليه الانتهاء عن قص الأظافر والشعر قائلًا لهم: «لا تغيير لخلق الله» وتبعه فيما يدعو إليه الكثير من الناس، فبعث والي الثغر آنذاك ويدعى «عبيد الله بن يحيى» من يُحضره، فحضر المعلم ومَثُلَ أمامه، وكان أول ما قام به هو دعوة «عبيد الله» لاتباعه، وعندما رأى «عبيد الله» من أمره وإصراره على موقفه، قام على الفور باستشارة أهل العلم بشأنه، فأشاروا عليه أن يطلب منه التوبة ويمهله ثلاثة أيام، وإن لم يتب فليقم بقتله، وبالفعل قام الوالي «عبيد الله» بتطبيق ما أملاه عليه الفقهاء وأهل العلم وعرض على الرجل التوبة وأمهله ثلاثة أيام، إلا أن الرجل لم يرجع، فأمر على الفور بقتله حتى يصبح عبرة لغيره، وعندما همَ رجال الوالي بقتله، وقيدوه في جذع، وهنا أخذ الرجل يردد «أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله»..!!، وعقب الانتهاء من هذه

المهمة بعث الوالي للأمير «عبد الرحمن الأوسط» يخبره بما حدث، فحمد الأمير فعله، وهنأه على ذلك.

اعلم

إذا ما طُمست القلوب فلا سبيل لأحد..!!

على الرغم من هذه الدولة الناهضة التي أحسن الأمير «عبد الرحمن الأوسط» إدارتها وتصريف شؤونها، إلا أن هذا لا يمنع كونه له بعض التجاوزات شأنه شأن غيره من الحكام المسلمين سواء ممن سبقوه أم ممن لحقوا به، لأن تاريخنا كما هو معلوم للجميع تاريخ بشري وليس تاريخًا ملائكيًّا أهله معصومون من الخطأ أو الوقوع في التجاوزات أو الهنات أو الأفعال غير اللائقة أو...، سمها كما يحلو لك..!!.

كان «عبد الرحمن الأوسط» يتمتع بخلق الكرم والجود، حيث كان كريمًا جوادًا معطاءً لكل من حوله على اختلاف مكانتهم وقدرهم سواء كانوا فقهاء أو علماء أو رجال دولة، أو مغنيين أو جواري فضلًا عن غيرهم، مع ذلك كان يصل هذا الكرم والجود في بعض الأحيان إلى حد التبذير وعدم تقدير الأمور قدرها وإهدار المال في أمور لا تسمن ولا تغنى من جوع، ومن الأمثلة على ذلك؛ أن زرياب المغنى عندما حضر في أحد مجالسه وغنى له، فطرب الأمير «عبد الرحمن» لغنائه، وأعطاه مقابل ذلك ثلاثة آلاف دينار، فتزاحم عليه جواريه عندما رأوا المال فنثرها زرياب عليهم، وكتب أحدهم للأمير أن زرياب لم يبهره أو يلفت انتباهه هذا المال لأنه أخذه سابقًا في ساعة واحدة، فكتب له «عبد الرحمن الأوسط» قائلًا: «نبهت على شيء كنا نحتاج إلى التنبيه عليه، وإنما رزقه نَطَقَ على لسانك، وقد رأينا أنه لم يفعل ذلك إلا ليحببنا لأهل داره، ويغمرهم بنعيمنا، وقد شكرناه، وأمرنا له بمثل المال المتقدم، ليمسكه لنفسه، فإن كان عندك في حقه مضرّة أخرى، فارفعها إلينا».

عندما دخل زرياب إلى الأندلس قادمًا من العراق فرض الكثير من النظم والأساليب المعيشية على أهل الأندلس ومنها: طريقة تناول الطعام، ولم يفرض هذ الطريقة على العامة فحسب بل فرضها على الأمراء والحكام، مما أدى إلى انشغال الأندلسيين حكامًا ومحكومين بمفارش المواضع التي يوضع عليها الطعام بأن تكون من أفضل الجلود ومطرزة بأجود التطريزات، ناهيك عن الأواني التي كانوا يضعون فيها الطعام؛ كما كان له دور كبير في ظهور بعض الأصناف الجديدة من الأطعمة والتي لم يرها أو يسمع عنها الأندلسيون قبل مجيء زرياب إلى الأندلس؛ كما أنه جدد في تحضير الأطعمة المعروفة لديهم.

وما أشبه اليوم ب البارحة.. ففي زماننا لا يكاد يمضى يوم إلا ونسمع عن افتتاح مطعم أو مقهى، فإذا ما ذهبت إلى هذا المطعم أو المقهى لاستطلاع المنيو الذي يحوي أصناف الأطعمة والمشروبات لديهم تحتار بين المسميات التي لم يقع عليها سمعك فضلًا عن أن تقع عليها عينك قبل أن تجلس على طاولة هذا المطعم أو المقهى..!!.

أيضًا من أمثلة هذه التجاوزات التي وقع فيها الأمير «عبد الرحمن الأوسط» شأنه شأن أغلب البشر موقفه من إحدى جواريه، حيث كان له جارية تدعى «طروب» تزوجها وأنجب منها ابنه «عبد الله»، وكانت من أحب النساء وأقربهم إلى قلبه، حدث ذات يوم أن كانت «طروب» هذه مريضة أو إن شئت فقل تعيسة مما دفعها إلى الامتناع عن سيدها، فأرسل في طلبها إلا أنها تمنعت وقامت بإغلاق باب غرفتها على نفسها، وهنا جاء الأمير إليها وأمر ببناء باب الغرفة بصرر ممتلئة بالدراهم، وذلك استرضاءً لها، واستعطافًا لوصالها، فعندما همت بفتح الباب تساقطت الصرر عليها فجمعتها ووجدتها عشرين ألف درهم، ثم أمر لها بعقد ثمنه عشرة آلاف دينار وقيل: مائة ألف دينار، فاستاء البعض من وزرائه من هذا الفعل باعتباره تبذيرًا وإهدارًا للمال، فقال لهم «عبد الرحمن» ردًّا على استيائهم، وتعليقًا على العقد: «إن لابسه أنفس منه خطرًا، وأرفع قدرًا، وأكرم جوهرًا، وأشرف عنصرًا» ثم تابع قائلًا: «ولئن راق من هذه الحصباء منظرها، ورصف في النفس جوهرها، فلقد برأ الله من خلقه جوهرًا يغشى الأبصار، ويذهب بالألباب، وهل على وجه الأرض من زبرجدها وشريف جوهرها أقر لعين، وأجمع لزين، من وجه أكمل الله فيه الحسن ونضرته، وألقى عليه الجمال بهجته؟»؛ ثم تابع مشيرًا للشاعر عبد الله بن الشمر، ومتسائلا: هل يحضرك شيء في هذا المعني؟، فأنشد ابن الشمر قائلًا: أتقرن حصباء اليواقيت والدر

بمن يتعالى عن سنا الشمس والبدر

بمن قد برت قدمًا يد الله خلقه

ولم يك شيئا قبله أبدا يبري

فأكرم به من صنعة الله جوهرا

تضاءل عنه جوهر البر والبحر

فأعجب الأمير بهذه الأبيات وطرب لها، حتى إنه أنشد مرتجلا:

قرضك يا ابن الشمر عفي على الشعر

وجلَّ عن الأوهام والذهن والفكر

إذا شافهته الأذن أدى بسحرها

إلى القلب إبداعا فجلَّ عن السحر

وهل برأ الرحمن من كل ما برا

أقر لعين من منعمة بكر

ترى الورد فوق الياسمين بخدها

كما فوق الروض المنعم بالزهر

فلو أنني ملكت قلبي وناظري

نظمتهما منها على الجِيدِ والنَّحر

ثم أمر لابن الشمر بصرة تحوى على خمسمائة دينار، ومن طرائف ما حدث في ذلك أن ابن الشمر خرج مع أحد رجال الأمير الذي أمره أن يعطى هذه المكافأة لابن الشمر، فامتثل الرجل لأمره وأحضر الصرة ووضعها تحت إبطه ومضى مع ابن الشمر، وأثناء سيرهما سأل الرجل ابن الشمر قائلًا له: أين لذات العمر، يا ابن الشمر؟!!، فرد عليه ابن الشمر قائلا: تحت إبطك يا سيدي..!!.

وقال المقري نقلًا عن البعض من المؤرخين في قصة هجر «طروب» ل «عبد الرحمن الأوسط» أنه أغضبها، فقررت هجرانه والصد عنه، وجلست في حجرتها لا تفارقها، وعندما اشتاق إليها، وازداد ضيقه لهجرها له، وحاول أن يسترضيها بكل السبل إلا أنها أبت ذلك، فأرسل فتيانه في طلبها وإحضارها رغمًا عنها، فأغلقت باب مجلسها، وأصرت على عدم الخروج لهم والقدوم على «عبد الرحمن» حتى ولو أدى الأمر إلى قتلها، فرجع الفتيان إلى أميرهم وأخبروه بما حدث وبما قالت، واستأذنوه أن يكسروا الباب ويخرجوها ومن ثم يحضرونها له، فرفض وأمرهم ببناء الباب بصرر المال كما تم الإشارة سابقًا، ثم وقف بالباب وحدثها مغريًا لها أنها إذا ما تراجعت عن موقفها، وخرجت له، فلها كل المال الذي أغلق به الباب، فقبلت وفتحت له الباب، فسقطت الصرر ممتلئة بالمال عليها، فانكبت على قدميه تقبلها، وحازت المال، وتكملة القصة سبق الإشارة إليها.

ولفرط شغف «عبد الرحمن الأوسط» بالنساء حدث أنه كان في أحد غزواته إلى وادي الحجارة، وعندما اشتد اشتياقه لجاريته «طروب» استخلف على الجيش، وعاد هو مسرع إلى قرطبة، ولم يكن يتخذ من النساء إلا البكر، فلم يتزوج ثيبًا أبدًا، وللعلم كان ل «طروب» مسجد في الربض الغربي من أرباض قرطبة ينسب لها، إضافة إلى غيرها من الآثار في أنحاء قرطبة.

كذلك أحب «الأوسط» جارية أخرى تسمى «مدثرة» حيث أعتقها ومن ثم تزوجها، وثالثة تدعى «شفاء»، أما أشهر جواريه فهي «قُلم» وكانت راوية للشعر، عالمة بضروب الأدب، حافظة لأخبار الأمم، كما كانت تمتاز بحسن الخط وجزالته.

أيضًا عند حديثنا عن الأمير «عبد الرحمن الأوسط» لا ينبغي أن نتغاضى عن ذكر الفتن والمكائد التي كانت تحيكها النساء في قصره أو إن شئت فقل في مملكته، وذلك شأن الكثير من حال حكامنا سواء في الماضي أم الحاضر الذين لا تخلو دولهم من مكائد النساء وفتنهم، وكلهن يهدفن إلى غاية واحدة، وهي إيصال أبنائهن إلى السلطة خلفًا لأبائهم؛ كانت من أبرز النساء المدبرات للمكائد في قصر «عبد الرحمن الأوسط»، جاريته «طروب» صاحبة الواقعة السالفة، هذه الجارية التي تقرب منها أحد فتيان «عبد الرحمن الأوسط»، ويدعى «نصر الخصي»، وكان هذا الفتى من أشد المقربين ل «عبد الرحمن الأوسط»، حيث كان مقدمًا عنده على جميع خواصه، بل وصل من علو قدره لديه أنه كان يشارك كبار وزرائه في إدارة أمور الدولة.

بدأت «طروب» بمساعدة «نصر الخصى» في حياكة المكائد حتى تحقق غايتها في إيصال ابنها «عبد الله» لارتقاء العرش خلفًا لأبيه، ونظرًا لميل هذا الفتى لسيدته لم يكن يرفض لها أمرًا، بل كان يتقرب إليها بكل السبل، لذلك كان لا يفتأ يذكر ابنها «عبد الله» في مجالس أبيه، هذه المجالس التي يحفها كما أوضحنا سالفًا الفقهاء والعلماء والشعراء ورجال الدولة فضلًا عن أعيانها، فكان يشيد به وبأفعاله حتى يستميل له قلوب العلماء ورجال الدولة وأعيانها، ناهيك عن استمالة قلوب الناس بالترغيب أحيانًا والترهيب أخرى، إلا أن كل السبل كانت تغلق في وجهه، حيث إن رجال الدولة وأعيانها وعامتها كانوا يميلون ل «محمد بن عبد الرحمن الأوسط»، الابن البكر لأبيه والذي اشتهر بالصلاح والنجابة، ونظرًا لذلك لم يجد «نصر الخصي» بُدًّا من التفكير في التخلص من سيده «عبد الرحمن» وذهب من فوره إلى طبيب يدعى «الحراني»، وكان دومًا ما يأسره «نصر» ويستميله إليه بما يقدمه له من أعطيات، ودار بينهما هذا الحديث: نصر: هل لك في إحراز حسن رأيي للأبد، وحوز جزيل صلتي للآخر؟!!

الحراني: يا سيدي، بعض هذا غاية أملي! فكيف لي ببلوغه؟!!

نصر: فقد أمكنك، هذه ألف دينار معجلة بين يدي، واعمل لي سَنُون – سم – الملوك الذي يدنى الأجل، ويقلب الدول، ودعني لمكافأتك إن انقضت حاجتي، فو الله لأتجاوزن بها ظنك..!!

فوافق «الحراني» على طلبه.

قام «الحراني» بصناعة السم الذي طلبه منه «نصر الخصى»، إلا أنه قبل أن يوصله له قام بالإرسال سرًّا إلى جارية تدعى «فجر» وكانت من الجاريات المفضلات للأمير «عبد الرحمن الأوسط»، وطلب منها أن تخبر الأمير بالمكيدة التي يحيكها له «نصر»، وعندما أحضر «نصر» السم لسيده على أنه دواء، طلب منه سيده أن يتناول بعضًا منه، فتأنى «نصر» وأظهر عدم رغبته في تناوله، فزجره الأمير قائلًا له: «سبحان الله، شيء اجتهدت لي فيه، وألطفت تركبه، تخاف غائلته..!!»، وأمره بالشراب، فلم يجد بُدًّا من تناوله، وعقب تناوله استأذن الأمير في الخروج، فأذن له، فهرول مسرعًا إلى «الحراني» وحكى له ما حدث، وطلب منه أن يجد له حلًا في السم الذي سرى في جسده، فأشار عليه «الحراني» أن يتناول لبن الماعز، فأرسل «نصر» غلمانه ليبحثوا له عن اللبن، إلا أن المنية وافته قبل أن يحضروه له، وكان «نصر» هذا من الشخصيات التي فرح الناس بموتها، بل واستبشروا بخبر موته؛ أولًا: لعلمهم بما يحيكه مع «طروب» محظية الأمير، ثانيًا: لسوء سيرته وتعامله معهم.

لعل من أبرز المواقف التي توضح مدى تمكن «نصر الخصي» من أمور الدولة، وسيطرته عليها، هو محاولته المستمرة والدؤوبة في أن يُعزل الحاجب «عيسى بن شهيد»، وكان من أقرب المقربين للأمير والمقدّم على غيره من علية القوم في دولته، إلا أنه لم يتمكن من ذلك إلا عقب مرض الأمير هذا المرض الذي كان من نتيجته أن أصبح «الأوسط» طريح الفراش لا يدرى من حوله فضلًا عن أن يعلم بما يدور حوله، انتهز «نصر» هذه الفرصة وقام بعزل «عيسى بن شهيد» وولّى بدلًا عنه على خطة الحجابة «عبد الرحمن بن رستم»، وعندما شفي الأمير وحضر في مجلسه وجاءه رجال دولته، دخل عليه الوزراء يتقدمهم «عبد الرحمن بن رستم» وكان «عيسى بن شهيد» من جملة هؤلاء الوزراء، فانزعج الأمير من تقدم «عبد الرحمن بن رستم» على «عيسى بن شهيد»، وهنا سأل «عيسى بن شهيد» عن عمل كان من مهامه، فرد عليه عيسى: أن هذا من شأن الحاجب، وأنه ليس بحاجب؛ فعلم الأمير أن هذا الأمر أبرم بواسطة «نصر الخصي» فكظم غيظه وانتظر حتى خرج الوزراء جميعًا، واستدعى «نصر» وسأله بشأن عزل «عيسى» عن الحجابة، فلم يستطع الإنكار أنه هو القائم بذلك، إلا أنه أضاف أن الأمير أثناء مرضه أوصى بعزله، فكذبه وعنفه، وأغلظ له الحديث، ثم عفا عنه، وأعاد «عيسى بن شهيد» على الحجابة، وترك «عبد الرحمن بن رستم» في الوزارة، وظل «عيسى» حاجبًا ل «الأوسط» حتى توفي، ثم ولى الحجابة لابنه محمد من بعده مدة خمسة أعوام حيث توفي عام ٢٤٣ه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان من الأمور التي حدثت عقب وفاة «نصر الخصي» والتي توضح أن الدنيا لا تبقى على حال.. وأن دوام الحال من المحال..!! أن «عبد الرحمن الأوسط» أمر بإنزال «زرياب المغنى» في القصر الذي كان يمتلكه ويعيش فيه «نصر»، وفي هذا قال الشاعر «يحيى الغزَّال» يوضح تقلب الدنيا بأهلها:

ذكر الناس نصر لزرياب

وأهلُ لنيلها زرياب

هكذا قدر الإله وقد تجرى

بما لا تظنه الأسباب

أخرجوه منها إلى مسكن ليس

عليه إلا التراب حجاب

ليس معه من كل ما كان قد

جمع إلا ثلاثة أثواب

وتلاشى كل ذاك فَلَمَّا يبق

إلا ثوابه أو عقاب

وكذلك الزمان يحدث في

تصريفه الذل والبلا والخراب

ولعقل الفتى صحيح ولكن

حيرته الأوراق والأذهاب

وهنا لا يفوتنا أن نذكر أن قصر «نصر الخصي» كان من أفخم القصور في الأندلس لذلك كان يطلق عليه «منية نصر» تشبهًا ب «منية الرصافة» التي بناها «عبد الرحمن الداخل»، وذلك لأن «نصر الخصى» اعتنى به وبعمارته وتجهيزه أشد العناية حيث كان هذا القصر هو غايته ومناه، لذلك كان يصرف كل أمواله عليه حتى يظهر بهذا المظهر من الفخامة والأبهة، وكان دائمًا ما يقيم فيه حفلات السمر التي يحيطه بها أصحاب اللهو والمجون، وذلك على الرغم أن هذا القصر كان مشيدًا بالقرب من المقابر، لذلك نجد الشاعر الغزَّال وقد عبر عن استيائه من عدم أخذ العبرة ممن يفدون على المقابر المجاورة للقصر، ناهيك عن عدم احترام حرمة الموتى، حيث أنشد قائلًا: أي لاهيا في القصر قرب المقابر

يرى كل يوم وارِدا غير صادر
كأنك قد أيقنت أنك لست صائرا
غدا بينهم في بعض تلك الحفائر
تراهم فتَلهُو بالشراب وبعض ما
تلذ به من نقر تلك المزاهر
وما أنت بالمغبون عقلا ولا حجى
ولا بقليل العلم عند التخابر
وفي ذاك ما غناك عن كل واعظ
شفيق وما أغناك عن كل زاجر
وكم نعمة يعصي بها العبد ربه
وبلوي عدته عن ركوب الكبائر
سترحل عن هذا وإنك قدم
وما أنت في شك على غير عاذِر

الجدير بالذكر أن «نصر» هذا من أبناء الأحرار الذين أُحضروا إلى قصر الأمير «الحكم» والد الأمير «عبد الرحمن الأوسط» فأمر بإخصائهم حتى يتم استخدامهم في القصر لديه ولذلك اشتهر ب «نصر الخصي»، وكان أبوه يعرف ب «أبي الشمول»، وهو من أهل الذمة الذين كانوا قبل استقدامهم إلى قرطبة يستوطنون مدينة قرمونة، ونظرًا لتمكن «نصر» من الوصول لهذه المرتبة العالية لدى الأمير «عبد الرحمن الأوسط» فقد حاز دنيا عريضة وليس أدل على ذلك من قصره، وتقربه من محظية سيده، فضلًا عن مشاركته لرجال الدولة في تدبير شؤونها، هذه الدنيا العريضة التي حازها «نصر» نَعُم فيها أيضًا والده الذي مات عقب موت ابنه بأيام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حدث ما كانت تطمح إليه «طروب»، هذا الطموح الذي لقي بسببه «نصر الخصي» حتفه، ورُشح «عبد الله» ابنها لولاية العهد خلفًا لأبيه، ولكن نظرًا لأن «عبد الله» كان من طراز الشباب المستهتر الذي لا هم له سوى الاستمتاع ب الملذات والانهماك فيها فكر أصحاب العقل ممن في القصر أن يعدلوا عن ولاية «عبد الله» ويولوا بدلًا عنه أخاه «محمدًا»، لذلك بمجرد وفاة الأمير «عبد الرحمن الأوسط» اتفق من في القصر على توجيه أحدهم لإحضار

«محمد بن عبد الرحمن الأوسط» من قصره، فذهبوا وأحضروه على بغلة متخفيًا بثياب ابنته وكأنها جاءت لزيارة قصر جدها، وأثناء قدومه مر على قصر أخيه «عبد الله» فاستمع إلى ضجة يحدثها هو والندماء الذين يجتمعون عنده ويلهو معهم، وليس له خبر عن وفاة والده، فانشد محمد قائلًا: فهنيئًا له الذي هو فيه

والذي نحن فيه أيضًا هنانا

ثم دخل القصر على أخيه عقب محاولات مع الحارس الذي منعه من الدخول، وفور دخوله تكلم مع أخيه بحزم، ولم يختلف عليه أحد من جملة أقاربه، فضلًا عن رجال الدولة وأعيانها وعامتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان «محمد بن عبد الرحمن الأوسط» من المحبين للعلم المعظمين لأهله، وكان محبًا بشكل خاص لأهل الحديث، ومن المواقف التي توضح حبه للعلم وأهله أنه حدث عند عودة «بقي بن مخلد» أحد أعلام الأندلس آنذاك من إحدى رحلاته إلى المشرق أحضر معه كتابًا ل «أبي بكر بن أبي شيبة»، وهو كتاب في الحديث، وفتاوى الصحابة والتابعين، وقد أنكر أهل الرأي في الأندلس هذا الكتاب، بل واستشنعوا ما وجد فيه حتى إنهم منعوا من قراءته، كما أنهم جرّأوا العامة على «بقي بن مخلد» موضحين لهم أن في هذا الكتاب الذي أحضره معه من المشرق مسائل منكرة لا تصح في حق الصحابة، فانقلب الناس على «بقي بن مخلد»، وبمجرد أن سمع الأمير «محمد» بالأمر، أمر رجاله بإحضار «بقي بن مخلد» ومعه الكتاب، إضافة إلى أمره بإحضار من قاموا بالاعتراض واستنكار ما احتواه هذا الكتاب بين دفتيه، وعندما حضر الجميع أخذ الأمير الكتاب وتصفحه جزءًا جزءًا، حتى وصل إلى آخره، وقد ظن الموجودون في المجلس أنه يوافقهم الرأي في الاعتراض على ما فيه، إلا أنه بمجرد الانتهاء من تصفحه، طلب حضور خازن الكتب، وأمره بوضع هذا الكتاب في المكتبة، كما أمره بانتساخ نسخه شخصية له منه، موضحًا له أنّ مثل هذا الكتاب لا ينبغي أن تخلو منه مكتبته، ثم وجه كلامه ل «بقي بن مخلد»، مبلغًا له أن يقوم بنشر علمه، وأن يجلس للحديث إلى الناس حيث أراد ومنع أن يتعرض له أحد حيثما حل وحَدّث.

هذا لا يمنع من ذكر أن «محمد بن عبد الرحمن الأوسط» عندما تسلم مقاليد الأمور في الدولة تركها بيد أحد أعظم وزرائه آنذاك ويدعى «هاشم بن عبد العزيز»، وكان من الرجال الذين حازوا الرياسة، فعظم قدره لدى الأمير «محمد»، فقدّمه على جميع رجاله، وجعله من أخصّ وزرائه بل على قمتهم، وكان من سمات هذا الوزير الشخصية أنه كان دائم اللجوء إلى حياكة المكائد والدسائس، ناهيك عن استغلاله الخصومات بين العباد فيؤججها في سبيل

الوصول إلى مبتغاه، وخدمة مصالحه والكرسي الذي يجلس عليه، وكان من الوزراء المستبدين، الحقودين الذين لا يهمهم سوى السلطة والجاه ومصالحهم، مما أدى إلى إساءته استخدام سلطاته في الدولة فضلًا عن سوء أخلاقه التي كرهته إلى الجميع حتى من هم تحت إمرته، وقد حدث أن خرج ذات مرة إلى غرب الأندلس للقيام بقمع ثورة قامت هناك، فأساء وضع الخطط، ناهيك عن سوء معاملته مع الجند مما أدى إلى قيام الجند بتسليمه للثوار فأخذ أسيرًا، ثم قام الأمير «محمد» بفدائه بأموال عظيمة.

كما حدث أن أرسله الأمير «محمد» مع ابنه المنذر إلى ثغر سرقسطة، فأساء الأدب مع المنذر مما أدى إلى كرهه له وحقده عليه، لذلك عندما تولى المنذر أمور الدولة عقب وفاة والده عام ٢٧٣ه/٨٨٦م، كان همه الأول وإن شئت فقل الأوحد آنذاك هو الانتقام من هذا الوزير، لذلك أمر رجاله أن يقبضوا عليه، ففعلوا وقيدوه بالحديد، ثم سجن وأذاقه ألوان وأشد أنواع العذاب، وذلك بعد أن ذكّره بما اقترفه معه من سوء أدب وتقليل شأن، وفي النهاية أخذه المنذر إلى دار كان الوزير «هاشم» قد بناها على أشد ما تكون من فخامة وأبهه، وكان يعلق عليها كل أمانيه وأماله، فقام المنذر بقتله فيها، ثم فتك بأولاده ولم يراعِ حرمة لأيٍّ من أهله أو ممن يمتُّون إليه بصلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رأينا بما ابتدأ به «عبد الرحمن الأوسط» إمارته من معانٍ، قام بها خير قيام، ولم يجِد عنها قيد أنملة، حيث وعد شعبه ووفي له بوعده، لذلك نجد ابن عذاري يصف عهده قائلًا: «كانت له من غزوات كثيرة، وفتوحات في دار العدو شهيرة، يخرج إليها في العدد الجم، والعسكر الضخم، يخرب ديارهم، ويعفي آثارهم، ويقفل ظاهر الاعتلاء، قاهر الأعداء، لم يلق المسلمون منه بؤسًا، ولم يروا في مدته يومًا عبوسًا»، وعلى الصعيد الآخر وصف عهده ب «تملى الناس – أصابهم الملل - معه العيش، وخلا هو بلذاته، وطال عمره وفشا نسله»، وعلى الرغم من ذلك وصف ب «ولم يشغله النعيم عن وصل البعوث إلى دار المغرب».

هذه الأوصاف التي وصف بها «عبد الرحمن الأوسط» وعصره، لا تحمل بين طياتها التناقض بقدر ما تحمل تاريخًا بشريًّا سطرته يد البشر، ولم تسطره أيدي الملائكة، لذلك يظل لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وفي النهاية حسابنا وحسابهم على ربّ العزة جلّ وعلا.

توفي «الأمير عبد الرحمن الأوسط» عام ٢٣٨ه/٨٥٦م، وكان عمره آنذاك اثنان وستون سنة، هذا يعنى أن خلافته دامت إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وستة أيام، ومما روي عنه أنه احتجب عن الناس قبل وفاته بثلاث سنوات وذلك بسبب مرض أصابه فمنعه الحركة، وحدث أن تاقت نفسه إلى الخروج

من مجلسه ورؤية الدنيا ولو من فوق سطح قصره، فسأل غلمانه وعلى رأسهم فتى يدعى «سعدون» اختصه عقب وفاة «نصر الخصي»، أن يجد سبيلًا لتحقيق رغبته، حيث قال له: «يا بني، لقد اشتقت أن أعاين ضوء الدنيا، وفسحة الأرض، إذ قد حُمِيتُ عن الخروج إليها، فلعلني أعلو مرقبة يسافر بصري فيها، فأتسلى بالنظر إلى بسيطها، وجسمي منزع، فهل سبيل إلى لذلك؟!» فأجابه غلمانه بالإيجاب، وجهزوا سريرًا أجلسوه عليه، ثم حملوه على أعناقهم إلى أحد قمم القصر، وجلسوا معه في هذه القمة يتبادلون معه أطايب الحديث منذ بدء النهار حتى المساء، وعندما حل المساء استأذنوه أن يقوموا بإنزاله إلى مجلسه حتى يستريح، وأثناء ذلك وقع بصره من بعيد على قطيع من الأغنام إلا أنه لم يلحظ راعيها، فسأل غلمانه أين راعي هذه الأغنام ولماذا يترك أغنامه هكذا مهملة دون رعاية وحماية؟!، فردوا عليه أن رعيها هنالك جالس إلى جوارها مستريح وهو يتأملها..!!، وهنا أخذ نفسًا عميقًا، وامتلأت عيناه بالدموع قائلًا لهم: «وددت والله أن أكون مكان ذلك الراعي ولا أنشب فيما نشب من الدنيا، ولا أتقلد من أمور الناس ما تقلدتُ».

الجدير بالذكر أن «عبد الرحمن الأوسط» كان دائم الاستلطاف لغلمانه والرفق بهم، والتبسط معهم، حتى إنه لم يكن ينادى أيا منهم إلا بقوله «يا بني»، ولعل هذا ما يفسر سبب حب فتيانه له، واقتدائهم به، فكم من الحكام كانوا يملكون من الفتيان والجواري ما لا يعد ولا يُحصى، ولكن كم منهم اقتدى بسيده في التوجه إلى أعمال البر والخير، وعلى الصعيد الآخر كم منهم اقتدى بأسياده في أعمال اللهو والمجون؟..!!.

عبد الرحمن الناصر

(ملك ملوك العالم)

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط، كنيته أبو المطرف، لقبه الناصر لدين الله، أمه أم ولد تدعى مُزنة، تولى الإمارة عام ٣٠٠هـ/٩١٣م خلفًا لجده عبد الله، وكان أبوه محمد هو المرشح للإمارة خلفًا لأبيه، ولكن أخاه المطرف قتله كُرهًا وحقدًا عليه، وكان مقتل أبيه عام ٢٧٧هـ/٨٩١م عقب مولده بواحد وعشرين يومًا.

كان جده عبد الله يدنيه منه ويقربه ويفضله على بنيه، فلم يكن يفارقه أبدًا، خاصة بعد وفاة أبيه محمد - والد عبد الرحمن الناصر- الذي دام أخوه المطرف شكايته لأبيه، مما اضطر إلى هرب محمد إلى بربشتر المتغلب عليها عمر بن حفصون، ثم استأمنه أباه، فرجع، إلا أن المطرف لم ينفك يسعى إلى أبيه بشكايته حتى حبسه أبوه في بعض حجر القصر، وخرج لبعض غزواته، واستخلف ابنه المطرف على قصره، وهنا قام المطرف بقتل أخيه

محمد في محبسه، وعندما رجع الأمير عبد الله من غزوته وعلم بمقتل ابنه محمد حزن لذلك حزنًا شديدًا، فأخذ الأمير عبد الله حفيده عبد الرحمن وأسكنه معه في قصره، وكان في الأعياد والأيام المشهودة يجلسه معه على سرير ملكه، فيسلم عليه الجند ورجال الدولة كما يسلمون على جده، فتعلقت به آمال رجال الدولة، لذلك بمجرد وفاة جده بايعوه بالخلافة دون أعمامه وأعمام أبيه، بل كان أعمامه وأعمام أبيه أول المبايعين له، وقيل: إن جده عبد الله ألقى له بخاتمه إشارة منه على استخلافه من بعده، وقد علق ابن خلدون على ولاية عبد الرحمن متعجبًا حيث قال: «وكانت ولايته من الغريب لأنه كان شابًا وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى إليها وحازها دونهم».

حدث في اليوم الذي بويع فيه الأمير عبد الرحمن خلفًا لجده أن قام على الفور بإصدار قرار يقضي بحبس «موسى بن زياد» الذي كان يتولى الوزارة لجده، وذلك لأنه كان دائم التكبر والغطرسة على الناس وتكليفهم ما لا يطيقون من جهة، ولأنه كان يبغض عبد الرحمن من جهة أخرى حتى أنه كان يدسّ له عند جده جهرًا، فحبسه عبد الرحمن يوم بيعته، وظل محبوسًا إلى أن مات عام ٣٠٧ه/٩٢٠م.

هنا لا بد من الإشارة إلى حقيقة مفادها: يكاد يكون أغلب الحكام على مر الأزمان والعصور المتعاقبة مشتركين في نقطة بعينها، وهي أنهم على الرغم من تميز الكثير منهم بالحكمة والعفو عند المقدرة، إلا أنهم في حالة تجرؤ أحد عليهم مما قد يؤدى إلى اضطراب دولتهم أو بالأحرى زعزعة مكانتهم وسلطتهم، توجهوا على الفور إلى كسر مخالب القائم بذلك أيًا كان مقدار قرابته، ولم يختلف عنهم في ذلك الأمير عبد الرحمن؛ مع ذلك هذا لا يمنع أننا نستفيد معنى بعينه وهو أنه على الرغم من اتفاق رجال الدولة وأعيانها بل وأعمام الأمير عبد الرحمن وأهل بيته عليه وجده من قبلهم لما كان يظهر عليه من علامات الفطنة والنجابة، إلا أن هذا الرجل كان يبغضه ولا يرغب في توليه الإمارة، وهذا يوضح جليّا أنه مهما ظهر لك أن الجميع يتفقون عليك ويحبونك لا بد وأن هناك شخصًا ما سيتصيد لك الأخطاء خاصة إذا ما كنت من الأشخاص الذين يسيرون دومًا في طريق النجاح.

خذها قاعدة

امضِ في طريقك، ولا تلتفت..!!

عندما تسلم عبد الرحمن أمور الأندلس كانت البلاد تموج بوابل من الصراعات والفتن، إلا أنه استطاع بحكمته وحسن تدبيره أن يجعل من بلاد الأندلس دولة قوية الجانب فاقت بحضارتها وازدهارها كل الدول آنذاك، بل

وأصبحت أحد المعابر الرئيسة لعبور الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربي، لذلك نجد ابن عذاري يتحدث عنه قائلًا: «ولي الأندلس جمرة تحتدم، ونار تضطرم، فأخمد نيرانها، وسكن زلازلها، وغزا غزوات كثيرة، وكان يشبّه ب عبد الرحمن الداخل».

خرج عبد الرحمن في عام ولايته ٣٠٠هـ/٩١٣م على رأس جيشه لغزو معاقل مدينة جيان وكانت هذه أول غزواته، فقهر الأعداء وافتتح الحصون بعد أن أخذ بأسباب العدة والعتاد، ثم استصلح جيان وما ولاها، وقفل عائدا إلى قرطبة عقب قضاء اثنين وسبعين يومًا في غزوته تلك، كما خرج في العام التالي ٣٠١هـ/٩١٤م إلى كورة رية والجزيرة وقرمونة ، وتنقل في هذه الغزوة بالمعاقل التابعة لابن حفصون فأسقطها الواحدة تلو الأخرى كما أوقع بابن حفصون ومن انضم له من النصارى في معركة هلك فيها الكثير منهم، ثم بعث برؤوسهم إلى قرطبة، فتسابق كل من في هذه النواحي والمعاقل للدخول في طاعته والانضواء تحت لوائه هربًا من الهلاك، فقبلهم الأمير وأمنهم؛ ثم انتقل إلى كورة شذونة ومنها إلى كورة مورور، ثم مدينة قرمونة، فحاصرها عشرين يومًا مما ألجأ أهلها إلى طلب الأمان فأمنهم، ثم قفل عائدًا منتصرًا إلى قرطبة.

وحدث في عام ٣٠٢هـ/٩١٥م أن ولد للأمير عبد الرحمن ابنه «الحكم»، ووافق ذلك حدوث قحط شديد عمّ كافة أرجاء الأندلس، وغلت الأسعار في كل الجهات، وفي العام الذي يليه ٣٠٣هـ/٩١٦م بلغت المجاعة مبلغها، مما أدى إلى وقوع الوباء وتفشيه في الناس، وحصد الموت الكثير حتى كاد يعجز الناس عن دفن بعضهم بعضًا.

كما غزا الأمير عبد الرحمن بنفسه عام ٣٠٦هـ/٩١٩م مدينة «بلدة» وهي أحد أعمال رية، وترك ابنه «الحكم» خلفًا له ونائبًا عنه في قرطبة، فتوجه إلى حصن دوش أمانتش بعد أن بث رجاله في الأنحاء لاختبار أحوالها ومعرفة موضع الاضطراب بها، وعقب هذه التدابير افتتح الحصن، ثم توجه إلى «بلدة» وحاصرها المسلمون من كافة أركانها، واقتحموها فخرج إليهم من كان بها من المسلمين بأمتعتهم وذراريهم، ولجأوا من فورهم إلى الأمير عبد الرحمن يذكرون له أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم في سلوك مسلك الخضوع للعدو وطلبوا منه الأمان، فأمنهم، ثم توجه لقتال النصارى فقضى عليهم جميعًا ودانت له المدينة، ثم توجه من فوره إلى حصون رية، يتنقل من حصن إلى آخر، فاتحًا ظافرًا، حتى انتهى به المطاف إلى النزول على حصن بربشتر الذي أضحى في يد جعفر بن عمر بن حفصون عقب قتل والده عمر بن حفصون، فحاصره ومنع وصول الإمدادات إليه حتى بلغ من أهله الجهد والعناء، فلم يجد جعفر بن عمر بن حفصون بُدّا من النزول على طاعة الأمير

عبد الرحمن، وبعدها قفل الأمير عائدًا إلى قرطبة كعادته تعلوه راية النصر والظفر وكان رجوعه في عام ٣٠٧ه/٩٢٠م.

الجدير بالذكر أنه كان من أبناء ابن حفصون اثنان أحدهما يُدعى جعفر والآخر عبد الرحمن؛ الأول: اختار أن يسلك مسلك أبيه في الخروج عن الطاعة ونشر القلاقل والفتن في ربوع الأندلس، وتأليب الناس على الدولة ورجالها، ولكن لم يكن هذا الابن في حنكة ودهاء أبيه، لأن الصورة دومًا ليست كالأصل..!!، لذلك لم يجد بُدا من الخضوع للأمير عبد الرحمن والدخول في طاعته كما أوضحنا أعلاه؛ أما الثاني: فلم يُشبه أباه ولا أخاه، فاشتهر أنه كان مسالمًا لا عناية له إلا بالكتب، على الرغم مما اتصف به من ضعف العقل والإدراك، لذلك توجه على الفور عقب وفاة والده للدخول في طاعة الأمير عبد الرحمن، فسلم حصن طرش الذي كان تحت يده لرجال الأمير، ثم توجه إلى قرطبة فاستقبله الأمير وأكرمه، وذلك لعلمه أنه لم يكن داخلًا في الحروب والفتن والخروج عن الطاعة مدخل أبيه وأخيه جعفر، واتصف «عبد الرحمن بن عمر بن حفصون» هذا إضافة إلى عنايته بالكتب، بحسن الخط، وهذه المهارة خوّلت له فيما بعد أن يستغلها ويمتهن مهنة الوراقة([15]).

هنا نلاحظ أن الأمير عبد الرحمن بما تمتع به من أخلاق ورقي لم يسلك مسلك الكثير من الحكام الذين يقومون بحرق الأخضر واليابس وأخذ الصالح بالطالح والانتقام ممن ارتكب الذنب ومن لا ذنب له لمجرد أنه يمت لصاحب الذنب بصلة، هذه الأخلاق التي انطوت عليها نفس الأمير عبد الرحمن منعته من الانتقام من عبد الرحمن بن عمر بن حفصون وإذلاله وإذاقته ألوان وصنوف العذاب وأخذه بما فعله أبوه، بل استقبله وأكرم وفادته، وذلك لعلمه أنه لا دخل له بفعل أبيه وأخيه، بل الأكثر من ذلك أنه عفا عن أخيه جعفر على الرغم من سلوكه مسلك أبيه سواء في حياته أم بعد مماته.

صدق شوقي

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن ذهبت أخلاقهم ذهبوا

لو انتقلنا بكاميرتنا من الماضي إلى الحاضر سنجد أن الحاضر على الرغم من حداثة الكاميرات الخاصة به والتي تظهر الصورة بأفضل هيئة وأجمل حُلة إلا أننا نجد هذه الصورة قاتمة لا تحمل من البياض والوضوح قدر ذرّة مما حملته صورة الكاميرا التي كانت تستخدم في هذا الماضي البعيد، كاميرا زماننا تظهر لنا أنه بمجرد خروج شخص عن الطاعة أو حتى تفوهه بكلمة تحمل غير معناها كما يتصورها متلقيها، هذا كفيل بأن يذوق ذووه وكل من يمت له بصله صنوف وضروب العذاب ويدخلون في غياهب لا يعلم بحالها إلا الله حتى وإن

كان هؤلاء الأهل والأقارب لا صلة لهم بما يحدث لا من قريب ولا من بعيد، ولكن من يمكن له أن يصدق في ذلك وإن أقسم على المياه فجمدت..!!.

كذلك حدث في عام ٣٠٨هـ/٩٢١م أن خرج الأمير عبد الرحمن في بلاد الأندلس غازيًا فسقطت في يده الحصون المنيعة، وقتل وسبى الكثير، ولم يزل يتنقل في هذه الغزوة من منطقة إلى أخرى يفتح الحصون ويقتل ويسبى حتى هُزم النصارى شر هزيمة، ولم يجدوا في ظل هذا البطش الذي أذاقه لهم المسلمون سبيلًا غير التحصن في الجبال، والتخفي بين الشعاب، وحاز المسلمون في هذه الغزوة من الغنائم كما يروي ابن عذاري أمثال الجبال، وأثناء تجول المسلمون في هذه المناطق وقيامهم بقتل العدو وسبيه آمن الناس على أنفسهم وذويهم وأموالهم، فتوجهوا على الفور للعناية والاهتمام بأراضيهم ومعاشهم، خاصة القرويين الذين انشغلوا في مزارعهم يملؤهم الفخر والعزة والشجاعة هذه المعاني التي صدرها لهم الأمير عبد الرحمن بفعله قبل قوله، وذلك عقب سنوات قضوها يتقلبون في ذلهم وهوانهم على الناس، فسكنوا مزارعهم يزرعونها ويعتنون بها وفي نفس الوقت إذا ما لاح لهم نصراني من بعيد هبُّوا على الفور لقتله.

أيضًا توجه الأمير عبد الرحمن في نفس العام المذكور تاركًا ابنه الحكم خلفًا ونائبًا عنه، واحتشد له في هذه الغزوة الرجال من سائر أقطار الأندلس وجميع جهاتها، وابتدأ غزوته بالنزول على طليطلة فخرج له على الفور صاحبها ويدعى لب بن الطربيشة مبادرًا لمشاركته في الغزو، وكان هذا الرجل يظهر الطاعة والانصياع المغلف بالمعصية والشقاق، ثم تنقل الأمير عبد الرحمن من منطقة إلى أخرى حتى وصل مدينة الفرج وعزل منها بني سالم الذين كانوا يحكمونها وذلك لشكه في تواطئهم مع العدو، وولى على المدينة بدلًا منهم سعيد بن المنذر، وعقب انتصار المسلمين وتفرق المشركين في الجبال والشعاب تنقل عبد الرحمن في هذه المناطق التي فتحها ينظر في مصالح أهلها، وكلما وجد في طريقه معقلًا من معاقل المشركين قام بهدمه وحرق ما فيه، حتى قيل إن الحريق اتصل في هذه المناطق على بعد عشرة أميال، واجتمع للمسلمين من جراء هذه الغزوة الكثير من الخيرات والأطعمة، حتى عجز الناس عن حملها، ولم يجدوا لها ثمنًا يبيعونها به، بل لم يجدوا من يشتريها، مما أدى إلى جمع هذه الأطعمة وحرقها؛ كما قام الأمير عبد الرحمن بإرسال رؤوس المشركين إلى قرطبة، حتى قيل إنها من كثرتها وعظمها عجزت الدواب عن حملها، وكان هدفه من هذه الفعلة هو بث الرعب في قلوب من بقي من أعدائه حتى لا يتجرأوا عليه وعلى دولته، ثم قفل عائدًا إلى قرطبة عقب ٩٠ يومًا قضاها في هذه الغزوة.

كما خرج الأمير عبد الرحمن في عام ٣١٠هـ/٩٢٣م لغزو حصن «منت روي»، وكان جبلًا منيعًا به الكثير من النصارى الذين التجأوا إليه عقب استيلاء المسلمين على حصونهم الواحد تلو الآخر، ويقع هذا الجبل بين مدينتي البيرة وجيان على الطريق المؤدية إلى بجانة، فلا يمر أحد في هذه الطريق ذهابًا أو إيابًا إلا تعرض له قاطنوه من النصارى الفارين وسلبوه ما يملك من مال وعتاد وهذا بالطبع عقب قتله، فظل الأمير عبد الرحمن محاصرًا لهم في هذا الجبل خمسة وثلاثين يومًا لا يدخل لهم داخل ولا يخرج منهم خارج، وكان خلال هذه المدة ينتهز الفرص لقتل من تقع عليه يده منهم حتى يبث الرعب في قلوبهم فتخور عزيمتهم وتضعف روحهم المعنوية، وبعد مرور أيام على محاصرة هذا الحصن ترك الأمير عبد الرحمن البعض من رجاله لاستمرار الحصار إلى حين استسلام من فيه، وتوجه هو مع البعض الآخر إلى حصون البيرة فضيق عليها جميعًا حتى بلغ من أهلها الجهد، ثم عرج منها إلى ريه ثم نزل بحصن بربشتر وحارب أهله أشد محاربة، وضيق عليهم الخناق تاركًا لمحاصرتهم بعضًا من أكابر القواد، ثم توجه نحو مدينة تدعى «تاكرنا» فاستصلح أحوال أهلها، واستوثق من طاعتهم له وانضوائهم تحت لوائه، ونقل معه إلى قرطبة بعضًا من وجهاء القوم بها، للاستفادة منهم في إدارة شؤون الدولة، وأثناء عودته قاصدًا قرطبة توقف للنظر في أمور مدينتي إشبيلية وقرمونة ومعرفة أوضاعهما وأحوال الرعايا بهما، وعقب إحكامه جميع الأمور السابقة التي استغرق استحكامها خمسة وثمانين يومًا عاد إلى قرطبة.

كذلك حدث في أحد غزوات الأمير عبد الرحمن إلى البيرة وجيان أن تاقت نفسه لرؤية ابنه الحكم، كما تاقت نفس الأمير عبد الرحمن الأوسط لجاريته طروب، ولكن الناصر بخلاف الأوسط لم يكن له أن يترك جيشه بعد أن يستخلف أحد رجاله ويتوجه مهرولًا لما تاقت إليه نفسه، إنما أرسل في طلب ابنه الحكم وكان آنذاك يبلغ من العمر عشرة أعوام وثمانية أشهر، واستخلف على قرطبة أخاه عبد العزيز.

نلحظ مما سبق ذكره من غزوات قادها الأمير عبد الرحمن أنه لم يكن حاكمًا متهورًا أو من طراز الحكام الذين يلهثون خلف مجد أو شهرة وإلا اكتفَى بالفتح والظفر وغرس سيفه في رقاب أعدائه دون النظر في أحوال رعيته، ولكن كان الأمير عبد الرحمن على العكس من ذلك حيث كانت غزواته لا تشغله البتة عن النظر في أمور رعيته، فنجده أثناء غزواته ووسط انشغاله بمحاصرة الحصون لإخضاع أهلها وإنزالهم على الطاعة، لا ينفك ينظر في أمور الرعية بإصلاح أحوالهم، وتأمينهم، وقطع المخاوف عنهم، وكان ينظر بنفسه في هذه الأمور لا يقوم بإسنادها إلى من يرافقه من كبار رجال الدولة وقوادها.

ما سبق ذكره من غزوات وحروب قادها الأمير عبد الرحمن لا يعنى أن قيادة هذه الغزوات وتلك الحروب كانت حكرًا عليه بحكم حبه وشغفه بالجهاد، وإنما كان لكبار رجال دولته نصيبٌ من هذا الغزو؛ حيث خرج في عام ٣١٤هـ/٩٢٧م الوزير عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الذي يحكمه بنو ذي النون وذلك عقب علم الأمير عبد الرحمن بخروجهم عن الطاعة، فتمكن منهم الوزير وقتل من استحق القتل منهم وأمّن الباقي على أنفسهم وما يمتلكون عقب قبولهم بالطاعة، ثم شرع في إصلاح أحوال الثغر وأثناء ذلك بعث له الأمير عبد الرحمن يحثه على التوجه إلى حصن بربشتر لمحاصرة سليمان بن عمر بن حفصون، فامتثل الوزير لأمره وتوجه من فوره نحو حصن بربشتر، وأثناء محاصرة جيش المسلمين للحصن حدث أن خرج سليمان بن عمر بن حفصون ممتطيًا فرسه لكبح جماح بعض من جنوده الخارجين عليه في معسكره، فانتهز جنود الوزير الفرصة وحاصروه، وأثناء محاولته الهرب صرع فرسه فسقط سليمان من فوقه، فقام أحد رجال الجيش ويُدعى سعيد بن يعلى العريف بحز رأسه وقطع يديه ورجليه، وأرسل رأسه وجسده ويديه إلى قرطبة، فعُلِّقَ كل عضو منها على خشبة عند باب السدة، ففرح المسلمون لذلك أيما فرح، وقد كان هذا العام عام قحط خرج فيه الخطيب أحمد بن بقي بالناس مرارًا طلبًا للاستسقاء ولكن لم يستسقوا، وحدث أنه في اليوم الذي جُلب فيه سليمان بن عمر بن حفصون إلى قرطبة وأثناء تعليق أعضائه على الخشب هطل المطر، ففرح الناس واستبشروا بذلك النصر، وسطر الشعراء في ذلك أشعارًا كثيرة منها: سحاب يمور الغيث فيها وديمة

دماء العدا تهمي بها وتفور

غياثان فينا واكفان من الحيا

ولكن ذا رجس وذاك طهور

وذاك نجيع ليس يقبله الثرى

وذا ناجع يسري به يغور

تدنست الدنيا به فتطهر

بطون لها من رجسه وظهور

كما حدث أن خرج القائد أحمد بن أبي عبدة غازيًا لبلاد النصارى، وحشد معه جمعًا عظيمًامن مختلف طبقات المجتمع العامة والخاصة سواء، وانضم إليه عقب وصوله إلى أرض العدو أهل الثغور، وهم الذين يحمون الثغور التي قد يُؤتى من قبلها المسلمون ومن ثم ينهزمون، فدخل أرض النصارى بهذا الجمع الغفير، ونازلهم، وأوشك جيش المسلمين على الظفر لولا قدوم المدد

للنصارى من جهة، وخور عزيمة أهل الثغور وإظهارهم الهزيمة من جهة أخرى، مما أدّى إلى هزيمة المسلمين وقتل القائد أحمد بن أبي عبدة، فآثر البعض منهم الشهادة على الفرار من أرض الجهاد، بينما فرّ البعض الآخر ناجيًا بنفسه.

تذكر

كلنا يقف على ثغرة من ثغور الإسلام فكن أعز نفسًا من أن يُؤتى الإسلام عن طريق الثغرة التي تقف عليها، فيطعن في الإسلام بسبب فعلك..!!

كانت هذه الحادثة سالفة الذكر سببًا في إصابة المسلمين بالهمّ والغم، إلا أن ربنا جل وعلا أَبَى إلا إسعادهم ورفع روحهم المعنوية، وذلك بهلاك عمر بن حفصون مدعي الإسلام ومبطن النصرانية، والذي أشعل نيران الفتنة في الأندلس لسنوات عديدة، فاعتبر الناس هلاكه بشرى من تباشير اليمن والفرح وانقطاع المكروه عن بلاد الإسلام.

على الرغم من كثرة الثوار الذين ظهروا في الأندلس وناصبوا الولاة ومن بعدهم حكام بني أمية العداء وكبدوهم العناء، إلا أنه يظل عمر بن حفصون من أعتى هؤلاء الثوار، وذلك لأنه بلغ من بذر بذور الشقاق وغرس الفتن ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده، لذلك نجد ابن عذاري يصفه قائلًا: «الذي أعيا الخلفاء أمره، وطالت في الدنيا فتنته، وعظم شره».

بدأ ابن حفصون سعيه في الشقاق وغرس الفتن في أرض الأندلس منذ عام ٨٨١/٢٦٧هـ زمن إمارة محمد بن عبد الرحمن الأوسط، حيث استوطن حصن بربشتر وهو أمنع قلاع الأندلس آنذاك قاطبة، ومن هنا بدأ حركته التخريبية.

حدث أن استطاع الوزير هاشم بن عبد العزيز([16]) وزير الأمير محمد محاربة ابن حفصون في حصن بربشتر من كورة رية، وهزمه وقدم به إلى قرطبة، فأكرمه الأمير محمد ولم يتخذ أي إجراء ضده، ولعل السبب في ذلك أن ابن حفصون كان حديث الظهور فلم تكن حركته التخريبية قد وضحت معالمها بعد، فعفا الأمير محمد عنه آنذاك باعتباره مسلمًا خارجًا على الدولة، وأسكنه قرطبة حتى يظل أمام عينيه ولا يستطيع القيام بأي فعل يجلب الضرر للبلاد والعباد، ولكن أتت الأقدار بما لم تتخيله العقول، أو بالأحرى أتت الأقدار بما لم يتوقعه الأمير محمد الذي آثر العفو عن ابن حفصون.

ما لبث عمر بن حفصون أن هرب من قرطبة وتوجه مرة أخرى نحو حصن بربشتر، وتحصن به، وعزم في هذه المرة أن يقيم لنفسه ملكًا ودولة، وبالفعل تمكن من ذلك حتى إن الأمير محمدًا لم يجد بُدا من تركه، لعدم قدرته على التغلب عليه، واستمرت دولة ابن حفصون في ظهور وعزة، ولم

يستطع المسلمون التخلص منه ومن شروره التي غرسها في بقاع الأندلس إلا في زمن الأمير عبد الرحمن - الناصر-.

علم ابن حفصون بخبر وفاة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وانصراف ابنه المنذر الذي حضر لمحاربته إلى قرطبة عقب سماعه بخبر وفاة والده، فانتهز ابن حفصون هذه الفرصة فراسل الحصون المجاورة له ودعاها للدخول في طاعته، فأجابته إلى طلبه ودخلت من فورها في طاعته، كما أنه توجه نحو باغة وجبل شيبة وحاز منهما من الأموال والخيرات ما لا يوصف فضلًا عن أن يعد أو يحصى، وذلك على الرغم من افتقاره آنذاك للعتاد والعدة، لذلك نجد ابن عذاري يصف هذا المشهد قائلًا: «فأخذ من الأموال ما لا يوصف، كل ذلك منه بلا قوة، ولا كثرة من مال، ولا عدد، ولكنه كان عذابًا من الله ونقمة انتقم بها من عبيده»، بل نجد ابن عذاري يرجع سبب ظفر ابن حفصون وقدرته على نشر الشقاق والفتن في ربوع الأندلس إلى القلوب القاسية والفاسدة التي وجدت في هذا الزمان، فنجده يقول: «واتفق له زمان هرج، وقلوب قاسية وفاسدة، ونفوس خبيثة متطلعة إلى الشر، مشرئبة إلى الفتنة، فلما ثار وجد من الناس انقيادًا، وقبولًا للمشاركة والموافقة، فتألبت له الدنيا».

صدق الشاعر

نعيب زماننا والعيب فينا

وما لزماننا عيب سوانا

نهجو ذا الزمان بغير ذنب

ولو نطق الزمان لنا هجانا

وصدق القائل

كل قصة استعمار سبقتها قصة شعب قابل للاستعمار.. (مالك بن نبي)

كان ابن حفصون يستميل الناس إليه بدعوته لهم قائلًا: «طال ما عنّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحمَّلكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب، واستعبدتكم»، وبعد بثه في آذانهم؛ بل إن شئت فقل في قلوبهم هذه السموم التي تحوي من الفتن وشق الصفوف ما لا يخفي على فطن، يتجه إلى أن يمنيهم قائلًا: «وإنما أريد أن أقوم بثأركم، وأخرجكم من عبوديتكم»، فلم يدعو أحدًا إلى ذلك إلا أجابه بالطاعة والخضوع له ولحركته، فاتبعه كما يقول المؤرخون «شطار الناس وشرارهم».

كما قام الأمير عبد الرحمن بغزو حصن بربشتر الذي تغلب عليه حفص بن عمر بن حفصون بعد مقتل والده، وخرج معه في هذه الغزوة ابنه الحكم وكان يبلغ من العمر آنذاك اثني عشرة سنة، فاشتد المسلمون في محاصرة الحصن، ولكن الأمير عبد الرحمن كعادته لم يقوَ على البقاء في المحاصرة دون أن ينجز شيئًا، لذلك نجده قد ترك أغلب رجاله لاستمرار الحصار والتضييق على الأعداء إلى حين استسلام من في الحصن، وتوجه هو لفتح الحصون والقلاع المجاورة، فافتتح مدينة الحنش وطهرها من الأعداء والفتن، ثم توجه إلى مالقة وشدد عليها الحصار وترك عليها عبد الملك بن العاصي وأمره بحمل السيف على كل داخل إلى المدينة وخارج منها إحكامًا للحصار، وعاد الأمير عبد الرحمن إلى بربشتر التي لا زالت تعيش تحت وطأة الحصار، وأقام بها سبعة أيام أشرف خلالها على أبراج المراقبة التي أمر ببنائها لتشديد الحصار والتضييق على من في الحصن، ثم قفل عائدًا إلى قرطبة تاركًا رجاله وقواده في محاصرتها.

وعندما اشتد الحصار على حفص بن عمر بن حفصون خاصة بعد إصدار الأمير عبد الرحمن أمره ببناء أبراج المراقبة حوله من كل جهة مما أدى إلى تضييق الخناق عليه، أيقن أنه هالك لا محالة، لذلك كتب إلى الأمير عبد الرحمن يطلب منه الأمان والصفح عنه في مقابل أن يسلم نفسه ويرضى بحكمه فيه، فأرسل الأمير عبد الرحمن وزيره ابن حدير وأمره أن يتشارك مع الوزير سعيد بن المنذر الذي يقود الجيش المحاصر ل حصن بربشتر في إنزال حفص بن عمر بن حفصون ومن معه من النصارى من الجبل، ثم يقوم ابن حدير بإحضار حفص ومن معه من النصارى والعودة بهم إلى قرطبة للمثول أمامه، فقام الوزير ابن حدير بإنجاز المهمة التي كُلف بها وعاد إلى قرطبة، بينما بقى سعيد ابن المنذر في المدينة لاستصلاح شؤونها وبناء ما أمره الأمير عبد الرحمن ببنائه من قلاع وحصون حتي يستطيع إحكام قبضته على هذه المنطقة وعدم خروجها عن الطاعة مرة أخرى، أما حفص بن حفصون ومن معه من النصارى فعند وصولهم إلى قرطبة أمَّنهم الأمير عبد الرحمن وأكرمهم، بل وجعل حفصًا من جملة حشمه ورجاله.

على الرغم من فتح حصن بربشتر ودخولها في طاعة المسلمين، إلا أننا نجد الأمير عبد الرحمن في العام التالي لفتحها وهو عام ٣١٦ه/٩٢٩م يتوجه إليها للنظر في شؤونها وضبط أحوالها، فجال في أقطارها، ووجد من حصانتها وعلو مرتقاها، وانقطاع جبلها عن جميع الجهات ما أيقن به أنه لا نظير لها في الأرض حصانة، ومنعة، وهذا هو سبب تمكن ابن حفصون من الامتناع بها والخروج على الدولة طيلة هذه السنوات ثم أبناؤه من بعده، فحمد الله جل وعلا أن يسر له فتحها، وفرض على نفسه أن يصوم تطوعًا وشكرًا على نعمة ربه مدة بقائه فيها، وأمر ببناء قصبتها وإحكامها على أحسن ما يكون التدبير

والإحكام، وأمر رجالها بالتفرق في أنحاء المنطقة وهدم الحصون التي حولها، والديار الخارجة عنها، ثم أمر بنبش قبري عمر بن حفصون وابنه، ففتحت قبورهما ووجدا مدفونين ملقيين على ظهريهما كما يدفن النصارى أمواتهم، وشهد على ذلك عامة الفقهاء الذين حضروا مع الأمير عبد الرحمن وأيقن من شهد على ذلك منهم أنهما – عمر بن حفصون وابنه - هلكا على دين النصرانية، فاستُخرجا وحملت عظامهما إلى باب السدة بقرطبة، فرفعت على الخشب كما فعل بأعضاء سليمان بن حفصون، فصاروا عظة للناظرين، وسر المسلمون بهذا الفتح.

وهنا لا مجال للتحدث عن حكم نبش القبور وإخراج الموتى ونقلها من مكانها ثم تعليقها لتكون مشهدًا لكل ناظر سواء كان حدوث هذا في حق مسلم أو نصراني، لأن القاعدة التي نحاول أن نسير وفقها هنا هو نقل ما حدث كما حدث دون تجميل فضلًا عن تغيير أو تبديل، وحتى يتبين أن تاريخنا تاريخ بشري لا ملائكي، لأهله ما لهم وعليهم ما عليهم وفي النهاية حسابنا وحسابهم على الله.

هذا العام الذي سقط فيه حصن بربشتر هذه المدينة والحصن والجبل الذي أعيا المسلمين بلاؤه حكامًا ومحكومين أعلن الأمير عبد الرحمن نفسه خليفة وكتب للأقطار أن ينادوه من الآن وصاعدًا بأمير المؤمنين، وكان نص الكتاب الذي أرسله للأرجاء معلنًا لقبه كخليفة للمسلمين كالتالي: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنا أحق من استوفي حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه، للذي فضلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسر على أيدينا إدراكه، وسهل بدولتنا مرامه، والذي أشاد في الآفاق ذكرنا، وعلو أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا، والحمد لله ولي النعمة والإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه، وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنّا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له، ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه، وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطباتك لنا عليه، إن شاء الله، والله المستعان».

لم يكن الخليفة عبد الرحمن الناصر يتهاون أبدًا مع من يروع الآمنين من شعبه فضلًا عن من يسفك دماءهم قاطعًا عليهم الطرق التي يسلكوها في سفرهم وسيرهم لمعاشهم، لذك نجد بمجرد وصول الأخبار للناصر عام ٣١٠هـ/ ٩٢٢م أن هناك من يخيف المارة ويقطع عليهم الطريق الواصل بين مدينتي البيرة وجيان، وكان أكثرهم من الأعاجم من أهل الذمة الذين خرجوا عن الطاعة، فصار إليهم الناصر في غزوة حربية، وحاصرهم في حصونهم التي

اتخذوها ملاذًا لهم، وفرض عليهم الحصار ما يربو عن شهر فقتل منهم الكثير حتى أذعنوا للطاعة بعد هدم حصونهم ونزولهم من معاقلهم، فالقوة بالنسبة للناصر كانت هي الفيصل في القضاء على كل من كان يعترض أمان رعيته.

هذه الفتوحات والغزوات جعلت الناصر كما يقولون بلغة الحاضر أشهر من النار على العلم في زمن لم يكن فيه إعلام ولا مواقع تواصل اجتماعي كما هو معروف في زماننا، هذه الشهرة وهذا الصيت الذي حظي به الناصر جعل جُل ملوك العالم آنذاك يخطبون وُده ويتمنون رضاه، وكانت وسيلتهم لتحقيق ذلك إرسال البعوث والرسل إليه محملة ب أقيم الهدايا، ومن هؤلاء الملوك ملك الروم الامبراطور قسطنطين بن ليون حاكم القسطنطينية الذي بعث رسله إلى الناصر فتجهز الناصر لاستقبالهم في أفخم مظاهر الأبهة ممزوجة بإظهار القوة حتى يعلم ملوك العالم مدى قوة دولته ممثلة في قوة الإسلام، فأمر باستقبالهم بالجنود والقادة فضلًا عن أعيان الدولة، وقعد هو في مجلسه على سرير ملكه وعن يمينه ابنه وولي عهده الحكم، وباقي أبنائه عن يمينه ويساره، وجلس الوزراء والحجاب في مجلسه صفوفًا متراصة كلّ حسب منزلته، فدخل عليه رسل الامبراطور محملين بالهدايا التي أحضروها له، وقد ظهرت على وجوههم علامات الدهشة ممزوجة بالهيبة والرهبة، مما دفعهم إلى انحناء رقابهم وتوجههم بالجلوس على ركبهم إجلالًا للناصر، إلا أن الناصر أشار لهم بيده أن يمتنعوا عن مثل هذا الفعل فامتثلوا لأمره، وقدموا له هدية مرسلة له خصيصًا من الامبراطور وهي عبارة عن كتاب مصبوغ بلون سمائي، مكتوب بالذهب، وقد تحدث ابن خلدون عن هذا الحدث قائلًا: «ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكلة، وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور، وجُمّلَ السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة، ورتب الوزارة والخدمة في مواقفهم، ودخل الرسل فهالهم ما رأوه، وقربوا حتى أدوا رسالتهم، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل، ويعظموا من أمر الإسلام والخلافة، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزازه، وذل عدوه، فاستعدوا لذلك، ثم بهرهم هول المجلس فوجموا([17])، وشرعوا في القول فارتج([18]) عليهم».

يكفِي لرسم صورة واضحة المعالم لمدى هيبة الناصر بين ملوك زمانه أن نورد نص ما أورده المؤرخون في وصف تودد الملوك للناصر، ورغبتهم في وصاله حيث قالوا: «إن مُلك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادنته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية».

لا يفوتنا في إطار الحديث عن رسل الامبراطور قسطنطين للخليفة الناصر أن نذكر موقفًا بعينه، ملخصه أن ولى العهد «الحكم» كان قد أمر الفقيه محمد بن عبد البر الكسنياني أن يجهز لهذا اللقاء الخلافي بين الخليفة ورسل الامبراطور خطبة أو كلمة حتى يلقيها في هذا المجلس الحافل، وكان الكسنيانى من الفقهاء الذين يملكون القدرة على تأليف الكلام وإلقائه بأفضل بيان وأجزله، بل كان يفوق في ذلك غيره وإلا لما وقع اختيار «الحكم» عليه تحديدًا دون غيره.

انتهى رسل الامبراطور من إلقائهم التحية على الخليفة الناصر، وتقديمهم الهدايا المبعوثة إليه من قبل الامبراطور وجلس كل من وجد في المجلس في المكان المخصص له، ثم أشار الحكم للكسنيانى أن يبتدأ كلمته، فوقف إلا أنه نظرًا لهول الموقف ورهبة المجلس لم يستطع أن يتفوه بكلمة، فسقط مغشيًّا عليه، وكان في المجلس إسماعيل بن القاسم القالي المشهور في العراق بأبي علي القالي، وفي الأندلس بأبي علي البغدادي، صاحب «الأمالي والنوادر»، وكان خطيبًا مفوّهًا حضر من العراق إلى الأندلس ضيفًا على الخليفة الناصر، فطلب منه «الحكم» أن يلقي كلمة فقام القالي وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي -صلّى اللّه عليه وسلم-، ثم توقف لا يجد كلامًا يبدأ به أو مدخلًا يدخل به، وهنا وقف الفقيه منذر بن سعيد البلوطي، فوصل ما ابتدأه القالي قائلًا: «أما بعد، الحمد لله والثناء عليه، والتعدد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقامًا، ولكل مقام مقال، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إليَّ معشر الملأ بأسماعكم، ولقنوا عني بأفئدتكم، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدس بصفاته وأسمائه، أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه، أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم، وفيه وفي رسول الله -صلّى اللّه عليه وسلم- أسوة حسنة، وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم، وأمنت سربكم، ورفعت فرقكم، بعد أن كنتم قليلًا فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم، ولاّه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سُرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شُعل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بين سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء ....»([19]).

استوقفني من هذه الخطبة وإن كان كل حرف فيها يستحق الوقوف قول الفقيه منذر: «إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت»، فهذه الجملة على بساطتها الممزوجة بعمق المعاني ينبغي إهداؤها ليس فقط لرجال الدولة الذين يتوددون الحاكم، بإيحائهم له فعلًا وقولًا أنه محق في كل

قرار يتخذه سواء كان هذا هو الحق أو الباطل، بل ينبغي إهداؤها لنا نحن الأفراد الذين نركز على الخطأ وكأنّ أعيننا لا ترى غيره، وإذا ما وقع صواب كأن أعيننا لم تره..!!

تذكر

الفعل الجميل إذا ما كُوفئ ماديا أو معنويا سيزهر، ومن ثم يثمر ثمرة طيبة الرائحة حلوة المذاق، ولكن إذا ما تُرك ولم يُنظر إليه، سيذبل؛ بل سيجف قبل أن يزهر فضلًا عن أن يثمر..!!

كانت الخطبة التي ألقاها المنذر من الطول بحيث يصعب إيرادها كاملة، وفي نفس الوقت لم يكن لي أن أتركها جملة، وبها من عظيم المعاني ورقيها ما لا يخفي على فطن، لذلك آثرت أن أحيلكم إلى مصدرها لتستزيدوا من فيضها وعذوبة معانيها، فأتمنى ألا يفوتكم؛ وقد أشاد المؤرخون بهذه الخطبة قائلين: «فوصل – منذر - افتتاح أبي علي – يقصد القالي – لأول خطبته بكلام عجيب، ونادى في الإحسان من ذلك المقام كل مجيب، يسحه سحًّا كأنما كان يحفظه من قبل ذلك بمدة»، وقالوا في موضع آخر: «ووصل افتتاحه بكلام عجيب بهر العقول جزالة، وملأ الأسماع جلالة»؛ بل وصل الإشادة بهذه الخطبة التي ألقاها الفقيه منذر البلوطي إلى الخليفة الناصر نفسه حيث قال في الإشادة بها: «لقد أحسن ما شاء، فلئن حَبّر _ بمعنى كتب أو سطر – خطبته هذه وأعدّها مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الوهي – النسيان أو الخطأ – فإنه لبديع من قدرته واحتياطه، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته فإنه لأعجب وأغرب».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذر بن سعيد البلوطي، قاضي الجماعة بقرطبة، ولد عام ٨٧٩/٢٦٥هـ، كان من أبرز الخطباء المفوهين، والعلماء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، ومن يتمعن في الكلمات القليلة التي انطوت عليها خطبته آنفة الذكر يتضح له جليًّا شخصية هذا الفقيه بما حوته من نزاهة ورقي؛ له الكثير من الكتب المؤلفة في القرآن والسنة النبوية، والورع، وفي الرد على أهل الأهواء والبدع، ناهيك عن خطبه ومجالسه العلمية والوعظية التي كان دائمًا ما يجذب فيها أهل الباطل إلى طريق الحق مهما كانت مكانتهم ومناصبهم.

كان البلوطي من ذوي الأخلاق العالية، حدث أن شتمه رجل وآذاه، فحدثه المنذر ونادي عليه بكنيته، فقيل له يشتمك وتناديه بكنيته؟، فقال:

لا تعجبوا من أنني كنيته

من بعد ما قد سبنا وأذانا

فالله قد كنى أبا لهب وما

كناه إلا خزية وهوانا

سنكتفِي هنا بذكر نبذة عن الصفات والسجايا التي تمتع بها البلوطي كما أوردها المؤرخون، حيث قالوا فيه إنه «كان مهيبًا صليبًا صارمًا غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم، وكان غزير العلم، كثير الأدب، متكلمًا بالحق، متبينًا بالصدق»، هذه المزايا التي تميز بها القاضي المنذر هي التي خوّلت له ألا تُحفظ له مدة توليه القضاء قضية جور ظُلم فيها أحدٌ، ولا عُدّت عليه زلة، وذلك على الرغم أن ولايته ظلت منذ أيام الناصر حتى زمن ابنه الحكم المستنصر، وخلال ولايته تلك طلب من «الحكم المستنصر» أن يعفيه من القضاء مرارًا إلا أنّ «الحكم» كان دائم الرفض لطلبه، وذلك لعلمه بأمانته ونزاهته، ناهيك عن علمه وحكمته.

أخي القارئ وأختي القارئة أذكر نفسي وإياكم أنه لا يتم الإشارة إلى هذه الصفات التي تمتع بها الكثير من رموز أمتنا الإسلامية وعلمائها لمجرد العلم بأنهم كانوا يتصفون بمثل هذه الصفات، ومن ثم التباهي أننا نعلم أن هذا الرجل أو ذاك يتمتع بهذه الصفة أو تلك، أو لأجل مصمصة الشفاه تعجبًا لما حوته شخصية هؤلاء من جميل الأخلاق ورقي المعاني، وإنما يتم ذكرها لنقوم بقياسها على أنفسنا، أين نحن من هذه الأخلاق؟!، أليست هذه هي أخلاق الإسلام؟ إذن لماذا لا نتمسك بها وننزلها على أرض الواقع كما فعل أسلافنا؟!! فيظل هؤلاء القدوات في زمن ندرت فيه القدوة؟!!.

ليتنا نقتدى..!!

إضافة إلى كون المنذر خطيبًا مفوهًا فقد كان شاعرًا جزلًا، ومن نظمه إضافة إلى ما سبق ذكره:

الموت حوض وكلنا نرد

لم ينج مما يخافه أحد

فلا تكن مغرمًا برزق غد

فلست تدري بما يجيء غد

وخذ من الدهر ما أتاك به

يسلم الروح منك والجسد

والخير والشر لا تدعه فما

في الناس إلا التشنيع والحسد

ومن شعره في الزهد

كم تَصابى وقد علاك المشيب

وتَعامي عمدا وأنت اللبيب؟

كيف تلهو وقد أتاك نذير

أن سيأتي الحِمام منك قريب؟

يا سفيهًا قد حان منه رحيل

بعد ذاك الرحيل يومٌ عصيب

إن للموت سكرة فارتقبها

لا يُداوِي إذا أتتك طبيب

كم توانى حتى نصير رهنا

ثم تأتيك دعوة فتجيب

بأمور الميعاد أنت عليم

فاعملن جاهدًا له يا أريب

وتذكر يومًا تحاسب فيه

إن من يدّكِر فسوف يُنيب

ليس من ساعة من الدهر إلا

للمنايا بها عليك رقيب

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الناصر من طراز الحكام الذين عنوا بالعلم وأهله، ففي عهده كثر الإنتاج العلمي وشاعت المعرفة، ومما يشهد بذلك كثرة المؤلفات التي أسهم بها العلماء الأندلسيون في مختلف فنون العلم والمعرفة، وكان الخليفة الناصر مولعًا بجمع الكتب من سائر الأقطار، كما أنه كان محبًا للعلوم والآداب والفنون حتى إن مكتبة قصره احتوت على كتب بجميع اللغات؛ لذلك عندما سمع عنه ملك الهند آنذاك «ملو»، أهداه بعض الكتب؛ منها: كتاب «كليلة ودمنة»، وكتاب «الحروف المنزلة على آدم عليه السلام» وغيرهما.

لم ينغص الخليفة الناصر ولم يعييه ثائر مسلم فضلًا عن عدو نصراني، إنما نغصه وأعياه أن يخرج ابنه ضده ويقوم بما يسمى الانقلاب عليه لانتزاع الحكم منه؛ عندما علم الناصر بعصيان ابنه عبد الله وقراره بالخروج عليه، جهز

جيشه وتوجه نحوه وتمكّن من التغلب عليه، وقام بقتل من التف حوله إلا أنه تأنى في قتل ابنه ولم يعزم على ذلك إلا عام ٣٣٨ه/٩٥٠م، وقد ذكر أن أخاه «الحكم» شهد أو ذكر أنه يريد الخروج على أبيه فقُبل كلامه، وقد وصف المؤرخون هذه الحادثة بقولهم: «جرت قصة الولد عبد الله بن الناصر التي أراد بها ابتلاء أبيه فيه»؛ وكان عبد الله هذا يضمر الكره لأخيه «الحكم»، نظرًا لتقريب أبيه له، وازداد هذا الكره والحسد والحقد على أخيه وبدأ يطفو على السطح منذ أن أعلن الناصر بولاية العهد لابنه «الحكم» مما أدى إلى شروع عبد الله في الانقلاب على أبيه.

هنا لا ينبغي أن يفوتنا أن نذكر أنه مهما حيزت الدنيا لشخص، ودانت له، وجاءته سواءً راغبة أم راغمة لا بد فيها من منغصات لأنها كما هو معلوم دار فناء لا دار بقاء، يتبعها نعيم مقيم أو عذاب أليم، وهذا يتوقف بالطبع على اختيارك أنت دون غيرك، وتظل أصعب المنغِّصات أو بالأحرى الطعنات التي تأتى ممن هم منك بمرتبة اللحم والعظم..!!.

نظرًا لأنّ المجال لا يتسع لذكر المزيد فضلًا عن جميع الغزوات والفتوحات التي أحدثها الناصر في عهده، سنختم حديثنا ببعض المعاني التي يصف بها ابن عذاري الخليفة الناصر، والتي ترسم صورة واضحة المعالم عن مدى عظمة هذه الشخصية من رجال صنعوا بسواعدهم تاريخًا لا زلنا نتدارسه حتى يومنا هذا، تحدث ابن عذاري عن الناصر قائلًا: «ولما ولي الناصر لدين الله، اعتز ركن الدين، واحتمى ذمار المسلمين، وقام الجهاد على ساق، وخمدت نار الخلاف والشقاق، ودخل الناس في طاعته أفواجًا، واستنفروا إلى دعوته أفرادًا وأزواجًا، فناهيك من فضل أعطاهم، وعدلٍ أكنفهم وغطّاهم، وتكرمة أنالهم أياها، ومسرة أبدى لهم محياها، قد ملك سبتة وما يليها من الأقطار، وطرد عنها ملوك الأدارسة طرد الليل النهار، وبثّ عماله وقواده فيها، وطاعت له البرابر في جميع نواحيها، واعتصموا بحبله، ولاذوا بفضله وعدله»، كما وصفه ابن عذاري في موضع آخر قائلًا: «وكم للناصر رحمه الله من غزوات مذكورة، وفتوحات مشهورة، يبقى في الأعقاب فخرها، ولا يبلى على مرّ الأحقاب أثرها».

كذلك أشاد الشعراء بفعله في الأعداء، وهنا سنكتفِي بقول ابن عبدربه، الذي وصفه قائلًا:

قد أوضح الله للإسلام منهاجًا

والناس قد دخلوا في الدين أفواجا

وقد تزينت الدنيا لساكنها

كأنما ألبست وشيًا وديباجا

يا ابن الخلائق إن المزن لو علمت

نداك ما كان منها الماء ثجاجا

والحرب لو علمت بأسًا تصول به

ما هيجت من حمياك الذي اهتاجا

مات النفاق وأعطى الكفر ذمته

وذلت الخيل إلجامًا وإسراجا

وأصبح النصر معقودًا بألوية

تطوي المراحل تهجيرًا وإدلاجا

إن الخلافة لن تُرضى ولا رُضيت

حتى عَقَدتَ لها في رأسك تاجا

أثناء تتبعنا لسيرة الناصر ووقوفنا على غزواته التي تم ذكرها ناهيك عن التي ضاق المجال عن ذكرها، نلحظ أن فعل الجهاد كان من أبرز بل من أجّل الأعمال المسيطرة على حياته أو إن شئت فقل على كيانه، ففي إطار تنقلك معه في هذه الغزوات التي كان يتنقل فيها من بلد إلى أخرى، قاضيًا فيها الأيام والشهور يتضح لك أخي القارئ وأختي القارئة إلى أي مدى عشق الناصر الجهاد وكأنه أصبح لا يجد لذَّته إلا فيه، هذا ذكرني بقول الرسول -صلّى اللّه عليه وسلم-: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: أومِن قلة يا رسول الله؟ قال -صلّى اللّه عليه وسلم- بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله المهابة من قلوب أعدائكم منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال -صلّى اللّه عليه وسلم-: حب الدنيا وكراهية الموت»، وبالطبع إذا ما توغل حب الدنيا وكراهية الموت قلوب العباد، كان من أول الأفعال التي يعزفون عنها هو فعل الجهاد..!!.

هذه العزة والهيبة وكل معاني الكرامة التي وصل إليها الخليفة الناصر أَخِذَا فيها المسلمين لم تكن إلا بحبه وشغفه بالجهاد، لأننا نحن المسلمين على مر العصور والأزمان إذا ما تركنا الجهاد ضربنا الله جل وعلا بالذل والهوان..!!.

لأننا كما يقول الفاروق

نحن قوم أعزنا الله تبارك وتعالى بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله..!!

ننتقل من المهارات العسكرية التي تمتع بها ملك ملوك العالم آنذاك الخليفة الناصر لدين الله إلى المهارات الإدارية والتي لا تقل براعة وإتقانًا عن سابقتها العسكرية؛ أول ما ابتدأ به الناصر من مهاراته الإدارية هو توزيع المهام على من يثق به من رجاله ويعلم أنه ذا كفاءة تخوّل له القيام بمثل هذه المهام التي أوكلت إليه، فقلد الوزير جهور بن أبي عبدة النظر في الكتب الواردة من الولاة على الأقاليم والصادرة منهم، وقلد الوزير عيسى بن فطيس النظر في خطابات أهل الثغور والسواحل وأطراف الدولة، وقلد الوزير عبد الرحمن الزجالي النظر في تنفيذ كل ما يخرج من العهود والتوقيعات وعقود الأمان التي تعقد لمن يطلبون الأمان سواء من الثوار المسلمين أم الأعداء القشتاليين، وقلد الوزير محمد بن حدير النظر في مطالب الناس وتلبية حوائجهم، وكانت من نتيجة هذه الإصلاحات وتوزيع هذه المهام على أصحابها ومن هم أهل لها أن اعتدلت الأمور الإدارية في الدولة، كما سهلت مطالب الرعية من حيث إيصالها للدولة وإنفاذ ما تطلبه.

إن ما سبق الإشارة إليه من اهتمام الناصر ب الأمور والإجراءات الإدارية في الدولة حتى يسهل على الرعية إنجازها في أقل وقت وأيسر جهد لا شك أنه قد ذكرك أخي القارئ وأختي القارئة بالشؤون الإدارية الخاصة بدولنا العربية إلا من رحم ربي منها، فعندما تذهب لإنجاز معاملة في إي إدارة من الإدارات تشعر وكأن البعض من هؤلاء الأشخاص المسئولين عن هذه المهام الإدارية قد جندوا كل ملكاتهم ومواهبهم في تعطيل هذه المعاملة التي تود إنجازها، أليس هذا غريبًا في زمن أضحت فيه البلاد تعيش في زمن التكنولوجيا والأقمار الصناعية..!!

هنا لا ينبغي أن يفوتنا ذكر قول الصادق المصدوق -صلّى اللَّه عليه وسلم-: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»؛ ودعائه -صلّى اللَّه عليه وسلم-: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَ اشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا فَ رَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ».

أيضًا من الأمور الإدارية التي اعتنى بها الناصر، الأمور الإدارية الخاصة بجباية الأموال وتصريفها في مهام الدولة وشؤونها، حيث اتجه الناصر إلى تقسيم أموال الدولة إلى ثلاثة أقسام؛ الأول: ينفقه على الجيش؛ الثاني: ينفقه على الأعمال المعمارية؛ الثالث: يقوم بادخاره تحسبًا لنوائب الدهر؛ وكان يدخل إلى بيت المال سنويا من الجبايات ٥٤٨٠ ألف دينار؛ كما كان يدخل إليه من

الأسواق ٧٦٥ ألف دينار، هذا بخلاف الغنائم التي حصل عليها من جراء فتوحاته والتي لم يكن باستطاعة أهل الديوان إحصاؤها كما أوردت المصادر.

إذا ما وضعنا مقارنة بين هذه الجبايات التي تم تحصيلها في عهد الناصر، والجبايات في العصور السابقة له يتضح إلى أي مدى بلغ الازدهار والرواج الاقتصادي في عهده، ففي العهود السابقة لعهد الناصر كانت جباية الأندلس مجتمعة ٣٠٠ ألف دينار واستمرت هذه الجباية حتى زمن جده الأمير عبد الله الذي كان يقسم هذه الأموال على ثلاثة أقسام: ١. للجيش؛ ٢. للنوائب وما قد تتعرض له الأندلس من محن؛ ٣. يتم ادخاره تحسبًا لأى ظرف أو عارض، وقد حدث في نهاية عهده أن اضطر إلى إنفَاق هذه الأموال المدخرة نظرًا لازدياد اضطراب أوضاع الأندلس، وكثرة الثوار والمتغلبين على أنحائها، مما نتج عنه أيضًا قلة الخراج أو الجباية عن ٣٠٠ ألف دينار، هذا وغيره يوضح مدى الرواج والازدهار التجاري والاقتصادي زمن الناصر مما أدى إلى غنى الدولة وعيش الناس في رفاهية ورغد من العيش جعلتهم يتوجهون بكليتهم إلى أعمالهم ومهامهم باذلين جهدهم في إتقانها وإظهارها في أفضل حُلة وأحسنها، فالحرفي في حرفته، والمتعلم في طلبه للعلم.

استكمالًا لجهود الناصر في العناية باقتصاد دولته توجه إلى العناية بالزراعة والصناعة؛ بالنسبة للزراعة فقد كان الناصر هو أول من أدخل زراعة القطن إلى الأندلس، ومن ثم استخدامه في مصانع النسيج والحبال، وكذلك استخدام الزيت المستخرج منه في الإنارة، لذلك لا نعجب عندما نعلم أن قرطبة في هذه القرون الغابرة كانت تعلق المصابيح على أبواب دورها وشوارعها بحيث يسير المرء مسافة عشرة كيلومترات تحت ضوء هذه المصابيح.

كذلك إمعانًا في إكمال الناصر لجهود سلفه والإضافة إليها وليس إهمالها أو هدمها كما يفعل البعض نجده يعهد لبعض عماله وهو أحمد بن أبى عبيدة ب «إصلاح الأسطول المستقر بدار الصناعة في المرية وتهذيبه والزيادة فيه، وإعداد آلاته، وجميع ما يحتاج إليه»، كما قسم مدينة المرية إلى قسمين؛ القسم الأول: يحتوى على المراكب الحربية والتجارية والآلات والأدوات الخاصة بكليهما؛ القسم الثاني: يحوى القيساريات([20])، لذلك لا نعجب عندما نعلم أن قيسارية المرية كانت أكبر قيساريات الأندلس وأكثرها رواجًا من ناحية الحركة التجارية ناهيك عن تأمينها من ناحية العدو القشتالي.

وهنا نلحظ أن الخليفة الناصر بعقله المدبر وسياسته المحنكة لعب على حبلين؛ الأول: تأمين بلاده ضد العدو الخارجي بإصلاح هذا الأسطول والزيادة إليه وتوفير كل ما يحتاج إليه من مستلزمات؛ الثاني: تنشيط التجارة والصناعة لعمل رواج اقتصادي لدولته وذلك بتأسيس القيساريات.

أما بالنسبة للصناعة فقد أوضحنا في اطار الحديث عن الأمير عبد الرحمن الأوسط أنه كان أول من أقام مصنعًا لصناعة الملابس في الأندلس وكان هذا المصنع مُنشأ بداخل القصر مما يوضح محدودية إمكاناته، لذلك نجد الناصر كعادته في إكمال جهود من سبقه لم يكتفِ بهذا المصنع، بل قام بإفراد مدينة بما اشتملت عليه من مرافق ومساجد وأسواق وحمامات لإنتاج الملابس التي نافست في جودتها وإتقانها الملابس المشرقية، وقد حدث ابن الخطيب عن هذه المدينة قائلًا: «أقام مدينة تشتمل على آلاف من الخلق قد اتخذت فيها المرافق والمساجد والحمامات والشرف، ولو تتبعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم، وينافسون به المشرق من بضائعهم، ومقدار جراياتهم ونفقاتهم، لضاق عنه الكتاب»، ومن خلال هذا النصّ يتضح مدى ضخامة هذا المصنع الذي أفردت له مدينة بأكملها، مما نتج عنه تلبية احتياجات المجتمع الأندلسي من الملابس والمنسوجات في الداخل، وتصدير الدولة للفائض من الإنتاج لبلدان العالم الإسلامي في الخارج؛ كما أمر الخليفة الناصر بإنشاء دار للسكة في مدينة قرطبة، لضرب الدنانير والدراهم من الذهب والفضة.

هنا لا بد من التوضيح أن التجار الأندلسيين كانوا يتوجهون بتجارتهم نحو بلاد المغرب العربي والمشرق دون الغرب الأوربي وذلك بسبب النهي الشرعي عن الذهاب إلى أرض الحرب، حيث شدد الإمام مالك على ذلك، ونظرًا لأن الأندلس كانت تتبع مذهب مالك فقد عملت برأي مالك وأصحابه في أنه «لا يجوز الخروج إليها – بلاد النصارى آنذاك – تاجرًا، وينبغي أن يمنع الإمام الناس من ذلك، ويشدد في ذلك، ويحصل الرصد فيه»؛ على الرغم من ذلك إلا أنه كان هناك نوع من التبادل التجاري بين بلاد الأندلس والغرب الأوربي، وتكفل به آنذاك أهل الذمة من التجار سواء كانوا من اليهود أم النصارى، وكانوا يسمون بالراذانيين، وكان هؤلاء التجار كما أنهم يحملون البضائع الإسلامية إلى الغرب الأوربي يجلبون معهم البضائع الأوربية، لا سيما الجواري والخصيان التي كانت أشهر بضائعهم.

كما حدث في عهد الناصر وتحديدًا عام ٣٣٢هـ/٩٤٤م زلزال عظيم بقرطبة، وكان وقوعه ما بين العشاء والفجر، ودام ساعة، ففزع أهل قرطبة له فزعًا شديدًا وصف هذا الزلزال بأنه «لم يُر قط مثله، ولا سمع عن قوته»، ففر الناس مهرولين نحو المساجد ووقفوا متضرعين لله جل وعلا أن يرفع مقته وغضبه ويفرج عنهم كربهم، وظلوا كذلك حتى كشف ربنا جل وعلا عنهم الكرب، وفي صباح هذه الليلة التي حدث فيها الزلزال قامت ريح عاصفة كان من شدتها أن اقتلعت أشجار التين والزيتون والنخيل وغيرها من الأشجار، كما اقتلعت أسقف الكثير من المنازل، وتبع ذلك هطول مطر غمر الأرض غمرًا، واشتِد البرد حتى ماتت الوحوش في البراري ناهيك عن الطيور والمواشي،

فضلًا عن إصابة الزروع وتلفها؛ كذلك هاجت مثل هذه العاصفة عام ٣٤٠هـ/ ٩٥٢م فاشتدت الريح والبرق، وأصيب الناس بالرعب، ونزلت صاعقة في دار أحمد بن هاشم بن عبدالعزيز قتلت نتيجة لذلك امرأة وأصيبت أخرى.

هذا أحد مشاهد الدنيا التي ذكرها لنا التاريخ، فكيف بمشاهد الآخرة حيث يوم الحشر والحساب يوم تدنو الشمس من الرؤوس، وترتجف القلوب، ولها أن ترجف..!!، فهي لا تدري إلى أي موضع تسير؟!!، إلى جنة عرضها كعرض السموات والأرض أعدت للمتقين؟!!، أم إلى نار كلما بليت الجلود أبدل أهلها غيرها إمعانًا في تعذيبهم جزاء تفريطهم في حق ربهم تبارك وتعالى؟!! عافانا الله جل وعلا وإياكم، ولا حرمنا فضله بذنوبنا.

أيضًا حدث في زمن الناصر أنْ ظهر مدّعٍ للنبوة حيث خرج رجل في مدينة أشبونة وزعم أنه من ولد عبد المطلب، وأن أمه هي مريم ابنة فاطمة، وادعى استنادًا إلى هذا النسب أنه نبي، وأن جبريل ينزل عليه، وسنّ لأتباعه السنن وشرع لهم الشرائع، فأرسل الناصر خلفه من يبحث عنه لاستقدامه إليه إلا أن رجاله لم يعثروا له على أثر، واختفي ذكره من وقتها وكأنه لم يكن؛ كما ظهر في ذات البلدة قاطع للطرق يدع علي بن عشرة الذي قام بترويع الناس وسلبهم أموالهم ومتاعهم ثم قتلهم، وقد تمكن رجال الناصر من القبض عليه عام ٣٣٧هـ/٩٤٩م، وأحضروه إلى قرطبة فتم قطع يداه ورجلاه ثم صلبه.

كان الخليفة الناصر جوادًا كريمًا فاق الكثير ممن سبقوه أو لحقوا به، وتغنى الكثير من الشعراء بالجود الذي جبل عليه، فمما نظم في ذلك:

يا ابن الخلائق والعُلى للمُعتلي

والمجد يُعرف فضله للمفضل

نوّهت بالخلفاء بل أخملتهم

حتى كأنّ نبيلهم لم ينبلِ

أذكرت بل أنسيت ما ذكر الورى

من فعلهم فكأنه لم يُفعلِ

وأتيت آخرهم وشأوُك فائت

للآخرين ومدرك للأول

تأبى فعالك أن تعد لآخر

منهم وجودك أن يعد لأولِ

كما جُبل البعض من البشر على الكرم جُبل البعض الآخر منهم على البخل، وبالطبع الناس في هذا أو ذاك مراتب وأقسام، فترى البعض في الكرم يقدم من حوله على نفسه وإن لم يمتوا إليه بأي صلة، وعلى الصعيد الآخر تجد من الأشخاص من يغمر البخل روحه غمرًا حتى كأنك ترى في عينيه بخله عليك لو طلبت منه كوبًا من الماء..!!

تذكر

كما أن العلم بالتعلم، والحلم ب التحلم، كذلك الكرم ب التكرم..!!

أيضًا من الأشعار الذي نظمها الناصر بنفسه قوله:

لا يضر الصغير حدثان سن

إنما الشأن في سعود الصغير

كم مقيم فازت يداه بغُنم

لم تنله بالركض كفُّ مُغِير

على الرغم من الهيبة والعظمة التي كانت تكسو الناصر إلا أنه لم يكن متجهمًا متسمًا بالغلظة، بل كان لين الجانب سمح الطباع، يضحك ويمازح من حوله، ومن هم تحت كنفه، فحدث أن مازح يومًا وزيره أبا القاسم، وقال له: يا لُب – شهرة أبو القاسم – اهْجُ الوزير عبد الملك بن الجهور، فامتنع أبو القاسم؛ فقال الناصر لابن جهور: «فاهجه أنت، إذ أبي هو من هجوك»، فامتنع ابن جهور أيضًا، فقال الناصر: فأنا أهجوه، وقال: لب أبو القاسم ذو لحية

طويلة في طولها ميل

ثم قال لابن جهور: «لا بد لك من تذييل هذ البيت»، ومنعه أن يعتذر أو يمتنع عن التذييل، ويقصد أن يأتي ابن جهور ببيت يصل به البيت الذي أورده يكون تكمله له، فقال ابن جهور:

وعرضها ميلان إن كسرت

والعقل مأفون ومدخُول

لو أنه احتاج إلى غسلها

لم يكفه في غسلها النيل

فضحك الناصر وقال لأبي القاسم «إنه قد سبق لك القول، فقل»، فقال لُب:

قال أمين الله في خلقه

لي لحية أزرى بها الطول

وابن عُيير قال قول الذي

مأكوله القرطيل والفول

لولا حيائي من إمام الهدى

نخست بالمنخس «شو قُول»

وحدث عند بلوغ لُب إلى قوله «شو» سكت، ولم يكمل، فقال له الناصر: «قُول»، فقال لُب الجملة كاملة «شو قول»، ثم قال للناصر: «أنت هجوته، يا مولاي»، فضحك الناصر، وأمر له بهدية، وكان الناصر من المحبين للشعر بصفة خاصة لذلك وُصف بأنه: «كان الناصر على علاء جانبه، واستيلاء هيبتة يرتاح للشعر، وينبسط إلى أهله، ويراجع من خاطبه به من خاصته».

أيضًا من القصص التي توضح أنّ هذه الطرافة ولين الجانب من الناصر كانت سجية طُبع عليها وليس تمثيلًا منه أو تكلفًا أنه حدث أن أهداه الوزير أبو عامر بن شهيد غلامًا من النصارى كان غاية في الجمال لم تقع العين على مثل جماله حتى إن الناصر عندما وقعت عينه عليه انبهر به وتوجه للوزير متسائلًا: أنّى لك هذا؟ بمعنى من أين لك بمثله؟، فقال له الوزير: هو من عند الله، فرد عليه الناصر: تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون بالقمر..!!.

كذلك من القصص الطريفة التي رويت عن الناصر، قصة رواها المقري التلمساني ملخصها أنّ الناصر أراد أن يقوم ب «الفصد»، ويقصد به في عصرنا الحالي أخذ عينة من الدم لعمل تحليل لها، فجلس في البهو الفسيح بأعلى مدينة الزهراء واستدعى طبيبه ليأخذ عينة من دمه ليفحصها، فحضر الطبيب وأثناء شروعه في أخذ عينة دم من أصبع الخليفة أطل زرزور وهو طائر أكبر قليلًا من العصفور له منقار طويل قاعدته عريضة، وقف هذا الزرزور على إناء من الذهب كان موجودًا بالمجلس وأنشد قائلًا: أيها الفاصد([21]) رفقًا

بأمير المؤمنينا

إنما تفصد عرقًا

فيه محيا العالمينا

وجعل الزرزور يردد هذه الكلمات مرارًا وتكرارًا، فأعجب به الناصر أيما إعجاب، وسأل فتيانه المحيطين بالمجلس عن من تمكن من تعليمه مثل هذا؟!!، فأخبروه إنها السيدة مرجانة والدة ابنه وولي عهده «الحكم»، حيث

أمرت بإحضار هذا الزرزور وأعددته لهذا الأمر تحديدًا، فوهب لها الناصر هبة تزيد على ثلاثين ألف دينار.

قد يتساءل سائِل ما الفائدة التي تعود علينا من ذكر مثل هذه القصص، وقد ينظر لها البعض الآخر نظرة سلبية تسيء للحاكم أكثر من أنها تحسن إليه، لأنها في نظر هؤلاء مضيعة لوقت حاكم اختير لحكم دولة ورعاية شعب بل أمة بأكملها، وانشغال منه بتوافه الأمور وسفاسفها..!!، أعلم أخي القارئ وأختي القارئة أن مثل هذه القصص لا تحرمنا الإفادة في معرفة جوانب الشخصية التي نقرأ عنها، فضلًا عن البيئة التي نشأت فيها، والمجتمع الذي عاش في كنفه.

ما سبق الإشارة إليه من أعمال عسكرية وحربية ناهيك عن الأمور الإدارية التي اعتنى بها الخليفة عبد الرحمن الناصر أو أوكلها إلى رجاله لا تعنى أنه أغفل الجوانب الأخرى لنهضة دولته وارتقائها ومضيها قدمًا في سبيل التقدم، لذلك نجده وقد اعتنى بالأعمال المعمارية شأن كل حكام المسلمين الذين اتجهوا إلى تخليد أسمائهم ببناء القصور والصروح والمساجد وغيرها من المؤسسات الاجتماعية والتعليمية؛ حيث ابتنى الناصر مدينة الزهراء هذه المدينة التي لم يتبقَ منها إلا آثار أطلال توضح أنه كان هنا مدينة..!!، قيل: إنه أثناء بنائها كان يُجلب لها يوميًّا من الصخور المستخدمة في البناء ستة آلاف صخرة، ناهيك عن الملاط الذي يستخدم لرصف هذه الصخور بعضها فوق بعض، وجلب الناصر إليها الرخام من قرطاجنة، وتونس، وكان يُعطي من جلبوا له هذا الرخام ثلاثة دنانير على كل رخامة؛ أما بالنسبة لساريات المسجد الذي بني فيها فجُلبت من سجلماسة، وكان يُعطي جالبيها ثمانية دنانير على كل سارية، وكان في المدينة من السواري ٤٣١٣ سارية، المجلوب منها من أفريقية ١٠١٣ سارية، وأهدى له ملك الروم ١٤٠ سارية، أما البقية فمن صنع الأندلسيين؛ وبالنسبة لقصره فيها، فقد وَضع فيه حوضًا غريب الشكل والهيئة، جُلب له هذا الحوض من القسطنطينية عن طريق البحر، فوضعه الناصر في المجلس الشرقي من قصر الزاهرة المعروف بالمؤنس، وأحاط هذا الحوض ب اثني عشر تمثالا من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس، هذه التماثيل التي تم تصنيعها بدار الصناعة بقصر قرطبة، وصدق ابن عذاري عندما وصفها - مدينة الزهراء - قائلًا: «فاعتبر بالزهراء كم بها من قصر شيد، وآثار ملوك صيد، قد عادت معاهدها بعدهم دارسة، وآثارها دونهم طامسة، تسفي الرياح بجنباتها، وتبكي الغيوم على عرصاتها».

صدق القائل:

سبحان من لا يبيد ملكه، ولا ينقطع عزّه..!!

كان الناصر إضافة إلى شغفه بالغزو والجهاد شغوفًا بالعمارة، لذلك لم يكتفِ بما شيده من أعمال معمارية سواء القصور أم الحصون والمدن، بل اتجه إلى التجديد والإضافة إلى العمارة التي شيدها مَن سبقوه من حكام بني أمية، فلم يترك منها موضعًا إلا وله فيه أثر حديث سواء بالتجديد أم التزيين والزيادة.

كان الناصر من أعظم رجال الأندلس؛ بل من أعظم ملوك العالم في زمانه، وذلك لأنه لم يكن كغيره من الحكام الذين يشيدون مباني لا تديرها إلا عقول فاسدة وأمزجة كاسدة، بل اتجه الناصر إلى بناء العقول قبل تشييد المباني، وعني بالمقاصد والمعاني ولم يحفل بالألفاظ والمباني، بهذا الاتجاه الذي سلكه الناصر ممثلًا في بناء العقول استطاع تحويل قرطبة خاصة إلى أشهر عواصم العالم آنذاك، و الأندلس عامة من أشهر دول العالم شرقًا وغربًا.

إن كان عبد الرحمن الأوسط قد قام بإرسال مَن يُحضر له الكتب النادرة من المشرق والمغرب، فقد جعل عبد الرحمن الناصر أهل الأندلس يرون الكتب المشرقية ويطلعون عليها قبل أن يراها أهل المشرق أنفسهم، وجعل من قرطبة سوقًا تجاريًّا تحضر له البضائع والمنتجات من شتى البقاع، فازدهرت في أيامه الأندلس أيما ازدهار، وخاصة بعد إعلان نفسه خليفة، وغدت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية، ونافست في عظمتها عظمة القيروان وبغداد والقاهرة وبخارى ودمشق، وأضحت قبلة العلماء والشعراء والكُتاب، وجعل عبد الرحمن ومن بعده ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ه/٩٦١-٩٧٦م) منها دولة قوية عزيزة الجانب، حتى ليمكن أن يقال إن قرطبة خاصة، والأندلس عامة لم تكن في عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهارًا في أي وقت مما كانت عليه في عهد الناصر، وابنه الحكم.

توفي الخليفة الناصر عام ٣٥٠ه/٩٦٢م، وعندما مات وجد مكتوبًا بخطه خطابٌ كتب فيه أيام السرور التي عاشها دون كدر أو حزن فترة حكمه التي بلغت خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، حيث كتب: «أيام السرور التي صفت لي دون تكدير في مدة سلطاني، يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا»، فعندما عُدّت تلك الأيام وجدوها ١٤ يومًا، وقد علق مؤرخونا على هذا الموقف تعليقًا يتضح منه أن الدنيا لا تبقى على حال، ولو كان بها صفاء لصفت لمن ملك الدنيا شرقًا وغربًا وجاءته الدنيا راغبة وراغمة، فمن جميل التعليقات على هذا الأمر وآثرت إيراده كما ورد دون تعديل أو تبديل حتى تعيشوا وتتذوقوا لذة المعاني مغلفة بعطر لغتنا العربية: «فاعجب أيها الغافل لهذه الدنيا، وعدم صفائها، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها، إن الخليفة الناصر ملك خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم يصفُ له من الدنيا إلا أربعة عشر يومًا، فسبحان ذي العزة العالية، والمملكة الباقية، تبارك اسمه وتعالى جده».

وعندما مات الناصر كان ممن رثاه جعفر بن عثمان المصحفي فقال:

ألا إن أيامًا هفت بإمامها
لجائرة مشتطة في احتكامها
فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها
وأحداثها إلا قلوب عظامها
تأمل فهل من طالع غير آفل
لهن وهل من قاعد لقيامها
وعاين فهل من عائش برضاعها
من الناس إلا ميت بفطامها
كأن نفوس الناس كانت بنفسه
فلما توارى أيقنت بحمامها
فطار بها يَأسُ الأسى وتقاصرت
يد الصبر عن إعوالها واحتدامها

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحكم المستنصر
(الحاكم العالم)

الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، كنيته أبو مطرف، أمه تدعى مِهرَجان، وقيل: مرجانة، ولد عام ٣٠٢هـ/٩١٥م، وتولى الخلافة وهو ابن سبع وأربعين وقيل ثمان وأربعين سنة، وشهرين، ويومين، وكان ذلك عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، وتوفي عام ٣٦٦هـ/٩٧٧م، فكانت مدة خلافته خمسة عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام، استغرقت خلافة أبيه الطويلة التي دامت خمسين سنة عمره، ومما يُروى أن أباه الناصر كان يداعبه قائلًا له: «طوَّلنا عليك يا أبا العاص»، نقش على خاتمه شأن سلفه «الحكم بقضاء الله راضٍ».

ابتدأ «الحكم» خلافته بالنظر في الزيادة التي ينبغي ضمها إلى المسجد الجامع بقرطبة، حيث حدث أن ازدحم الناس بالمسجد وتدافعوا حتى كادوا أن يهلكوا، فقرر الحكم توسعته والزيادة فيه، ومن ثَمّ أمر بإحضار المهندسين ومن لديهم خبرة بالبناء يستشيرهم في أمر الزيادة المطلوبة، واتفق معهم على هذه الزيادة ثم وكّل حاجبه أو إن شئت فقل ذراعه الأيمن جعفر بن عبد الرحمن المصحفي أن يتولى هذا الأمر، فتم للحكم ما طلب، واسْتُكمل البناء عل أكمل وجه، حتى قيل أن هذه الزيادة كانت من أفضل الزيادات التي أضيفت للمسجد من حيث متانتها وإتقانها وفي نفس الوقت منفعتها.

كما عني الخليفة «الحكم» بجلب الماء إلى المسجد، حيث جلبه من عين بجبل قرطبة، فحفر له قناة بباطن الأرض على قواعد هندسية متقنة، بعد أن جَلب إليها الصناع والبنائين المهرة الذين قاموا بتجويفها من الداخل بأنابيب الماء حتى يحتفظ الماء بصفائه وطهارته دون أن يتعرض لأي دنس، وفي هذا قال أحد شعراء الأندلس ويدعى ابن شُخَيص:

وقد خَرَقت بطون الأرض عن نُطف

من أعذب الماء نحو البيت تجريها

طُهر الجُسوم إذا زالت طهارتها

ري القلوب إذا حرَّت صَوَادِيها

قَرَنت فخرا بِأجر قَلَّما اقترنا

في أمة أنت راعيها وحاميها

كما قام الخليفة «الحكم» بإرسال وفد إلى ملك الروم لجلب الفسيفساء للمسجد الجامع، داعيًا إلى مجيء صانع من قبله لتركيبها، وعند حضور الصانع وشروعه لتركيب الفسيفساء عمد «الحكم» إلى جعل عدد من مماليكه يرافقونه لتعلم الصناعة، فوضعوا أيديهم معه في الفسيفساء المجلوبة، وصاروا يعملون معه، فأبدعوا وأربوا عليه واستمروا بعد ذلك متفردين دون هذا الصانع الذين أخذوا عنه الصنعة.

ولعل السبب في تمكن الأندلسيين من تعلم الحرف والصناعات وتفوقهم فيها على معلميهم أن الطالب فيهم الذي لم يوفق في طلب العلم كان يسعى إلى تعلم إحدى الحرف أو المهن حتى يتميز فيها لذلك نجد صاحب نفح الطيب يصفهم قائلًا: «إنهم أهل الأندلس أحرص الناس على التميز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يُرى فارغًا عالة على الناس، لأنّ هذا عندهم في غاية القبح».

أيضًا مما وصف به أهل الأندلس أنهم: «هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم، بغداديون في ظرفهم ونظافتهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدّة أفكارهم ونفوذ خواطرهم»؛ كما وصف أهل الأندلس أيضًا بأنهم «صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية»، وهو ما يدل على ما تميز به أهل الأندلس إضافة إلى كثرة العلم وتنوعه من سعة الأفق واحتدام الذكاء.

عقب اكتمال الزيادة التي قررها «الحكم» في المسجد الجامع بقرطبة، أحضر العلماء والفقهاء والوجهاء والأعيان والأئمة والقضاء فاجتمعوا في حشد عظيم بمناسبة هذا العمل الكريم، ووسط هذا الحشد حمد «الحكم» الله جل وعلا وأثنى عليه بما هو أهله أن خصّه بهذه النعمة ممثلة في هذه الزيادة، وتعبيرًا منه عن شكره لربه تبارك وتعالى، أعلن في وسط هذه الجموع العريضة وقف ريع ما يجنيه من ثروته التي ورثها عن أبيه الناصر في أقطار الأندلس على الضعفاء والمسكين، عامًا بعد عام، فيما عدا لو حدثت مجاعة في الأندلس ففي هذه الحالة يتم توزع الثمار والغلال بحسب ما تقتضيه الظروف حينها، وعقب انتهاء المجاعة يعود الوقف كما كان حكرًا على الضعفاء والمساكين والمحتاجين.

لم يكتفِ «الحكم» بذلك بل كلل عمله محاولًا الوصول به إلى الكمال المستطاع في سبيل خدمة رعيته ومن ثم النهوض بدولته بإنشاء دار للصدقة بالجانب الغربي للمسجد وذلك لتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين كلا وفق حاجته، كما أقام الكتاتيب حول المسجد الجامع بقرطبة وعين لها المؤدبين والمعلمين لتعليم أبناء الفقراء والمساكين القرآن واللغة وغيرها مما

يتم تدريسه ويتوافق وأعمار هؤلاء الأطفال أو النشء، وفي ذلك نظم ابن شخيص قائلًا:

وساحة المسجد الأعلى مكللة

مَكاتِبًا لليتامى من نواحيها

لو مُكِّنت سور القرآن من كلم

نادتك: يا خير تاليها وواعيها

لم تكن الكتاتيب التي أنشأها الحكم حكرًا على الكتاتيب التي نشرها حول المسجد الجامع بقرطبة، إنما أنشئت الكتاتيب في أرباض قرطبة أيضًا البالغة واحدًا وعشرين ربضًا، وقيل إن عدد هذه المكاتب كانت ٢٧ مكتبًا منها ثلاثة حول المسجد الجامع والباقي موزعون على أرباض المدينة، هذا بالنسبة لمدينة قرطبة فحسب، وبالطبع فإن المدن الأندلسية لم تكن تخلو من هذه الكتاتيب خاصة أن المدارس في الأندلس لم تكن قد أنشئت بعد، وكان التعليم فيها مقتصرًا على هذه المكاتب إلى جانب المساجد، إضافة إلى أماكن أخرى للتعليم إلا أنها لم تكن رسمية مثل: الزوايا والأسواق خاصة أسواق الوراقين، ومنازل العلماء وغيرها.

عقب إتمام الخليفة «الحكم» لهذا العمل توجه مباشرة إلى غزو بلاد الروم، فأحاط ببلادهم، وفتح بها الكثير من الحصون، والمدن، وسبي وغنم الكثير، ثم عاد إلى قرطبة ظافرًا غانمًا، وفي نفس هذا العام قام بالكتابة إلى عماله وقواده في جميع أقطار الأندلس ينبههم أن يكونوا دومًا على أتم استعداد بالعدة والعتاد للإذن لهم في أي لحظة لغزو العدو المتربص الذي ينتهز الفرص للانقضاض على المسلمين واستئصال شأفتهم.

كما حدث في نفس العام الذي ولي فيه «الحكم» الخلافة خلفًا لوالده، أن لجأ إليه أحد ملوك الجلالقة ويدعى أردون بن إذفونش الأحدب، مستجيرًا به على إثر نزاع دار بينه وبين ابن عمه على العرش، فاستقبله الحكم وأكرمه، وقد أنشد الشعراء في هذا الحدث الكثير من الأبيات الشعرية، ومنها على سبيل المثال قصيدة لعبد الملك بن سعيد قال فيها:

مَلِكُ الخِلافة آية الإقبال

وسُعودُه موصولة بتوالي

فالمسلمون بعزة وبرفعة

والمشركون بذلة وسفال

ألقت بأيديها الأعاجم نحوه

متوقعين لصولة الرئبال

هذا أميركم أتاه آخذا

منه أواصر ذمة وجبال

كما كان «الحكم» مقتديًا بوالده عبد الرحمن الناصر في قيادة جيوش الغزو بنفسه، كذلك كان أبوه قدوة له في دوام النظر في أمور رعيته والوقوف على تدبير شؤونها بنفسه، فكان يتجول في المدن الأندلسية بنفسه لمعاينة ما استكمل بها من التحصينات من جهة، ومطالعة أحوال رعيته من جهة أخرى؛ وعندما حدثت مجاعة عظيمة بقرطبة عام ٣٥٣هـ/٩٦٥م تكفل «الحكم» ب فقرائها ومساكينها وأجرى عليهم الأرزاق والنفقات بكل ربض من أرباض قرطبة التي بلغت إحدى وعشرين ربضًا، وبالطبع هذا ليس فضلًا منه، وإنما واجبه بحكم تصدره لإمرة الناس، ولكن كم منا يعلم واجبه تجاه من حوله أو من هم تحت كفالته أو حتى تجاه نفسه..!!

كان الخليفة «الحكم» على الرغم من ورعه وبساطته يشتد مع عماله على الولايات ويحذرهم من سطوته وعقوبته إذا ما وصل إليه أن أحدهم استزاد على الرعية في شيء من متطلباتها أو مستلزماتها وشؤونها، لذلك عندما حدث في عام ٣٥٦هـ/٩٦٧م أن قام الولاة على المدن والأقطار الأندلسية بزيادة الضرائب والضغط على الرعية في تحصيلها، وفور علم الخليفة الحكم بذلك كتب إلى جميع عماله على ولايات الأندلس يعنفهم على تجرئهم للإقدام على مثل هذا الفعل، مضمنًا مخاطبته بالتحذير من سطوته وعقوبته لهم إذا ما اتصل بسمعه أن أحدهم تجرأ على هذا الفعل مرة أخرى؛ وفي نفس هذا العام أنفذ الحكم رسائله إلى القواد والعمال بأقطار مملكته ينكر عليهم ما قام به البعض منهم من سفك دماء البعض الآخر بلا عهد ولا مشورة، وعظم هذا عنده، وأنه يتبرأ إلى الله جل وعلا من شنيع فعلهم.

هذه المواقف وغيرها ترسم صورة واضحة لشخصية الحاكم المتيقظ لشؤون دولته وما يدور بها من فتن وفساد، فنجده يجند من يوصّل لعلمه كل شاردة و واردة عن عماله الذين استأمنهم على إدارة شؤون رعيته وتدبير أمورها في زمن ضعفت فيه وسائل التواصل والاتصال، ولم يكن يقف عند حد العلم ثم يلعب دور المتفرج أو موقف من يقع على سمعه أو يمر عليه الحدث عابرًا وكأنه لم يسمع ولم يرَ، بل كان يبادر على الفور للتوجيه بتصحيح هذا الأخطاء التي يقع فيها عماله دون استئذانه أو أخذ مشورته وإلا تعرضوا لسخطه وعقوبته.

ظل «الحكم» عقيمًا ولم يولد له ولد حتى دخل سن الخمسين من عمره، وكان تَقَدُّم سنه موصولًا بعدم إنجابه من الأمور التي تشغله وتعكر عليه صفو حياته وإن لم يؤثر ذلك على نظره في شؤون دولته وتدبير أمور رعيته، إلا أن قدرة الله تبارك وتعالى شاءت أن تحمل إحدى جواريه وتدعى أم جعفر أو جعفر كما كان يناديها على حسب ما روي عنه، فسُر بذلك وفرح فرحًا شديدًا، وظل مترقبًا هذا الحمل حتى جاءه صبي أسماه عبد الرحمن، إلا أنه لم يلبث هذا الطفل أن مات فحزن عليه حزنًا شديدًا، وعقب ذلك بشر بحمل جاريته صبح البشكنسية التي أنجبت له ابنه هشام الذي لقب عقب توليه الخلافة بالمؤيد؛ وقيل: إن هذه الجارية التي كان ينعتها بجعفر هي نفسها صبح البشكنسية.

ولد هشام بن الحكم عام ٣٥٤ه/٩٦٥م، وكان عام غيث ومطر اخضرت فيه الأرض وأثمرت، وعمَ فيه الخير والرخاء؛ هنا لابد من إشارة بسيطة أنه من غرائب الأقدار أن يولد «الحكم» في عام قحط ومجاعة مما أدى إلى الضرر والأذى لكثير من أهل الأندلس في حين أن هشام المؤيد ولد في عام غيث ومطر ونعم الناس بهذا الرخاء والنعيم، مع ذلك فإن العام الذي ولد فيه «الحكم» تبعه أعوام من الرخاء والنعيم والازدهار على كافة المستويات الاجتماعية ممثلة في عهد أبيه ثم عهده المكمل لعهد أبيه حتى أطلق على هذه الفترة أنها العصر الذهبي للأندلس، في حين نجد عام الرخاء التي قدم فيها هشام المؤيد قد تبعه أعوام من الفتن والاضطرابات ذاق فيها الناس صنوفًا من عدم الأمن وضيق العيش.

لكل شيء إذا ما تم نقصان

فلا يُغر بطيب العيش إنسان

هي الأيام كما شاهدتها دول

من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تُبقي على أحد

ولا يدوم على حال لها شان

كان «عبد الله» و»الحكم» ابنا الناصر من محبي العلم المتنافسين في طلبه، سمعًا وأخذًا عن الكثير من علماء زمانهما، وعلى الرغم أن «الحكم» فاق أخاه في طلب العلم والتوغل فيه، إلا أن «عبد الله» كان له البعض من المؤلفات التي تدل على علمه وفهمه وتشهد بشرف ذاته وكمال أدواته منها كتاب «العليل والتيل في أخبار ولد العباس»، انتهي به إلى خلافة الراضي بن المقتدر، وكتاب «المسكنة في فضائل بقي بن مخلد»؛ وكان «عبد الله»

وأخوه «الحكم» دائمي المنافسة في طلب العلم والتقرب إلى أهله مسابقين لزيادة ودوام الأعطيات لهم، ناهيك عن تنافسهما في اقتناء الكتب النادرة، هذه الكتب التي أضحت عقب موت «عبد الله» ملكًا ل «الحكم»، وقد تحولت هذه المنافسة فيما بعد إلى المنافسة السياسية نظرًا لاستئثار الناصر بابنه «الحكم» لولاية العهد دون أبنائه، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في إطار الحديث عن أبيهما الناصر.

كان الخليفة الحكم من ذوي الفضل والعلم، شغوفًا باقتناء الكتب كل الشغف، لا توجد لديه لذة تطغى على هذه اللذة سوى تصفح ما يقتنيه منها، هذا الشغف بالكتب جعله يرسل رجاله يجوبون الأقطار شرقًا وغربًا ليحضروا له ما استطاعوا من نفائسها وكان يجازيهم على ذلك بأعلى الأثمان دون تفكير، فجُلبت له الكتب من الأقطار، وامتلأت بها قصوره، بل ضاقت عليها الخزائن أو المكتبات التي توضع بها هذه الكتب، حتى إنه ذُكر أن خزانة العلوم والكتب بدار بني أمية كانت تحوى من الفهارس التي فيها أسماء الكتب أربعًا وأربعين فهرسة، وفي كل فهرسة عشرون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين، كما قيل: إن الخزانة شملت أربعمائة ألف مجلد، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها.

كان من الكتب التي أرسل الخليفة الحكم في طلبها، كتاب «الأغاني» لأبى الفرج الأصفهاني، حيث أرسل الخليفة الحكم إلى أبى الفرج بألف دينار من الذهب نظير هذا الكتاب، فأرسل له الأخير نسخة منه قبل ظهوره في العراق، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن الحكم.

وكان الحكم إضافة إلى حبه الشخصي للعلم، محبًا لأهله مقربًا ومكرمًا لهم، مجزلًا لهم العطايا والهبات فاق في ذلك أباه الناصر، كما أنه كان محفزًا ومشجعًا لطلابه بسلك دروبه، ولم تقف أعطياته لأهل العلم عند حد القطر الأندلسي بل تعدته إلى غيره من الأقطار النائية في المشرق والمغرب، ف كان من العلماء الذين أجزل لهم العطايا على الرغم من عدم استقراراهم في الأندلس أبا إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان وأصله أندلسي إلا أنه كان من كبار فقهاء المالكية الذين تصدروا ل نشر العلم وتدريسه في مصر، وقد سبق أن أرسل له الخليفة الناصر عشرة آلاف دينار ليوزعها على فقهاء المالكية في مصر، وهنا يلحظ القارئ الكريم اقتداء الحكم بوالده في كل أفعاله الخيرة والتي كانت سببًا في تقدم الأندلس ووصولها إلى عصرها الذهبي، كذلك ممن حاز هبات الحكم أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي.

بأبه اقتدى عدى في الكرم

ومن يشابه أبَه فما ظلم

لم يكتفِ الخليفة الحكم بجلب الكتب من المشرق والمغرب، بل عني كذلك بجمع الحذاق من الصناع والمهرة في النسخ والضبط والإجادة والتجليد وغيرها مما يتعلق بشؤون الكتابة في قصورهم حتى يقوموا بنسخ وضبط وتجليد ما يريدونه من مؤلفات، فنجده يعين هؤلاء النساخ الخاصين به، ويوكل لهم مهمة نسخ كتب بعينها عدة نسخ للمحافظة عليها من الضياع أو الاندثار إذا ما تعرضت لنوائب الدهر، وكان هؤلاء النساخ بعد أن ينتهوا من مهمة نسخ هذه الكتب يقابلونها بالنسخة الأصلية، وذلك تأكيدًا منهم على إتقانها وصحة ضبطها، بل بلغت عناية الخليفة الحكم بالكتب أنه كان يختار كبار العلماء في الدولة ليقوم بالإشراف على هؤلاء النساخ أثناء نسخهم ومقابلتهم للنسخ التي نسخوها من المؤلف الذي طلب منهم، ومن الأمثلة على ذلك طلبه من أبي علي القالي أن يشرف على بعض النساخ الذين يقومون بنسخ ومقابلة كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي.

وصل تشجيع الخليفة الحكم للعلم وتقريبه لأهله، وإنزالهم المنازل العليا أن بعض العلماء كانوا يقومون بتأليف بعض الكتب خصيصًا له؛ مثل: خالد بن سعد([22]) ت ٣٥٢ه/٩٦٣م الذي ألف كتابًا في تراجم رجال الأندلس، كما ألّف الأصفهاني كتابًا مخصوصا للحكم في أنساب قومه بني أمية ومناقبهم ورجالهم، تخليدًا لمجدهم، فجاء في أحسن تأليف وهيئة، ثم أرسله إلى الحكم في قرطبة ومعه قصيدة ذكر فيها مجد بني أمية وفخرهم على سائر قريش، وكان الأصفهاني من المتقنين المتفننين في نظم الشعر، وقد أرسل له الحكم مقابل ذلك هدية أخرى.

وكان لشغف الحكم بعلم الأنساب خاصة دون سائر العلوم، أن قام بالإرسال في أقطار الأندلس أن يقوم العلماء بتصحيح الأنساب، ورد كل ذي نسب إلى نسبه، لما علم من الأغلاط التي تقع في الأنساب، فاستجاب العلماء في الأمصار لأمره، وانتفع بهذه المؤلفات واستفيد بها فيما بعد في حفظ هذه الأنساب والاعتماد عليها، ولم يكن الاهتمام بالكتب والحرص على دعوة العلماء لتأليفها مقتصرًا على الحكام الأمويين فحسب؛ بل امتد هذا الاهتمام إلي ولاتهم على الأمصار.

هذه العناية التي أولاها الحكام الأمويون وولاتهم على الأمصار بالعلم وأهله أدت إلى طمي بحر التأليف في الأندلس والذي تميز إلى جانب كثرته بتنوعه، ومما يدل على ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما روي عن ابن حزم الأندلسي الذي قال عنه ابنه أبو رافع الفضل: «اجتمع عندي بخط أبي من تواليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة»؛ بل بلغ من توقد ذهن الأندلسيين أن المؤلف الواحد لديهم كان يتضمن عدة أجزاء

بلغت في بعض الأحيان المائة، ومن الأمثلة على ذلك كتاب «العالم» لمؤلفه ابن سيده اللغوي([23]) ت ٣٨٢ه/٩٩٢م، وهو مؤلف في اللغة بلغ كما ذكر نحوًا من مائة سفر.

أيضًا مما يدل على توقد ذهن الأندلسيين وعلو همتهم وعنايتهم بتحصيل العلوم والآداب والفنون ما روى عن أبي علي القالي أنه كان دائم التعجب من ذكاء أهل الأندلس حتى إنه كان في بعض الأحيان يمتنع عن الدخول معهم في المباحثات والنقاشات قائلا لهم: «إن علمي علم رواية، وليس بعلم دراية، فخذوا عني ما نقلت، فلم آل لكم أن صححت»، وذلك بالرغم مما اشتهر عنه من سعة العلم والفضل، ولعل كان من أسباب براعة الأندلسيين في العلوم والفنون التي اعتنوا بها أن العالم فيهم كان يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه، وقد كان هذا الباعث كثيرًا ما يدفعه إلى ترك العمل الذي يستفيد ويكتسب منه، وينفق من عنده حتى ينال حظه من العلوم والفنون التي يريدها.

كان بجانب شغف الحكم باقتناء الكتب وقراءة ما تقع عليه يده منها، دائم التصحيح لها، ف بلغ من سعة علمه إلى حد أنه كان ملمًا بكثير من فروع العلم والمعرفة خاصة العلوم العقلية حتى ذكر عنه أن خزائن كتبه التي كانت تضم بين طياتها ما يربو عن أربعمائة ألف مجلد قلما يوجد بها كتاب إلا وله فيه «قراءة أو نظر في أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن»، كما كان يذكر أنساب الذين أخذ عنهم المؤلف أو أخذوا عنه بحكم معرفته الواسعة بالأنساب، بل كان يسطر في هذه الكتب من الغرائب التي لا تكاد يعرفها غيره من كثرة ما قرأ من الكتب وسمع عن العلماء، وكان لثقة العلماء في علمه وفضله ناهيك عن أمانته، يتناقلون هذه الإضافات التي كانت تسطرها يده ويعتمدون عليها في مجالسهم ومؤلفاتهم، ويستشهدون بها.

كما كان للحكم وراقون يجوبون أقطار البلدان والأقاليم الإسلامية شرقًا وغربًا يتخيرون له غرائب الكتب وأندرها، وكان من وراقيه في بغداد محمد بن طرخان، حتى قيل عنه: «جمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من ملوك الأندلس قبله، وذلك بإرساله فيها إلى الأقطار وشرائه لها بأغلى الأثمان»، وقيل في موضع أخر: «جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسةَ»، وكان من نتائج ذلك كما روى المؤرخون أن المكتبة الخاصة الموجودة في قصره هو فحسب دون باقي المكتبات كانت تحوي من الفهارس أربعًا وأربعين فهرسة، كل فهرسة تتكون من خمسين ورقة، ليس بها إلا أسماء الدواوين أو أقسام الكتب.

مما سبق يتضح أن الحكم لم يكن من محبي اقتناء الكتب تباهيًا بها أو من قبيل الزينة فحسب، أو مرضًا أُصيب به كما أُصيب به الكثيرون في زماننا ممن يشترون الكتب لكي يزينوا بها جدران المنزل وهذا في حالة التخلي عما يدعى النيش الذي ليس لديه وظيفة سوى أن تمر عليه الأجيال تلو الأجيال دون أن يستطيع أحد منهم مساس ما يحتويه، وكأنه سطر على واجهته «ممنوع الاقتراب، حقل ألغام»..!!، فنحن لا نطلب هذا ولا ذاك، لا نطلب إنسانًا يقتنى الكتب ولا يفكر مجرد التفكير أن يفرد لها الوقت حتى يعلم ما فيها، ولا نطلب أن تخلو بيوتنا من المكتبة التي تحوي ولو القليل من الكتب التي نستفيد منها، وبالطبع أن يوجد من لا يهتم بالكتب والقراءة البتة فهذا ليس موضع حديثنا عنه لأنه لا يعقل أن ندعو للقراءة أمة كان من أول الأوامر الإلهية التي أنزلت عليها «اقرأ»..!!

كان الحكم من أهل الدين والعلم، دائم البحث والتدارس للعلوم الشرعية من فقه وحديث وغيرها من ضروب العلم على تباينها، لذلك عمل على قطع الخمر في الأندلس فأمر بإراقتها وتشدد في ذلك، وكان من الورع والتدين أنه عمد إلى استئصال شجرة العنب التي يصنع منها الخمر فقيل له: إنه يصنع من التين وغيرها، فرجع عن ذلك؛ كما كان له اهتمام خاص بالقراءة في الأنساب، ومعرفة تواريخ القبائل، حتى إنه في مجالسه التي يحفها العلماء والفقهاء في مختلف ضروب العلم، كان دومًا ما يعرف لمن يجهل نسبه أو انتمائه بهذا النسب أو الانتماء أو الأصل الذي ينتمي إليه، وذلك إذا ما لاحظ أو تبين له جهله بنسبه وأصله.

هذه القراءات في فنون العلم ودروبه، ومجالسة العلماء غرست في روح الخليفة الحكم صفتين من أعظم الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الرجال الذين يودون أن يصنعوا التاريخ أو أن تكون لهم بصمة واضحة فيه تظل تتداولها الأجيال جيلًا تلو جيل، هاتان الصفتان ممثلتان في الحلم والأناة، ولعل أبرز المواقف التي توضح هاتين الصفتين لدى الخليفة الحكم ردة فعله عندما أرسل له العزيز بالله الفاطمي (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م) بخطاب يسبه ويهجوه فيه، وهنا لم يكن من الحكم إلا أن يرد عليه بخطاب سطر فيه: «أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك، والسلام». فاشتد ذلك على العزيز بالله الفاطمي وأفحمه عن الجواب.

كذلك كان الحكم من الشخصيات التي تحمل من أخلاق الإخلاص والوفاء أعلاها، ويتضح ذلك في إخلاصه ووفائه لمعلمه ومربيه عثمان بن نصر القيسي، فنفس الحكم لم تحدثه أنه الأمير سليل الأمراء والخلفاء من بني أمية، وأن معلمه مربيه هذا قام معه بواجبه الذي أوكله له والده الخليفة الناصر وأجرى عليه الأموال والهدايا في مقابل ذلك، بل نجده يَبر معلمه

ومربيه في ابنه جعفر المعروف بجعفر المصحفي، الذي قربه منه وأدناه حتى أضحى ساعده الأيمن على ما سيأتي التفصيل فيه في إطار حديثنا عن المنصور بن أبي عامر.

هنا لابد أن نتجه أخي القارئ وأختي القارئة إلى إسقاط هاتين الصفتين ممثلتين في الإخلاص والوفاء للمعلمين والمربين الذين شملونا بعنايتهم وتوجيهاتهم وإرشاداتهم كلٌّ بقدر استطاعته وعلى مقدار شخصيته إلى أن وصلنا إلى ما وصلنا إليه، نتجه إلى إسقاطهما- الإخلاص والوفاء - علينا نحن جيل الشباب والفتيات، الباحثين والباحثات، طلاب العلم وطالباته، ترى إلى أي درجة نحمل الإخلاص والوفاء لمعلمينا؟!! بل من منا يحترم معلمه ويقدره قولًا وفعلًا؟!! بل من منا يتذكر أسماء معلميه ويعرف موطنهم وماذا فعلت الدنيا بهم؟!! وإن كان منا من يعرف، فماذا قدم إخلاصًا ووفاءً لهم؟!!.

يؤسفني أن أقول إننا نعيش في زمن الشعارات التي جمع الكثير منها بين الخطأ وعدم التطبيق، ومنها على سبيل المثال «من علمني حرفًا صرت له عبدًا»، نحن لم يطلب منا أن نصبح عبيدًا لمن علمونا ولو حرفًا لأن من أهداف العلم هو تحررنا من العبودية للعباد والعيش في مناخ الحرية بالخضوع لرب العباد، وإنما المطلوب منا أن نقدر ونحترم ونخلص ونفي لمن علمونا.. مطلوب أن نبحث عنهم ونسأل عنهم.. أذكركم ونفسي لأنني أول المقصرين في هذا الأمر..

قف للمعلم وفَّه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا

أعلمت أشرف أو أجل من الذي

يبني وينشيء أنفسًا وعقولا

نشطت الحركة الفكرية في الأندلس وازدهرت وأصبحت المدن الأندلسية تعج بطلاب العلم والعلماء، وصارت المساجد والمدارس والزوايا وغيرها من المؤسسات العلمية تشهد المناقشات الفقهية واللغوية والأدبية وغيرها من العلوم التي حفلت بها بلاد الأندلس، وصارت المدن الأندلسية نجومًا تتلألأ بما فيها من علماء ومعارف وعلوم.

يأتي في مقدمة المدن الأندلسية التي ازدهرت فيها الحركة الفكرية بل وكانت عبارة عن نبراس أضاء الطريق للمدن الأندلسية الأخرى التي حذت حذوها في الازدهار والسير قدمًا نحو الرقي والنماء والتطور مدينة قرطبة - عاصمة الخلافة - حيث كان العلماء يشدون إليها الرحال من المشرق والمغرب ليعيشوا في كنف حكامها الذين لم يدخروا جهدًا في تشجيع العلماء

على البقاء بجوارهم لتزدان بهم عاصمتهم وليستزيدوا من علومهم ومعارفهم؛ ومن هنا صارت قرطبة مهبطًا لرواد الثقافة من أعلام الفكر سواء من المشرق أو المغرب حتى أصبحت تضاهي بغداد من حيث ازدهار العلوم وكثرة العلماء وطلاب العلم بها، خاصة بعد أن طلب عبد الرحمن الناصر بالنداء في جميع أقطار الأندلس «ألا من أراد أن يبتني دارًا أو أن يتخذ مسكنًا بجوار السلطان فله من المعونة أربع مائة درهم».

بلغت قرطبة أوج عظمتها وازدهارها الحضاري في عهدي الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر؛ وذلك لما تمتعت به البلاد من استقرار أمني ورخاء اقتصادي لم تشهده من قبل ولا من بعد، وصارت مدينة قرطبة في ظل الخلافة الأموية أكبر مدن العالم بعد القسطنطينية، وقد وصفها المؤرخون والجغرافيون العرب، وأشادوا بعظمتها وتفوقها على سائر مدن الأندلس، إذ «كانت قاعدة الأندلس وقطبها وأم مدائنها ومستقر خلفائها، ودار المملكة في النصرانية والإسلام»، ويشهد الرحالة ابن حوقل مع ما هو معروف عنه من عداء للأمويين بهذه العظمة في قوله: «أعظم مدينة بالأندلس قرطبة وليس بجميع المغرب لها شبيه، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال، وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق»، وبهذا تفوقت قرطبة على سائر المدن الأندلسية الأخرى، وظلت تنعم بهذا التفوق زمنًا حتى سقطت الخلافة الأموية، ودخلها البربر في عام ٤٠٠ه/١٠١٠م، حيث حولوا أثارها إلى أنقاض، وقضوا على عمرانها وما تميزت به من مظاهر حضارية، ومع ذلك فقد احتفظت قرطبة بتفوقها في الميادين الأدبية والفنية، واستمرت هكذا حتى سقوطها في يد القشتاليين عام ٦٣٣ه /١٢٣٦م.

ويجمل لنا أحد الشعراء ما تفوقت به قرطبة على غيرها من المدن الأندلسية بقوله:-

بأربع فاقت الأمصار قرطبة

وهى قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة

والعلم أكبر شىء وهو رابعها

كما أشاد بها أحد العلماء ويدعى الحجازي قائلًا: «كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام، ومجمع علماء الأنام، بها استقر سرير الخلافة المروانية، وفيها تمخضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية، وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء،

ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب، ويباري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب، ولم تبرح ساحتها مجرى عوال ومجرى سوابق، ومحط معال وحمى حقائق، وهي من بلاد الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، والزور من الأسد، ولها الداخل الفسيح، والخارج الذي يمتع البصر بامتداده لا يزال مستريحًا وهو من تردد النظر طليح».

كانت قرطبة من أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وكان أهلها أشد الناس اعتناءً واهتمامًا بالمؤلفات والمصنفات في مختلف العلوم والآداب والفنون حتى إن لم يكن للشخص منهم غرض من هذه الكتب كان يجعل له في منزله مكتبة تحوي مختلف العلوم للتباهي والتفاخر بها، وقد أورد في ذلك صاحب نفح الطيب قائلًا: «وهى أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن يكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها؛ ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به».

كما كان أهل قرطبة على قدر حبهم للعلوم والآداب والفنون، محبين أيضًا لمدينتهم قرطبة مفتخرين بها في كل موضع تطؤه أقدامهم، وكل مجلس يحفهم، ومما ورد في ذلك أنه قامت مناظرة بين ابن رشد القرطبي، وابن زهر الإشبيلي في حضرة ملك المغرب المنصور يعقوب الموحدي، رد ابن رشد فيها على ابن زهر قائلًا: «ما أدرى ما تقول: غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية، قال: وقرطبة أكثر بلاد الله كتبًا».

ينبغي الإشارة هنا إلى أنه يعود الفضل في ازدهار قرطبة، وجعلها تعج بصنوف العلماء والأدباء، ومختلف الكتب والمصنفات التي تحوي جميع العلوم والفنون والآداب إلى حكام بني أمية الذين أولوا العلم وأهله كل عناية ورعاية واهتمام خاصة الخليفة الناصر وابنه الحكم، الذي فاق أباه في عنايته بالكتب والعلم والعلماء، فلم يكتفِ الحكم بإرسال رجاله إلى المشرق لشراء ما ندر من كتب وإحضارها له، بل «أقام للعلم والعلماء سوقًا نافقه جلبت إليها بضائعه([24]) من كل قطر».

وفَدَ إلى سوق الوراقين بقرطبة كل راغب في اقتناء الكتب، سواء كانت غايته الإفادة منها، أو المباهاة بها؛ حيث اشتهر الأندلسيون وبخاصة في العهد الأموي بعنايتهم الشديدة بالعلم، وحرصهم على اقتناء الكتب، حتى إن الجاهل منهم والذي لم يوفق إلى العلم، ويكون على درجة من الثراء كان يقتني ويحرص على أن تكون له مكتبته الخاصة التي يفتخر بما تضمه من كتب، ومن طريف ما ذكر عن أهل الأندلس بهذا الشأن ما أورده المقري التلمساني في

مؤلفه الزاخر «نفح الطيب» حيث قال: «قال الحضرمي: أقمت بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط جيد وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة علىّ، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلت له: يا هذا، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي، قال: فأراني شخصًا عليه لباس رياسة، فدنوت منه، وقلت له أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه، قال: فقال لي: لست بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير؛ قال الحضرمي: فأحرجني، وحملني على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيرًا إلا عند مثلك، يعطى الجوز من لا عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب، وأطلب الانتفاع به، يكون الرزق عندي قليلًا، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه».

يعلق خوليان ريبيرا على هذا الموقف قائلًا: «ولكن الإعجاب الحقيقي بالكتاب انحدر فيما بعد، وأصبح مجرد عبث لا طائل من تحته، وأخذ لونًا شكليًا صرفًا، فالخاصة، والذين يريدون الزهو بأن لديهم مكتبة فحسب، لم يتركوا لغيرهم فرصة الحصول عليه، وما أكثر المرات التي تراجع فيها عشاق الكتب الحقيقيون، ومن يعرفون كيف يقدرون محتواها أمام راغب فيه واسع الثراء، خلال «المزايدات» التي كانت تشهدها قرطبة، يدفع في الكتاب أي ثمن، ويبذل كل جهده للحصول عليه، ولكنه لا يعرف عما يتحدث، وكل ما هنالك أن تجليده فخم، أو أن حجمه مناسب ليملأ فراغًا محددًا كان بالصدفة موجودًا في أرفف مكتبته».

هذه الحادثة لا تعبر بحال من الأحوال عن انحدار الاهتمام بالكتب كما يذكر ريبيرا، فمثل هذه الحادثة لا ينبغي أن نعممها على جميع المعنيين بشراء الكتب والمهتمين بها على أنهم لا يقومون بشرائها إلا في سبيل الفخر والخيلاء أمام الخاصة أو العامة؛ بل إن هذه الحادثة توضح إلى أي مدى بلغ الاهتمام بالكتب في الأندلس، من حيث الذهاب والتجول في أسواق الوراقين بحثًا عنها، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الحصول عليها حتى لمن لا يريدون منها شيئًا، ولا علم لهم بما تحوى بين دفتيها، فمثل هذه الحادثة لا تدل على انحدار الاهتمام بالكتب، بقدر ما تدل على الازدهار الذي وصل إليه المجتمع الأندلسي حتى إن العامة والخاصة على حد سواء يحرصون كل الحرص على أن لا تخلو منازلهم من مكتبة تضم بين رفوفها مختلف ألوان العلوم والآداب والفنون.

ما سبق لا يعني أن المدن الأندلسية الأخرى قد خلت من أي وجه من أوجه النشاط العلمي والمعرفي أو غيره من أوجه النشاط الإنساني واقتصر هذا النشاط على قرطبة؛ بل على العكس فقد اشتهرت إشبيلية بعلمائها حتى في عهد ملوكها من بني عباد في القرن الخامس الهجري (العاشر الميلادي)؛ ولعل من دلائل نهضة إشبيلية وتألقها العلمي، أنه كان بها سوق خاصة بالكتب مثلها مثل قرطبة، ويتردد إلى هذا السوق أهل العلم والأدب، بحثًا عن نفائس الكتب ونوادرها، هذا بالإضافة إلى أنه كان لعناية أهلها بالكتب واشتغال الكثير منهم بتجارتها أن كان بها شارع يسمى شارع الوراقين؛ كذلك نشطت الحركة العلمية في طليطلة، وبلنسية، وغرناطة، وغيرها من المدن الأندلسية الأخرى حتى في عهد ملوك الطوائف، وذلك بالرغم من تشرذمهم وتطاحنهم إلا أنهم اهتموا بالعلوم وأنفقوا على أهلها وطلابها، ومما يدل على ذلك أنهم كانوا غالبًا ما يتباهون فيما بينهم كما أورد صاحب نفح الطيب مرددين: «العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني».

إن تدفق الأموال على قرطبة عاصمة الخلافة خاصة، والمدن الأندلسية عامة، وازدهار الحياة الاقتصادية بها ساعد على استقرار أوضاع البلاد، وهذا بدوره هيّأ المناخ العلمي المناسب لطلاب العلم، مما أدى إلى إقبالهم على العلم بشغف ونهم، وسلكهم كل ما تيسر لهم من سبل للبحث عنه وتحصليه؛ بل إن هذا الاستقرار الأمني، والرخاء الاقتصادي، والإقبال على تحصيل العلم، دفع الكثير من أبناء الأندلس للارتحال إلى المشرق لكي يتمكنوا من تحصيل العلوم من منابعها الأصلية.

كانت الرحلة من الأندلس إلى بلدان العالم الإسلامي والعكس أحد العوامل التي ساهمت في انتقال العلوم الإسلامية إلى الأندلس سواء كانت كتابة أو شفاهة، ف كان من الأندلسيين الذين أسهموا في نقل علوم المشرق إلى الأندلس أحمد بن يبقي الجذامي([25]) ت ٣٧٨هـ/٩٨٨م، الذي أدخل إلى الأندلس كتبًا غريبة، تفرد هو بروايتها دون غيره، وكان محمد بن مفرج المعافري([26]) ت ٣٧١هـ/٩٨١م أول من أدخل كتب «إعراب القرآن» و«المعاني» و«الناسخ والمنسوخ» إلى الأندلس، ورحل قاسم بن ثابت([27]) ت ٣٠٢هـ/٩١٤م إلى المشرق مع أبيه فسمعا عن علماء مصر ومكة، واعتنيا بجمع الحديث واللغة، فأدخلا الأندلس علمًا كثيرًا، ويقال إنهما أول من أدخل كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي إلى الأندلس، وأدخل محمد بن عبد الله بن الغازي([28]) ت ٢٩٦هـ/٩٠٩م إلى الأندلس علمًا كثيرًا من الشعر والغريب والخبر، وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروحة كلها رواية.

ما سبق يوضح أن الكتب التي حُملت من أقطار المشرق إلى المغرب سواء مدونة أو رواية لا تحصى ولا تعد إلى جانب أن أغلب الأندلسيين كانوا يرتحلون

إلى المشرق طلبًا للعلم، وإن كان البعض منهم يرتحل لأغراض أخرى مثل التجارة أو الحج أو غيرهما، فإن ذلك لم يمنعهم من جلب الكتب المشرقية إلى بلدانهم حتى إن علماء التراجم كانوا عند ترجمتم لبعض من علماء الأندلس يذكرون عبارة «ولم تكن له رحلة»، ويقصدون بها الرحلة إلى المشرق لطلب العلم، وكأن العادة درجت أن يذهب العَالم إلى تحصيل العلم من المشرق، ثم العودة لنشره في الغرب الإسلامي، أو تحصيل البعض منه في المغرب ثم الرحلة إلى المشرق للاستزادة ومن ثم الرجوع ونشره في موطنه، من ذلك ما أورده ابن الفرضي والخشني في ترجمتهما ل ابن عوف العكي، إذ يذكران أنه «لم تكن له رحلة».

إن أخذ الأندلسيين العلوم والفنون والآداب عن المشرق، لا يعني أنهم لم يبتكروا شيئًا، أو يضيفوا جديدًا على ما أخذوه، بل على العكس فإنهم ابتكروا وأضافوا وأبدعوا في ذلك أيما إبداع، وقد ذكر صاحب نفح الطيب العديد من الإضافات والمصنفات التي وضعها الأندلسيون والتي لا تضاهيها المصنفات في كافة العالم الإسلامي، ثم أردف ذلك قائلًا: «وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم، ونأيه من محلة العلماء، فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها».

كما أن رحلة أهل الأندلس إلى المشرق لطلب العلم والحصول عليه من مظانه الأولى، أو الاستزادة منه لا يعني أن أهل المشرق لم يكونوا يأتون إلى الأندلس لنفس الغرض، فمع ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس، وتشجيع الحكام ورجال الدولة للعلوم وتهيئة المناخ المناسب لذلك؛ حيث أصبحت قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية منارات للعلوم والآداب والفنون، نافست في ذلك منارات العلم في المشرق؛ أمثال: بغداد، والقيروان، والقاهرة، والإسكندرية، وغيرها؛ لذلك وفد الكثير من المشارقة والمغاربة إلى الأندلس سواء لإلقاء ما في جعبتهم من علوم، أو تحصيل ما لم يجدوه في المشرق منها.

كما ذكر البعض من المشارقة الذين قدموا إلى الأندلس محملين ببعض الكتب من المشرق أحمد بن محمد بن هارون البغدادي([29]) الذي أحضر كتب أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، وبعض كتب الجاحظ رواية، ثم انصرف إلى المشرق بعد أن تردد في الأندلس أعوامًا، واستوزر بعد ذلك هناك، وأبي علي القالي الذي قدم إلى الأندلس بدعوة من خليفتها آنذاك عبد الرحمن الناصر، ولقد فَقَد البعض من هذه الكتب التي جاء محملًا بها أثناء رحلته من المشرق إلى الأندلس.

ما سبق يوضح أن المصدر الأول بل إن شئت فقل على قمة المصادر التي اعتمدت عليها الأندلس في نهضتها الفكرية والعلمية هي العلوم المشرقية، والتفصيل في هذا المصدر الأول والرئيس كما سبق الإشارة يجبرنا على ذكر المصدر الثاني الذي اعتمدت عليه الأندلس في نهضتها الفكرية والعلمية ممثلًا في علوم الإغريق؛ حيث نقل الأندلسيون إلى اللغة العربية كل ما وجدوه من تراث الأمم الغابرة، وخاصة المؤلفات اليونانية في مجالات الرياضيات والعلوم والطب والفلك والفلسفة وفروعها، «ولكن ذلك لم يدم طويلًا، فلم تلبث الأندلس أن استقلت فكريًا، ولمعت في سمائها أسماء عريضة لعلماء فطاحل؛ أمثال: ابن رشد وابن زاهر وابن طفيل، الذي ترجمت كتبه إلى عدد كبير من اللغات الأوربية، وابن باجة وابن البيطار([30]) وابن فرناس وابن الخطيب وابن خلدون مؤسس علم الاجتماع وابن سبعين([31]) وغيرهم من الأعلام»، فالفتح الإسلامي للأندلس كما ذكر د. العبادي «لم يكن مجرد احتلال عسكري صعدت فيه الجيوش الإسلامية إلى أقصى الشمال، ثم هبطت إلى الجنوب مثل الترمومتر أو ميزان الحرارة؛ بل كان حدثًا حضاريًا هامًّا امتزجت فيه حضارة سابقة كالرومانية والقوطية مع حضارة جديدة لاحقة وهي الحضارة الإسلامية، ونتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزدهرة وصلت إلى الفكر الأوربي المجاور وأثرت فيه، فالفتح العربي لإسبانيا كان ختامًا لدور سابق وبداية لدور إسلامي لاحق تغلغل في الحياة الإسبانية وترك آثارًا عميقة ما زالت تتراءى مظاهرها بوضوح حتى اليوم».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر
(جاعل الحلم حقيقة)

أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ينتمي لقبيلة معافر من قبائل اليمن، قدم جده عبد الملك مع جيش طارق بن زياد عند دخوله الأندلس لفتحها، أما أمه فكانت تميمية، لذلك قيل عنه أنه «حاز الشرف من طرفيه»، وأنشد القسطلي في ذلك قائلًا:

تلاقت عليه تميم ويعرب

شموس تلالا في العُلى وبُدُورُ

من الحميريين الذين أكُفُّهُمْ

سحائبُ تَهْمِي بالنَّدى وبُحورُ

دخل جده عبد الملك مع جيش طارق بن زياد، واستقر بالجزيرة الخضراء، وضبط أمور أهلها، وأدار شؤونهم، وكثر نسله فيها، هذا النسل الذي اشتهر بالنجابة والوجاهة، ووجد من نسله من ذهب إلى قرطبة وعاش في كنف الحكام ونالوا الحظوة والرتبة العالية لديهم، بل وتولوا بعض الأعمال الأندلسية، أما بالنسبة لعبد الله والد المنصور بن أبي عامر فكان من أهل الدين الذين اتسموا بالزهد في الدنيا، والبعد عن أبواب الحكام، درس الحديث وغيره من العلوم وتزوج من بريهة بنت يحيى بن زكريا فأنجبت له محمد ابن أبي عامر وكانت أم عبد الله والد المنصور بنت الوزير يحيى بن إسحاق وكان وزيرًا للخليفة الناصر لدين الله وطبيبه في نفس الوقت.

ولد محمد بن أبي عامر وشب في قرية طرش وقيل تركش وهي إحدى قري الجزيرة الخضراء، كان شابًا تميز بالنجابة والذكاء منذ نعومة أظفاره، وكانت تظهر عليه علامات السيادة والقيادة منذ حداثة سنه، ابتدأ طريقه سالكًا درب أعمامه وأخواله من حيث الاهتمام بالقضاء، لذلك نجده وقد اعتنى بطلب الحديث وغيره من العلوم الدينية، ناهيك عن النظر في الآداب، وكان طلبه لهذه العلوم على يد علماء عصره من الأندلسيين والمشارقة سواء.

كان ابن أبي عامر متطلعًا لحكم الأندلس ممنيًا نفسه بتحقيق هذا الحلم منذ كان شابًا حديث السن، وكان كثيرًا ما يحدث رفقاءه بذلك، ومما روي عنه أنه كان في نزهة مع أصحابه، وأثناء حديثهم وتسامرهم قال لهم: «إني لا بد أن أملك الأندلس، وأقود العساكر، وينفذ حكمي في جميع الأندلس»، فضحك جميع رفقائه، إلا أنه لم يلتفت أو يمتعض من ضحكهم ووجه لهم على الفور

سؤاله قائلًا لهم ماذا تتمنون أن أفعل لكم إن صار لي حكم الأندلس؟!، فقال له ابن عمه: أنا أتمنى أن توليني مدينة قرطبة، وقال أحد رفاقه: وأنا أتمنى أن توليني ولاية السوق، وقال الثالث: أما أنا ف أتمنى أن توليني قضاء مدينة رية، أما رفيقه الرابع ويدعى محمد بن عزرون فصمت ولم يتحدث، فطرح ابن عامر عليه السؤال مرة أخرى قائلًا له: وأنت ماذا تتمنى؟ فقام ابن عزرون بحك لحيته ثم قال مستهزأ بابن أبي عامر إن أنت أصبحت حاكمًا ل الأندلس فأمر خدامك أن يحضروا حمارًا – أعزكم الله – وليحملوني عليه وظهري إلى وجهه، ويطوفوا بي في مدينة قرطبة، وعندما تحقق لابن أبي عامر ما حلم به، قام باستدعاء رفقائه هؤلاء وذكرهم بهذا اليوم وسأل كلًّا منهم عن الأمنية التي تمناها عليه، وكلما ذكر له أحدهم أمنيته قال له: لك ما تمنيت، إلى أن وصل إلى محمد بن عزرون الذي بدت على وجهه علامات الإحراج فقال له: وأنت ماذا تمنيت؟ فامتنع عن الرد، فألّح عليه، فذكر له ما قاله حينها، فقال له لك ما تمنيت..!!، وبالفعل أمر رجاله بتنفيذ ما تمناه ابن عزرون.

قدم محمد بن أبي عامر من الجزيرة الخضراء إلى مدينة قرطبة عاصمة الخلافة آنذاك، وافتتح دكانًا عند باب القصر بقرطبة يكتب فيه الرسائل والمخاطبات لمن يريدها من الخدم ومن يرفعون حاجاتهم وشكواهم للخليفة آنذاك الحكم المستنصر، وذات يوم طلبت السيدة صبح زوجة الحكم ووالدة ابنه هشام من يكتب لها شيئًا بعينه، وكان أحد غلمان القصر يعرف محمد بن أبي عامر فشكر كتاباته عندها، فطلبت من هذا الغلام أن يذهب إليه ويطلب منه أن يكتب لها هذا الخطاب الذي أرادت، وعندما كتب لها ابن أبي عامر ما أرادت استحسنت كتابته، فحدثت زوجها الخليفة الحكم أن يستخدمه لديه، وبالفعل استخدمه الحكم وولاه قضاء بعض المواضع، فظهرت كفاءته ونجابته، فترقى إلى تولى أمور الزكاة والمواريث بإشبيلية، وكان ابن أبي عامر قد استمال السيدة صبح لناحيته بما كان يقدمه لها من نفيس الهدايا وأثمنها.

كان الخليفة «الحكم» من طراز الحكام الذين يعتنون بالشباب باعتبارهم العماد الذي تقوم عليه أي دولة، لذلك عندما استخدم محمد بن أبي عامر تنبه ل علمه وذكائه وفطنته، ناهيك عن نشاطه وحماسه المشتعل، فكان دومًا ما يقربه ويدنيه منه ويعلي شأنه أمام جلسائه من كبار رجال الدولة وأعيانها ناهيك عن علمائها وفقهائها، لذلك لم يعدم ابن أبي عامر بسبب هذا الاعتناء من قبل الخليفة «الحكم» حاقدًا أو حاسدًا شأنه في ذلك شأن غيره من ذوى النجابة والذكاء الذين لم تخلو ساحاتهم عبر التاريخ ممن حملوا لهم الحقد والبغضاء، ومن المواقف التي توضح ذلك على بساطتها، أنه نظرًا لكون أهل الجزيرة الخضراء يتسمون بصفرة الأيدي، ولا يقصد بالصفار هنا اللون الأصفر بالمعنى، وإنما يقصد به اللون الباهت، مثل أن تقول لصاحبك الذي تظهر عليه

علامات التعب والفزع «وجهك مصفر»، نظرًا لذلك كان «الحكم» يداعبه في مجالسه ووسط رجال دولته، قائلًا: «ألا ترون صفرة كفه؟!!»، فكان الحضور يردون عليه قائلين: «ارح نفسك منه»، فيرد عليهم: «لو كان به شجة – جرح في جبهته – لكانت تكملة لصفاته»..!!

تدبر أخي القارئ وأختي القارئة رد جلساء الخليفة «الحكم» عليه، مع ذلك لا تنسوا تدبر رد «الحكم» عليهم، فبالتدبر تجنون أنضج الثمار وأطيبها..!!.

وللعلم فقد قدّر ربنا جل وعلا فيما بعد أن تشج جبهة ابن أبي عامر من قبل ضربة ضربه بها غالب الناصري أحد منافسيه على الحكم، وهنا تذكر الناس قول «الحكم» فيه أن هذه الشجة تزيد وتكمل صفاته لا تنقصها.

لم يزل «الحكم» يقرب محمد بن أبي عامر ويُؤثره على من سواه من رجال دولته وخاصته، ووصل من تقريبه له أن عهد له برعاية ابنه هشام والعناية بتعليمه وتربيته وذلك عقب عزله عن القضاء وتوليه الوزارة، والجدير بالذكر أن هشامًا وليَ العهد بمساعي كلّ من أمه ومعلمه ومربيه ومدبر أمره ابن أبي عامر، ومنذ هذه الحظة بدأ نجم ابن أبي عامر يسطع في سماء الأندلس، ونظرًا لهذه المكانة التي حظي بها ابن أبي عامر قصده الناس من أجل قضاء حوائهم فكان يستقبلهم بالترحاب وجمال الأخلاق، ولا يرد منهم أحدًا، فأحبه الناس سواء من الخاصة أم العامة، وعندما ابتنى داره في الرصافة اتخذ الكتاب، وأحاط نفسه بمن يثق بهم من الرجال، وجعل داره موطنًا لاستقبال كل محتاج بالموائد وقضاء الحاجات، وكان همه من كل هذا كسب ثقة الناس حتى يصل إلى هدفه الذي يرنو إليه ببصره بل بقلبه بل إن شئت فقل بكيانه كله ممثلًا في حكم الأندلس، وفي ظل هذا كله لم يكن يتغافل عن الذهاب للمصحفي يتودد له ويستعطفه باعتباره أكبر كبار المسئولين آنذاك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن كسيلة القيسي، كان أبوه عثمان بن نصر معلم «الحكم» في صغره ومربيه والقائم على شؤونه بأمر والده الخليفة الناصر، ونظرًا لذلك كان «الحكم» وفاءً وإخلاصًا لمعلمه دائم التقريب لابنه جعفر والتبسط معه حتى صيره من أقرب مقربيه وخواصه، وهذا لا يعني أن نجم المصحفي بدأ في الظهور منذ عهد «الحكم»، وإنما كان ذلك قبل ولاية «الحكم»، حيث استعمله الخليفة الناصر على خطة الكتابة، ثم رقاه إلى خطة الشرطة، كما ولاه إدارة شؤون بعض الأعمال والكور، وعندما انتقلت الخلافة إلى «الحكم» عقب وفاة الناصر، بالغ في اكرامه وتقديمه على من سواه وفاءً لمعلمه كما سبق الذكر، ف ولاه خطة الوزارة عقب توليه الخلافة بثلاثة أيام، وذلك إلى جانب استمراره على خطة الكتابة، ولعل

هذا يفسر لك أخي القارئ وأختي القارئة القول في البداية أن المصحفي كان ساعد الخليفة «الحكم» الأيمن.

كان جعفر المصحفي شاعرًا متقنًا لمختلف ضروب الشعر من المدح والوصف والغزل، يلقيه على البديهة دون تصنع فيظهر في غاية الرقة والإبداع والحسن، ومن نظمه:

لعينك في قلبي عليَّ عُيُون

وبين ضُلُوعي للشُّجُون فُنُون

لئن كان جسمي مُخْلقًا في يد الهوى

فحبك غضٌّ في الفؤاد مَصُون

وكان مما نظم عندما دارت به الدنيا وفعل به المنصور بن أبي عامر ما فعل..

لا تأمنن من الزمان تقلبا

إن الزمان بأهله يتقلب

ولقد أراني والليوث تخافني

فأخافني من بعد ذاك الثعلب

حسب الكريم مذلة ومهانة

أن لا يزال إلى لئيم بطلب

وقد وصف المؤرخون حاله في إدبار الدنيا عنه وانفراط عقدها من يديه بعد انبساطها له، وإحكامه لها، وهو الذي لم يُخَيَّل لشخص حينها أن يوجد على وجه المعمورة من يستطيع أن يرفع عينه في عين المصحفي اللهم إلا الخليفة، فضلًا عن أن يذله ويذيقه صنوف الذل المهانة، وصف المؤرخون هذه الحالة قائلين: «واستمر في حجابته، ومرَّ بين سمع الدهر وإجابته، والنفوس العليَّ من تناهى حاله متغيرة، وفي تكيُّف سعده متحيِّرة، ولم يزل لنجاد تلك الخلافة معتقلًا، وفي مطالعها منتقلًا، إلى أن توفي الحكم، فانفصم عقده المحكم، وانبرت إليه النوائب، وتسددت له الخطوب بسهام صوائب، واستولى عليه الكسل، وأسرعت إليه الذوابل والأسَل، وتَعأورَه الإدبار، وساوره من المكروه ما فيه اعتبار، وانتقل إلى المنصور ذلك الأمر ...»، ملخص هذه الكلمات وإن كانت تحمل بين طياتها الكثير من الدروس والعبر أنّ «دوام الحال من المحال».

كان قلب المنصور بن أبي عامر يمتلئ بل يهيم غرقًا في بحر لا ساحل له من كره للمصحفي وبغض له وهذا ما دفعه إلى الانتقام منه، بل لم يقبل منه طلبه للعفو، بل الأكثر من ذلك أن طلب المصحفي العفو منه زاده غضبًا على غضب، وقد وصف المؤرخون هذا أبلغ وصف عندما قالوا: «وانبري إلى المصحفي بصدرٍ كان قد أوغره، وجدٍّ سامٍ طالما استقصره، فأباده ونكبه، وسلب جاهه وانتهبه، واقتصَّ من تلك الإساءة، واغصَّ حَلْقه بكلِّ مساءة، وألهب جوانحه حَزَنا، ونهب له مدَّخَرا ومُختزنا، ودمَّر عليه ما كان حاط، وأحاط به من مكروهه ما أحاط، فبقي سنين في مهوى النكبة، وجَوَى تلك الكُربة، ينقله المنصور معه في غزواته، ويعتقله بين أظفار التضييق أو في لَهَواته، وهو يستعطف ويستميل، فلا يتحقق له رجاء ولا تأميل، إلى أن تكورت شمسه، وفاضت بين أنياب المحن نفسه، فاغتِيل في المُطبق، ونفذ فيه أمر الله وسبق».

لذلك

تعهد قلبك ونظفه من أمواج بل أدران الكره، وتذكر أن تراكم هذه الأدران ستؤدي بك يومًا للتفكير في الانتقام، والانتقام يحرق القائم به قبل القائم عليه..!!

قبل إنهاء حديثنا عن المصحفي لا يفوتنا أن نتدبر سويًّا حالته عند وفاته وهو من حيزت له الدنيا بحذافيرها، حيث وصف حاله تلك كاتب المنصور محمد بن إسماعيل، فروى أنه ذهب بصحبة محمد بن مسلمة وأخذ المصحفي عقب وفاته واتجها به إلى الزهراء حتى يقوما بتسليمه لابنه وعائلته، وكان المصحفي ليس عليه إلا كساء متواضع بالكاد يستره، ودعا له محمد بن مسلمة من يقوم بتغسيله، وعندما حضر المغسل لم يجد ما يغسله عليه، فاقتلع ناحية من ناحيتي أحد أبواب الدار فغسله عليها، ثم خرجوا به إلى قبره، وما معهم أحد يشيعه فيما عدا إمام المسجد الذي تم استدعاؤه للصلاة عليه، ثم تطرق كاتب المنصور عقب دفنه إلى مقارنة هذه الحالة التي انتهى عليها المصحفي إلى حاله عندما كان في أوج سلطته وسطوته، حيث قال إنه كان ذات يوم في موكبه، والناس ملتفة حوله، وامتلأت الطرقات المؤدية للموكب وسدت جميع الطرق، وكان الناس حوله ما بين متفرج على هول الموكب وهيبته، وما بين محاول أن ينال شرف السلام على أهم رجل في الدولة بعد الخليفة آنذاك، وكنت أنا بقرب الموكب أحاول وأجاهد أن أسلم له رسالة إلا أنني لم أجد سبيلًا إلى تسليمها له بنفسي وسط هذا الزحام والتدافع، فأعطيتها أحد الكتاب الذين كانوا يقفون بجانبي الموكب يأخذون رسائل الناس التي تتضمن شكاوى أو طلبات أو غيرها متأملين أن ينظر المصحفي فيها، ومن ثم يجد لهم حلًا بشأنها.

أردف كاتب المنصور ما سبق موضحًا أنه بعد هذا الحادث بمدة ليست بالطويلة، انقلب ابن أبي عامر على المصحفي وأذاقه ألوان الذل والهوان، فاعتقله، ثم أخرجه واصطحبه معه في إحدى غزواته إلى مدينة جليقية، وحدث أن أصدر ابن أبي عامر في هذه الغزوة أمرًا ألا يتم إشعال النار لأي سبب كان حتى لا يفطن العدو إلى موضع الجيش فيضر به، وكان المصحفي وابنه ضمن الجيش، فجاع ابن المصحفي وإذعانًا منه لأوامر المصحفي لم يستطع أن يأمر أحدًا من الغلمان بإشعال النار وتجهيز طعام له فضلًا عن أن يقوم بذلك بنفسه، وعندما اشتد به الجوع لم يجد ما يأكله إلا الدقيق، فأحضر بعضًا منه ووضع عليه قليلًا من الماء ثم أكله، أخذ ابن المصحفي يتناول هذا الدقيق ممزوجًا بالماء، وتعلو وجهه معالم الذل والهوان، فهو ابن أكبر مسئولي الدولة، كما هو نفسه صاحب منصب في الدولة، كان يأكل ما لذ وطالب، وتحيط به جميع ألوان المتعة والملذات، وعندما طاف بخياله ثم نظر إلى حاله ، نظم قائلًا:

تأمَّلت صرف الحادثات فلم أزل

أراها تُوافي عند مقصدها الحُرَّا

فللَّه أيام مَضَت لسبيلها

فإني لا انسى لها أبدا ذِكرا

تجافت بها عَنَّا الحوادث بُرهة

وأبدت لنا منها الطلاقة والبشرا

ليالي لم يَدْرِ الزَّمانُ مكاننا

ولا نَظَرت منَّا حوادثه الشَّزْرَا

وما هذه الأيام إلا سحائب

على كل أرض تُمطر الخير والشرا

قد يتساءل سائل كيف استطاع ابن أبي عامر التغلب على المصحفي، وهو أُس الدولة ورأسها والمتمكن منها؛ وابن أبى عامر ما هو إلا شاب صغير السن، حديث العهد بدروب الدولة وسياستها؟!!؛ لعل من أبرز الأسباب التي مكنت ابن أبي عامر من التغلب على المصحفي هو ميل رجال الدولة له وانقلابهم على المصحفي، وذلك لأن قلوبهم كانت تضمر له الكره والبغض منذ قام الحكم بترقيته وتقديمه على من سواه، ناهيك عن سوء سلوكه وتكبره وغطرسته التي كرّهت فيه الخاصة والعامة سواء، فلم يكن يتقرب

إليه أو يلجأ له إلا صاحب مصلحة أو منافق يخاف بطشه وسطوته، لذلك وجد رجال الدولة في ابن أبي عامر فرصتهم للتخلص منه.

عندما تقرأ قصة المصحفي وتتمعن فيها تلحظ أن هذا القصة موجودة في زماننا بحذافيرها فلم يتغير فيها اللهم إلا الأسماء، وليتأكد القارئ من مدى مطابقة هذه القصة لبعض الأشخاص الذين يحيطون بنا سنورد تعليق المؤرخين عليها بلغتهم حيث قالوا: «كان مما أُعين به ابن أبي عامر على جعفر بن عثمان المُصحفي مَيلُ حِلْية الوزراء إليه، وإيثارهم له عليه، وسعيهم في ترقِّيه، وأخذُهم بالعصبية فيه، فإنهم وإن لم تكن لهم حَمِيَّة أعرابية، فقد كانت سلفية سلطانية، يقتفي القوم فيها آثار سلفهم، ويمنعون بها ابتذال شَرَفهم، غادروها سِيرة، وخلّفوها عادة أثيرة، تَشَاحَّ الخلف فيها تَشَاحَّ أهل الديانة، وصانوا بها مراتبهم أعظم صيانة، ورأوا أن أحدًا من التوابع لا يدرك فيها غاية، ولا يلحق لها راية، فلما أحظى المستنصر بالله جعفر بن عثمان واصطنعه، ووضعه من أُثرته حيث وضعه، حسدوه وذموه، وخصوه بالمطالبة وعموه»، ثم تابع المؤرخون في وصفهم لحال المصحفي عندما أعطت له الدنيا ظهرها قائلين: «وعند التئام هذه الأمور لابن أبي عامر، استكان جعفر بن عثمان للحادثة، وأيقن بالنكبة، وزوال المرتبة، وكفَّ عن اعتراض محمد وشركته في التدبير، وانقبض الناس عن الرواح إليه والتبكير، وانثالوا على ابن أبي عامر، فخفَّ مَوكبه، وغار من سماء العزَّة كوكبه، وتوالى عليه سعي ابن أبي عامر وطلبه حتى محاه، وطمس ظلاله وأضحاه».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تولى هشام المؤيد الخلافة عقب أبيه الخليفة الحكم المستنصر، وكان آنذاك لم يتجاوز التاسعة من عمره، وقيل: إنه كان في الثانية عشرة من عمره، ومنذ أن تولى هشام المؤيد الخلافة لم يكن له منها إلا الاسم، أما الرسم ونقصد به مقاليد الحكم والسياسة فقد صارت في يد معلمه ومربيه محمد بن أبي عامر الذي ولاه الحكم المستنصر القضاء ثم عزله عنه وولاه الوزارة لديه، وفوض إليه جميع شؤون ابنه هشام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، أمه تدعى صبح البشكنسية، كانت جارية حسنة الغناء، تزوجها ورزق منها ابنًا فمات، ثم رزق منها ابنه هشام؛ ولي هشام الخلافة عقب وفاة أبيه وكان يبلغ من العمر آنذاك إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر، وخلع منها عام ٣٩٩هـ/١٠٠٨م، فكانت خلافته الأولى منذ وفاة أبيه حتى قيام الفتنة ثلاثًا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام، ومدة خلافته الثانية سنتين وعشرة أشهر، بمعنى أن خلافته كانت ستًا وثلاثين سنة وشهرين وعشرة أيام، وكان هشام المؤيد دائم الميل للعبادة، مداومًا على

تلاوة القرآن، وتدارس العلوم، كما كان كثير الصدقات على الفقراء والمساكين وذوي الحاجة، وعلى الصعيد الآخر لم يكن له أي اهتمام بشؤون الدولة وسياستها وظل كذلك طوال مدة خلافته.

كان من أبلغ الأوصاف التي وصف بها هشام المؤيد أنه: «كان خليفة تحت الطلب»، وليس أدل على ذلك من خبر موته المزيف، حيث مات يهودي يشبهه، فأعلن محمد بن هشام بن عبد الجبار([32]) أن الخليفة هشام قد مات، وحضر العلماء ورجال الدولة ووجهاؤها للصلاة عليه ومن ثم دفنه، وعندما حدثت الفتنة البربرية وهزم البربر جموع أهل قرطبة، ووصلوا إلى مشارف القصر الذي يقطنه ابن عبد الجبار، خاف على نفسه من سطوتهم وبطشهم، وهنا أخرج هشامًا وأجلسه في شرفة عالية من القصر بحيث يراه الناس، وبعث مع القاضي ابن ذكوان رسالة شفاهية إلى البربر مفادها، أنه ليس إلا نائبًا عن الخليفة هشام وحاجبًا له، وذهب القاضي ابن ذكون إلى البربر وأبلغهم الرسالة فقالوا له: «سبحان الله! يا قاضي، يموت هشام وتُصلي عليه أنت وغيرك واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه؟!!، وأخذوا يتضاحكون، فاستحى القاضي منهم، ثم اعتذر لهم وانصرف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما أصيب الحكم بالمرض الذي مات فيه وتولى تدبير أمور الدولة وتصريف شؤونها جعفر المصحفي اقترح عليه ابن أبي عامر أن يجعل هشامًا يركب على رأس الجيش ويخرج حتى يخاف أهل الخلاف، فنُفذ اقتراحه ورافق ابن أبي عامر الخليفة هشام في كل خطوة خطاها ذلك اليوم، حتى إنه عندما قام الخليفة هشام المؤيد بإسقاط ضريبة الزيتون وهي ضريبة كان يدفعها أهل الأندلس على زيت الزيتون بقرطبة، وكان الناس متضررين من هذه الضريبة كارهين لها لذلك عندما سقطت فرحوا بذلك فرحًا شديدًا ونسبوا أمر إسقاطها إلى ابن أبي عامر ظانين أنه من اقترح على الخليفة هشام القيام بإسقاطها، والأمر لم يكن كذلك، فازداد الناس حبًا لابن أبي عامر، وظلت الأمور فيما بعد تسير وكأنها تسعى بنفسها لتحقيق هدفه وحلمه بحكم الأندلس وقد وصف المؤرخون ذلك قائلين: «ولم تزل الهمة تحذوه، والجد يحظيه، والقضاء يساعده، والسياسة الحسنة لا تفارقه حتى قام بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إناقة، وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوب بأحسن دياسة، فانتظمت له الممالك، واتضحت به المسالك، وانتشر الأمن في كل طريق، واستشعر اليمن كل فريق، وأسقط جعفرًا المصحفي جملة، وعمل فيه ما أراده».

جلس هشام المؤيد على كرسي الخلافة، وبمجرد جلوسه ولّى حجابته لوزير أبيه جعفر بن عثمان المصحفي، وولى الوزارة ل محمد بن أبي عامر، وكان

آنذاك متوليا الشرطة، كما جعله مشاركًا لحاجبه المصحفي في تدبير شؤون الدولة.

أما بالنسبة للصقالبة الذين امتلأ بهم القصر آنذاك فقد ازدادت شوكتهم حتى ظنوا أنه لا غالب لهم، ولا يوجد في الدولة من يستطيع الوقوف أمامهم، وكانوا آنذاك يزيدون على الألف ناهيك عن أتباعهم، وكان يرأسهم فتى يدعى فائق ويعرف بالنظامي، ويليه فتى يدعى جؤذر، وكانا قد أخفيا على الوزير المصحفي خبر وفاة الخليفة «الحكم»، بل قيل إنهما أخفيا الأمر عن جميع أهله وخاصته، واجتمعا للتشاور فيما بينهما على ما ينبغي فعله، واتفقا على تنصيب المغيرة بن عبد الرحمن الناصر أخي «الحكم» على الخلافة، وذلك خوفًا من انفراط عقد الأندلس نظرًا لصغر سن هشام بن الحكم ومن ثم إنكار الناس لخلافته، ولكن بشرط أن يقر المغيرة هشامًا على ولاية العهد بحيث يصبح الخليفة من بعده، وعقب اتفاقهما على ذلك، قال جؤذر لصاحبه فائق مقترحًا: إنه حتى يتم لهم ذلك لا بد من ضرب عنق المصحفي حتى لا يصبح عائقًا يحول دون تنفيذ ما اتفقا عليه، فاعترض فائق على ذلك قائلًا لصاحبه لعله يوافقنا الرأي، فلا داعي أن يبدأ الأمر بسفك الدماء.

أرسل جؤذر وفائق في طلب المصحفي، ونعيا إليه وفاة «الحكم»، وعرضا عليه ما اتفقا عليه من رأي، فوافقهما، ثم خرجوا وأحضروا كبار مسئولي الدولة وكان من ضمنهم محمد بن أبي عامر وعرضوا عليهم الأمر، فاعترض جميعهم، وكان وجه اعتراضهم أن الأمر إذا ظل في يد هشام ستكون الدولة لهم وفي أيديهم، أما في حالة إسناد الأمر إلى المغيرة فسيستبد بالحكم، ويسعى لأن يستشفي أحقاده منهم، وأشاروا بقتل المغيرة قبل أن يبلغه خبر وفاة أخيه، وهمّوا إلى القيام بقتله إلا أنهم تراجعوا جبنًا، وهنا ابتدرهم ابن أبي عامر موضحًا لهم أنه يخاف فساد أمرهم وأنه تبع للمصحفي وينبغي ألا يختلفوا على ذلك، وعرض عليهم أن يتحمل الأمر عنهم، فأعجب جعفر ورجاله بجرأته، وقالوا له إنه الأحق بالقرب من هشام باعتبار أنه معلمه ومربيه، وأرسل معه جعفر طائفة من الجند الذين يثق بهم لإنفاذ ما اتفقوا عليه.

توجه محمد بن أبي عامر إلى دار المغيرة ومعه بدر القائد وبرفقتهم مئة من غلمان السلطان، ووقف ابن أبي عامر أمام باب الدار وانتظر حتى أحاط الجند الدار من جميع جنباتها، ثم صعد إلى المغيرة فوجده جالسًا في مكانه وليس معه أحد، فأخبره بخبر وفاة أخيه «الحكم»، وجلوس هشام على كرسي الخلافة، ثم أخبره بما اتفق عليه رجال الدولة خوفًا من اختلافه معهم ومنافسة ابن أخيه على كرسي الخلافة، فقال له: «أعلمهم أني سامع مطيع وافٍ ببيعتي، فتوثقوا مني كيف شئتم»، وأخذ يستلطف ابن أبي عامر

ويستعطفه ويناشده الله جل وعلا ألا يهدر دمه، فأشفق عليه ابن أبي عامر، مما دفعه للكتابة إلى المصحفي بشأنه واستأذنه بالرجوع عن قتله لأنه لا يخاف من جانبه، فرد عليه المصحفي يلومه ويعنفه على تأخره في تنفيذ ما اتفق عليه مهددًا له إما أن ينفذ وإما أن يرجع ويبعث المصحفي من ينهي الأمر سواه، وعند وصول رد المصحفي لابن أبي عامر قرأه وعقب الانتهاء من قراءته أعطاه للمغيرة فابتدأ في قراءته وأثناء ذلك خرج ابن أبي عامر وأرسل له جماعة من الرجال الذين معه فقتلوه خنقًا ثم علقوه حتى يظهر أنه قتل نفسه، ثم أشاعوا بين الناس أنه خنق نفسه عندما ضغطوا عليه للحضور لمبايعة ابن أخيه، وكان المغيرة آنذاك يبلغ من العمر سبعًا وعشرين سنة.

عاد ابن أبي عامر للمصحفي وحكى له ما تم فعله، فاستبشر وشكره على إنقاذه المهمة، وعندما وصل خبر مقتل المغيرة للفتيين الصقالبة جوذر وفائق صدما، وقال جؤذر لصاحبه يلومه أنه نصحه ولكنه لم يسمع له، ثم ذهبا من فورهما إلى المصحفي وأظهرا له تأييدهما واستبشارهما بما فعل، واعتذرا له، فأظهر المصحفي لهما بعض القبول ولم يلتفت لهما، وظل المصحفي منشغلًا بالتجهيز لمبايعة العامة لهشام أيامًا إلا أنه لم ينفك يحذر الصقالبة لأنه لم يكن يأمن مكرهم، حيث كان الصقالبة منشغلين به ويتحينون الفرص للإطاحة به باعتباره من وجهة نظرهم أعتى منافس لهم، وأعظم عقبة تقف في طريقهم وتحول بينهم وبين تحقيق سيطرتهم على الدولة.

كان من نتائج الأحداث السابقة أن تمكن التنافر والبغض والحقد بين كلٍ من جعفر المصحفي والصقالبة، وظل كلّ منهم ينتظر الفرصة السانحة للتخلص من الآخر، مع التزام كل طرف الحذر من احتمال انقضاض الطرف الآخر عليه، فنجد أن المصحفي فور علمه بتدبير الفتيين جؤذر وفائق المكائد ضد الدولة عامة وضده خاصة، كان من أولى الإجراءات التي اتخذها للتضييق عليهم هو غلق باب الحديد بالحجارة، وهو باب يدخل منه الصقالبة ويخرجون دون رقابة، ومن ثم أصبحوا يدخلون ويخرجون من باب السدة فظلوا تحت المراقبة يُعلم الداخل إليهم والخارج من عندهم، ثم أخذت سبل التضييق عليهم ألوانا مختلفة من القتل حينًا والأمر بلزومهم ديارهم حينًا آخر، والخروج من الأندلس إلى المغرب حينًا ثالثة، وأخذ أموالهم وما يمتلكون حينًا رابعة، حتى ضعفت شوكتهم وخارت وطأتهم، وعقب ذلك جعل المصحفي أمر القصر والخدم لفتى يُدعى سكر، فهدأ من تبقى به من الصقالبة، وركنوا إلى الانصياع والطاعة.

قام ابن أبي عامر بإضعاف شوكة الصقالبة متسترًا بالمصحفي باعتباره حتى ذلك الوقت هو كبير مسئولي الدولة والمتصرف في شؤونها، وعقب ذلك فكر ابن أبي عامر في أن يتولى قيادة الجيش ويتوجه لغزو الأعداء الذين انتهزوا

هذه الفرصة ممثلة في انشغال المسلمين بخلافاتهم مع بعضهم البعض، وتكالبهم على السلطة، كما هو شأن العدو عبر التاريخ في انتهاز الفرص ومن ثم انقضاضه على بلاد المسلمين واغتصابها، فأشار ابن أبي عامر على المصحفي أن يتم تجهيز الجيش لأجل الغزو وقمع العدو، وعرضت قيادة الجيش الذي تقرر توجيهه لغزو العدو على جميع كبار مسئولي الدولة في مجلس جمعهم فيه المصحفي إلا أنه لم يبادر إلى ذلك إلا ابن أبي عامر بعد اشتراطه تخير من يثق بهم من الرجال للخروج معه، وتمويل الغزو بمائة ألف دينار، وحدث أن استكثر البعض من رجال الدولة هذا المبلغ، فقال له ابن أبي عامر «خذ ضعفها وامض، وليحسن غناؤك»، فسكت المعترضون، وسلم الجيش والمال لابن أبي عامر.

توجه محمد بن أبي عامر لغزو النصارى، فكان إحسانه لقيادة الجيش موصولًا بحسن الصلة والعشرة لأفراده، ورجع إلى قرطبة ظافرًا غانمًا، فأجزل الأعطيات على الجند ولم يبخل عليهم بشيء، مما أدى إلى حبهم له والتفافهم حوله، وكان هدفه من ذلك، هو السير قدمًا في سبيل الوصول إلى هدفه المنشود، وكان في مقابل حب الجيش ناهيك عن العامة في قرطبة لابن أبي عامر عقب عودته منتصرًا من غزوته ضد النصارى ازداد بغض الجيش والعامة للمصحفي وغيره من كبار رجال الدولة.

بعد أن استتبّ الأمر لمحمد بن أبي عامر وتخلص من الصقالبة واستمال الجيش إليه، ناهيك عن دعم السيدة صبح له، وتمكنه من الخليفة الذي لم يكن آنذاك يملك من أمره شيئًا، اتجه ابن أبي عامر إلى الحيلة لكي يتخلص من المصحفي ومن ثم ينفرد بإدارة شؤون الدولة، ورأى أنّ السبيل الوحيد إلى ذلك هو التقرب من أبي تمام غالب الناصري صاحب مدينة سالم والثغر الأدنى، ومصانعته لعلمه بما بينه وبين المصحفي من عداوة وبغضاء، وكان غالب هذا قد تباطأ وقصّر في مجاهدة العدو وقمعه في الأيام الأولى لخلافة هشام المؤيد هذه الأيام التي اتسمت بالتصارع والتنازع على السلطة، وعند استتباب الوضع ولو بشكل ظاهري عقب القضاء على شوكة الصقالبة تملك غالبًا القلقُ من المصحفي خوفًا من أن يدسّ له لدى الخليفة اسمًا، ويقومون بإجراء ضده رسمًا، وعلى الصعيد الآخر كان هناك ابن أبي عامر الذي يرقب المشهد ويتدارسه من كل زواياه محاولًا السير قدُمًا نحو مراميه، فرأى ببصره الثاقب أنه في حالة نشب الصراع بين كل من المصحفي وغالب في هذا التوقيت ونتج عنه صدور مرسوم ضد غالب هذا يعني أن غالبًا سيجنح إلى الخلاف والمعصية، والخروج من تحت راية الخلافة والاستقلال بولايته، وهذا لن يكون في صالح ابن عامر لذلك التجأ ابن عامر إلى التقرب منه ومصانعته عن طريق خدمته بإعلاء شأنه لدى السيدة صبح وابنها الخليفة وكبار رجال الجيش، وهذا لم يكن إلا لكي يحقق غايته باستخدامه ضد المصحفي،

واستطاع ابن أبي عامر أن يوصّل غالب إلى تقلد خطة الوزارتين، فبعث له مرسوم الخليفة مختومًا بختمه ينصّ على ذلك، وأوكل له أن يتشارك هو وابن عامر تدبير أمر غزو العدو الذي بدأ أمره في الاستفحال على أن يتدبر ابن أبي عامر جيش قرطبة، ويتدبر غالب جيش الثغر.

نلحظ من خلال تتبعنا للخطوات التي اتخذها ابن أبي عامر وصولًا لهدفه الذي يطمح إليه ممثلًا في حكم الأندلس أنه لم يكن يُبقي على شخص إلا لكي يتخلص به من آخر، وإذا ما وصل إلى هدفه في التخلص من هذا الآخر تنتهى حاجته للشخص ومن ثم يتوجه للبحث عن شخص يتخلص به منه، فكانت دورة حياته المتعلقة بالوصول إلى هدفه تسير في دائرة المكائد والحيل التي لا تكاد تنتهي إحداها حتى تبدأ أخرى.

خذها قاعدة

لا تجعل نفسك تعمي بصيرتك وتزين لك مقولة: «الغاية تبرر الوسيلة»، لأنّ المعنى الذي توحيه كلمات هذه الجملة هو أحد جوانب الدنيّة التي تنطوي عليها نفس المؤمن بها، فلا تكن أسيرًا لمعنى ينقصك أكثر من أن يزيد فضلًا عن أن يضيف لك.

خرج ابن أبي عامر في غزوته الثانية والتقى ب غالب الناصري في مدينة مجريط([33])، واتفقا سويًّا على مناهضة المصحفي وإزاحته عن منصبه في الدولة، حتى يخلو الأمر لهما، ولم يكن ابن أبي عامر بالطبع يقصد من هذا الاتفاق والتوافق الذي سعى إليه إلا مصلحته هو دون غالب أو غيره، وكان ابن أبي عامر في هذه الغزوة قد تودد ل غالب وخدمه خدمات جليلة ملكه بها، فمال إليه غالب كل الميل، واستمرا في الغزو سويًّا وفقًا للمرسوم الذي أصدره الخليفة، فافتتحا حصن مولة، وغنما وسبيا الكثير، وتوجه ابن أبي عامر مع غالب إلى ثغره، وبقي معه مدة لا يُعلم إن طالت أو قصرت ولكن يبدو أنها لم تتعدَ الأيام القليلة، وعندما همّ ابن أبي عامر بمغادرة ثغر غالب متجهًا إلى قرطبة قال له غالب: «سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل، يشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصة – يقصد ما اتفقا عليه من مكيدة للمصحفي يزيحه بها عن مباشرة شؤون الحكم – فإياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل جعفرَ عن المدينة، وتتقلدها دونه».

عاد ابن أبي عامر إلى قرطبة منتصرًا ظافرًا، فاستقبله الناس بالبشر والسرور وازداد تمكنًا من قلوبهم لمكابدته العدو وقمعه، وأثناء ذلك وردت رسالة من غالب الناصري إلى الخليفة هشام يخاطبه فيها بحسن بلاء ابن أبى عامر في هذه الغزوة التي خاضا دروبها معًا، بل ونسب السعي والاجتهاد والخطة إلى ابن أبي عامر، وبالغ في شكره و تدعيمه لدى الخليفة، وكان

يهدف من ذلك تسهيل ما اتفق عليه مع ابن أبي عامر بشأن المصحفي، ونظرًا لتزامن ذلك مع ما أحدثته غزوة ابن أبي عامر من استمالة قلوب العامة والخاصة إليه والتفافهم حوله، فقد هان لدى الخليفة أمر المصحفي وغيره، وهنا أخرج أمره بعزل المصحفي عن ولاية المدينة، وتقليدها ابن أبي عامر بدلًا عنه، وهذه كانت أولى الخطط في إضعاف المصحفي والإحاطة به، وإحكام الحيلة ضده.

مما سبق يتضح أنّ ابن أبي عامر حاز في الدولة مناصب عدة، فتولى الشرطة، وقيادة الجيش، ثم ملك المدينة، وبذلك أحاط بالمصحفي وضيّق عليه من جهات عدة، وخلا المصحفي دون ناصر أو نصير، وتوجه ابن أبى عامر من فوره لضبط أمور المدينة، التي غفل عنها ابن المصحفي منشغلًا بملذاته ونزواته، هذه الغفلة التي دفعت الناس إلى تبادل حراسة ممتلكاتهم ودورهم ليلًا خوفًا من السطو عليهم، ولكن بمجرد ولاية ابن أبي عامر على المدينة توجه إلى ضبطها ومراقبة الأمن بها، وضرب المفسدين ومن يسعى لترويع الأمنين بيد من حديد، لذلك نجده بمجرد معرفته بفساد ابن عمه ويدعى عسقلاجة يستدعيه إلى دار الشرطة للتحقيق معه، وعندما ثبت له فساده أمر على الفور بجلده، وهذه البداية كانت سببًا في انزواء أهل الشرّ والفساد وانحدارهم، ثم استخلف ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبي عامر على المدينة فسلك ابنُ عمه مسلكه في ضرب المفسدين بيد من حديد، بل فاقه في ذلك.

عقب هذه الأحداث فكر جعفر المصحفي أن يتصالح مع غالب الناصري حتى يناهض به ابن أبي عامر، فبعث إليه يخطب ابنته وتدعى أسماء لابنه، ووافق غالب، وبدأ الطرفان في سلوك درب التوافق والألفة بينهما بعد التنافر والعداوة، وعندما علم ابن أبي عامر بذلك، كتب إلى غالب يتودد إليه في فسخ هذه الخطبة، وبالفعل قام بفسخها، وزوّج ابنته لابن أبي عامر فكانت من أحبّ نسائه وأقربهم إلى قلبه.

تم الاتفاق بين ابن أبي عامر والناصري، وخرج ابن أبي عامر في غزوته الثالثة، فدخل طليطلة عام ٣٦٧هـ/٩٧٧م، واجتمع مع صهره غالب الناصري، واتجها سويًّا لافتتاح حصن زنبق، ومدينة شلمنقة، وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة بالسبي والغنائم، وبحوزته عدد كبير من رؤوس المشركين الذين تم قتلهم في هذه الغزوة، وقد اتبع المسلمون هذه العادة في الرجوع إلى العاصمة برؤوس المشركين لهدفين؛ الأول: إرهاب العدو وإنزال الرعب في قلبه حتى يفكر مرارًا وتكرارًا قبل أن يتعرض للمسلمين أو أراضيهم بسوء،؛ الثاني: إدخال السرور على قلوب العامة والخاصة باعتبار أن هذا الفعل من علامات النصر والظفر.

وصل ابن أبي عامر إلى قرطبة وتلقاه الناس بالبشر والسرور، وازدادت مكانته لديهم أكثر فأكثر، وقام الخليفة إلى الزيادة في تقريبه وترقيته ورفع رتبته، فولاه خطة الوزارتين، وزاد في راتبه إلى ثمانين دينارًا وهو راتب الحاجب، ثم أرسل الخليفة إلى غالب الناصري باستحضار ابنته وزفها إلى ابن أبي عامر، وتم ذلك في عُرس كبير ومهِيب ظل أهل الأندلس يتحاكون به فترة من الزمان، كما تبع ذلك تقليد ابنَ أبي عامر الحجابة مشاركًا لجعفر المصحفي، ثم حدث أن سخط الخليفة على جعفر فعزله عن الحجابة بالكلية، وجعل المنصب بجملته لابن أبي عامر، ثم أصدر أمرًا بالقبض على المصحفي وابنه وابن أخيه هشام، وكان هشام هذا من أكثر الناس عداوة لابن أبي عامر، وعزلوا جميعًا عما كانوا يتولونه من أعمال، وشرع ابن أبي عامر في محاسبتهم على أموال الدولة التي كانت تحت أيديهم بعد أن جردهم من كل ممتلكاتهم، وانتهك حرماتهم، وقتل هشام ابن أخي المصحفي لعدواته الشديدة له، وأخرجه إلى أهله ميتًا، واستمرت النكبة تلوح في أفق المصحفي سنوات عدة، ذاق فيها ألوانًا من الذل والهوان، وظل طوال هذه السنوات يُحبس تارة، ويُفرج عنه أخرى، ومما ذكر عنه في استعطافه لابن أبي عامر حتى يعفو عنه قوله:

عفا الله عنك ألا رحمة

تجود بعفوك إن أبعدا

لئن جلَّ ذنب ولم أعتمده

فأنت أجل وأعلى يدا

ألم ترَ عبدا عدا طوره

ومولى عفا ورشيدا هدى

ومفسد أمر تلافيته

فعاد فأصلح ما أفسدا

أقلني أقالك من لم يزل

يقيك ويصرف عنك الردى

يلاحظ أنه ورد أكثر من مرة خلال الحديث أن الخليفة قام بإصدار المرسوم الفلاني، أو أنه أمر بكذا؛ للعلم الخليفة آنذاك كان يبلغ من العمر اثنتي عشر سنة فحسب، فلم يكن له من الأمر شيء، وإنما كان يقوم بما يأمره به كلٌّ من والدته وابن أبي عامر، فوالدته صبح البشكنسية هي التي مكنت ابن أبي عامر من الوصول إلى هذه المكانة التي لم يصل أحد قبله ولا بعده إلى مثلها،

وعلى الرغم من ذلك نجد ابن أبي عامر لم يفكر مجرد تفكير في أن يحفظ لها ذلك ويقف بجوار ابنها، بل على العكس من ذلك نجده وقد سلبه سلطته وملكه وجنده وماله، وأودعه جدران إحدى غرف قصره منبوذًا لا يقرب منه أحد ولا يلتقيه أحد إلا بإذن من ابن أبي عامر وفي محضره على ما سيأتي ذكره والتفصيل فيه.

نعود إلى المصحفي في محبسه، سلك المصحفي أثناء محنته وإدبار الدنيا عنه كل السبل مستعطفًا ابن أبي عامر حتى يعفو عنه ويخرجه من محنته، لذلك نجده وقد عرض عليه أن يخرجه ولا يوليه أي منصب من مناصب الدولة، إنما يجعله مؤدبًا لابنيه عبد الله وعبد الملك، تخيل إلى أي حد وصل المصحفي من الذل والهوان بعد العزة والرفعة..!!، ولكن ابن أبي عامر بما كان يمتلكه من فطنة وذكاء فطن لمقصد المصحفي من ذلك، لذلك نجده وقد علق على طلب المصحفي هذا قائلًا: «أراد أن يستجهلني ويسقطني عند الناس، وقد عهدوا مني ببابه مُؤمِّلا، ثم يرونه اليوم بدهليزي معلمًا».

قيل: إن المصحفي عندما كان في محبسه، كتب للمنصور يستعطفه قائلًا:

هبني أسأت فأين العفو والكرم

إذ قادني نحوك الإذعان والندم

يا خير من مُدت الأيدي إليه أما

ترثي لشيخ رماه عندك القلم

بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر

إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

هذه الأبيات التي نسبت إلى المصحفي حيث ذكر البعض أنها ليست له، أغضبت المنصور وزادته انفعالًا وضيقًا، ورد عليها بأبيات هدفها أن يفقد المصحفي أمله في أن يتم العفو عنه مهما حدث، حيث رد عليه قائلًا:

الآن يا جاهلا زلت بك القدم

تبغي التكرم لما فاتك الكرم

أغريت بي ملكا لولا تثبته

ما جاز لي عنده نطق ولا كلم

فايأس من العيش إذ قد صرت في طبق

إنّ الملوك إذا ما استنقموا نقموا

نفسي إذا سخطت ليست براضية

ولو تشفع فيك العرب والعجم

تمادى ابن أبي عامر في إذلال المصحفي، ولم يكتفِ بتركه في محبسه حتى توافيه المنية، بل أصدر أمرًا بإحضاره إلى مجلس الوزراء حتى تتم محاكمته والتحقيق معه بشأن ما نُسب إليه من الخيانة، واستمرت هذه المحاكمة عدة مرات في أيام متفاوتة، وفي آخر يوم لمحاكمته أمر المنصور بإحضاره وكان إضافة إلى كبر سنه قد أوهن جسدَه توالي المحن عليه، فكان يخطو الخطوة بعناء، مما دفع الموكل بإحضاره إلى مجلس الوزراء أن يعنِّفه حتى يسرع في خطواته فقال له جعفر: «يا بني، رفقًا، فستدرك ما تريد، و يا ليت أنّ الموت بيع، فأغلى الله يسومه»، وكأنه أراد أن يقول «لو أن الموت يُشترى لاشتريته بأغلى الأثمان حتى أتخلص مما أنا فيه من الذل والهوان»، ولديه حقٌّ فكيف بمن كان يملك الدولة ولا يقوى أكبر مسئول فيها أن يرفع عينه أمامه، فإذ به يصل إلى هذه الحال من الذل والهوان بأن يعنفه أصغر جندي وُكِل بإحضاره إلى موضع محاكمته..!!.

حضر المصحفي إلى مجلس الوزراء، وكان جميع الوزراء جلوسًا وعلى رأسهم بالطبع ابن أبي عامر، فجلس حيث انتهى به المجلس دون أن يلقى عليهم السلام، وهنا قام أحد الوزراء ويدعى محمد بن حفص بن أبي جابر، وكان هذا الوزير قبل أن ينضم إلى حزب ابن أبي عامر من الرجال المترددين ل المصحفي، وكان ل المصحفي عليه الكثير من العطايا والأفضال، إلا أن هذا الوزير لم يرعَ حرمة الأيام السابقة وقام بتعنيف المصحفي بأسوأ الكلمات لأنه لم يلقِ على الحضور في المجلس السلام، وظل المصحفي معرضًا عنه لا يرد عليه على الرغم من تماديه، ولكن مع الضغط على المصحفي رد عليه مذكرًا إياه بأفضاله وأياديه عليه التي لم يرعَ فيها حرمة إلا أن الوزير أنكر أن يكون للمصحفي عليه أي فضل، وهنا قال المصحفي للحضور من الوزراء: «أنشد الله من له علم بما ذكرت أن يتكلم»، فأكد الوزير ابن عياش ما قاله المصحفي من أياديه وأفضاله على الوزير ابن أبي جابر، ثم توجه الوزير محمد بن جهور إلى الوزير محمد بن أبي جابر وقال له: «ألا تعلم أن في حالة حضور سخط السلطان وغضبه على شخص لا ينبغي له إلقاء السلام على رجاله، لأنهم إن ردوا عليه أغضبوا السلطان، وإن لم يردوا أسخطوا الله بتركهم ما أمر به من رد السلام، فكان ترك السلام أفضل وأولى»، ثم أكد على ابن أبي جابر قائلًا: «ومثلُ هذا لا يخفي على أبي الحسن»، وهنا كسا وجه ابن جابر الحياء والخجل في حين تهلل وجه المصحفي بالبِشر، ثم بدأت محاكمته، وأخذ الوزراء في محاسبته على الأموال التي يمتلكها، فقال لهم إنه لم يعد يملك أي شيء، ولن يجدوا معه شيء حتى لو تم تقطيعه وتمزيقه، ثم

أخذ إلى محبسه مرة أخرى، وهذه كانت آخر محاكمة له، لم يخرج بعدها من بين جدران السجن حتى مات.

هذا أضحى حال المصحفي الذي كان ابن أبي عامر في أول عهده يستميله ويسترضيه حتى نجد صاحب نفح الطيب واصفًا حاله معه قبل أن يسطع نجمه في سماء الأندلس ويسيطر على أمور الحكم وشؤونه قائلًا: «واستعطفه ابن أبي عامر ونجمه غائر لم يلح، وسره مكتوم لم يبح، فما عطف، ولا جنى من روضة دنياه ولا قطف، وأقام في تدبير الأندلس، وهو يجري من السعد في ميدان رحب، ويكرع من العزّ في مشرب عذب».

كان المصحفي في محنته، ينظم الشعر ويتغنى به حتى يهون به على نفسه، وكان متقنًا لذلك، فكان مما نظمه:

صبرت على الأيام لمَّا تَوَلَّت

وألزَمْتُ نفسي صبرها فاستمرَّت

فيا عجبًا للقلب كيف اصطِبارُهُ

وللنَّفس بعد العِزِّ كيف استذلت

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى

فإن طُمَّعَت تاقَت وإلا تَسَلَّت

وكانت على الأيام نفسي عَزيزة

فلما رأت صبري على الذُّل ذَلَّت

وقُلْت لها: يا نفس موتي كريمة

فقد كانت الدنيا لنا ثم وَلَّت

كان المصحفي على يقين من أنه سيموت في السجن، لذلك في آخر يوم من محاكمته في مجلس الوزراء الذي سبق الإشارة إليه قام بتوديع أهله وولده، وقال: «هذا وقت إجابة الدعوة، وانا أرتقبه منذ أربعين سنة»، فسألوه ماذا يقصد بهذا الكلام؟!! فروى لهم قصة مفادها: أنه تم توكيله لمحاكمة شخص زمن الخليفة الناصر، فقام بالحُكم على هذا الشخص بالضرب، واستولى على أمواله، وأدخله السجن وتركه فيه مدة طويلة، وذات يوم بينما هو نائم أتاه آتٍ وقال له: «أطلق فلانًا، فقد أُجيبت دعوته فيك، ولهذا أمر أنت لا بد لاقيه»، فاستيقظ فزعا وأمر بإحضار الرجل، وعندما حضر طلب منه أن يعفو عنه إلا أنّ الرجل رفض، فاستحلفه المصحفي بالله أن يخبره بما دعا عليه، فقال الرجل: «دعوت الله أن يميتك في أضيق السجون كما أعمرتنيه حقبة -

تركتني فيه زمنا -»، فعلم المصحفي وقتها أن دعوته لا بد مجابة، وندم على ذلك أشد الندم في وقت لم يعد يفيد فيه ندم، وظل طوال هذه السنوات يرتقب إجابة هذه الدعوة، وقد حدث، ولم يلبث المصحفي عقب هذا اليوم إلا أيامًا قليلة حتى أخرج من سجنه ميتا، قيل: إنه مات خنقًا في البيت المعروف ببيت البراغيث، وقيل: إنه مات مسمومًا.

كان المصحفي العقبة الكؤود في طريق ووجهة ابن أبي عامر، لذلك نلحظ بمجرد قيامه بتذليلها والتخلص منها بموت المصحفي سلك دروب الاستبداد في جميع أمور الدولة، فأمسك بكل خيوطها في يده، وجعل تسيير أمورها وفق فكره ورأيه دون غيره، لذلك نجده إذا ما أشار عليه رجال الدولة برأي وفق ما تعارفوا عليه وألفوه من قوانين متعارفة منذ قديم الأزمان، نجده يحيد عن رأيهم ومشاورتهم مستمسكًا برأيه وفق ما يمليه عليه توجهه وفكره.

طريق الاستبداد هذا الذي سلكه ابن أبي عامر لم يضرّ بالدولة ويأخذها في طريق الضعف والانحلال والانحدار في زمانه إنما على العكس فأيامه كانت أيام رخاء وازدهار وعزة، وقد وصف المؤرخون حسن تدبيره لشؤون الدولة وسياستها قائلين: «قام بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إناقة، وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوب بأخشن دياسة، فانتظمت له الممالك، واتضحت به المسالك، وانتشر الأمن في كل طريق، واستشعر اليُمن كل فريق، وملك الأندلس بضعًا وعشرين حجة، لم تدحض لسعادتها حُجة، ولم تزخر لمكروه بها لُجّة، لبست فيها البهاء والإشراق، وتنَّفست عن مثل أنفَاس العراق، وكانت أيامه أحمد أيام، وسهام بأسه أسدّ سهام»، وكان من نتائج ذلك: «مشى تحت ألويته صيد القبائل ... حتى استبد وانفرد، وأنس إليه من الطاعة ما نفر وشرد، وانتظمت له الأندلس بالعُدوة، واجتمعت له اجتماع قريش في دار الندوة»، ولكن هذا لا يمنع أنّ هذا الطريق الذي سلكه ابن أبي عامر ممثلًا في الاستبداد بالحكم والرأي قد آتى ثماره المُرة منذ وفاته، وليس أدل على ذلك مما سبق الإشارة إليه من تغلب محمد بن هشام بن عبد الجبار على الأندلس واستخدامه للخليفة هشام المؤيد كدمية يميته ويحييه وقت ما يحب أو تقتضيه مصلحته.

إمعانًا من ابن أبي عامر في السيطرة على الدولة ووضع جميع خيوطها في قبضة يده قدم البربر وأسقط مراتب العرب، فكان يستدعي البرابرة ويلبسهم أفخم الثياب، ويجزل عليهم عظيم الأعطيات، وكان يسكنهم القصور التي لم يكن يخيل لأحدهم أن يسكنها ولو في أحلامه، فازدادت شوكتهم، وأصبحوا أكثر جند الأندلس الذين يعتمد عليهم ابن أبي عامر في حمايته وحماية دولته، بل أصبحوا فيما بعد هم أصل الجند الأندلسي، وقد وصف لنا ابن عذاري هذا الوضع قائلًا: «استبدل المنصور جند الأندلس بالبربر، فأقام

لنفسه جُندًا اختصهم باستصناعه، واسترقهم بإحسانه، نسخ بهم في المدة القريبة جُند الخليفة الحكم، كما فعله في سائر أموره»، وفي المقابل أبعد العرب وأسقط منازلهم، ثم استبدّ بالحكم، وتسمّى بالحاجب المنصور وأمر أن يُحيّا بتحية الملوك، ونفذت المخاطبات والأوامر من الأقطار باسمه، بل وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الخليفة هشام المؤيد الذي لم يبقَ له من الخلافة إلا هذا الدعاء في المساجد؛ كما وصف صاحب «نفح الطيب» يصف لنا بعبق هذه الحالة قائلًا: «أذل قبائل الأندلس بإجازة البرابر، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر، فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادهم، حتى تغلبوا على الجمهور، وسلبوا عنهم الظهور، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور، الذي أعاد أكثر الأندلس قفرًا يبابًا، وملأها وحشًا ذئابًا، وأعراها من الأمان برهة من الزمان، وعلى هذه الهيئة فهو وابنه المظفر كانا «آخر سعد الأندلس، وحد السرور بها والتأنس».

على الرغم مما وصل إليه ابن أبي عامر من حيازة أمور الدولة واستبداده بها دون غيره، إلا أنه ظل محتفظا بلقب الحجابة، لم يفكر في خلع هذا اللقب والتوجه إلى لقب الخليفة مثلًا، بل جعل الخليفة في مكانه، وظل الدعاء له في المساجد قائمًا مستمرًّا، ولكن هذا الخليفة لم يكن سوى صورة أو إن شئت فقل دُمية يحركها ابن أبي عامر وفق إرادته ورغبته فلم يكن يملك من أمره شيئًا، وظل على هذا الحال حتى عقب وفاة المنصور على ما سيأتي التفصيل فيه.

كانت الخطوة التالية التي اتخذها المنصور عقب استبداده بأمور الدولة هي ابتناؤه لمدينة الزاهرة على غرار مدينة الزهراء التي ابتناها الخليفة الناصر، شرع ابن أبي عامر في بناء مدينته تلك عام ٣٦٨ه/٩٧٨م، وكان سبب ذلك هو خوفه من تكالب الدولة عليه، والفتك به، فحشد إليها الصناع والعمال، ووفر لها الآلات، وجهز الأموال فتم له ابتناؤها في عامين حيث انتقل إليها عام ٣٧٠ه/٩٨٠م، ولم يجلب إليها من أهله وذويه وغلمانه إلا من يثق بهم، واتخذ فيها الدواوين، ثم أمر بابتناء القصور لوزرائه وكتابه وقواده حتى يظلوا بالقرب منه وتحت نظره، فعمرت المدينة وأقيمت فيها المنشآت والأسواق وازدهرت حتى تهافت الناس لحيازة الدور فيها، وذلك بهدف القرب من صاحب الدولة، فكثرت واتسعت عمارتها حتى إنها اتصلت بأرباض قرطبة.

خذها قاعدة

لا يوجد مستبد يأمن على نفسه، وإن أطعم رعيته اللحم والعسل..!!

كانت الزاهرة مدينة غاية في الروعة والجمال شُيّدت على أتم إتقان، وكان المنصور مغرمًا بها، لمَ لا وهي مدينته التي شيدها، وباشر منها حلمه المحقق

بحكم الأندلس..!!، وهذا الغرام دفعه إلى التغزل فيها قائلًا: «ويها لك يا زاهرة الحسن! لقد حسن مرآك وعَبِقَ ثَراك، وفاق مخبرُك، وطاب تُربُك وعَذُب شِربُك، فيا ليت شعري، من المريد الذي يهدمك ويوهن جسمك ويعدمك؟!!»، فاستنكر عليه جلساؤه ما قاله، وقام أبو عمرو بن حُدير وقال له: كأنك لم تسمع بهذا يا أبا عمرو - يقصد المنصور-؟ هو عندك وعند سلفك من صاحبك الحكم لكنك تتجاهل، نعم سيظهر عليها عدونا فيهدمَّها ويُلقي حجارتها في هذا النهر»، وكأنه أراد أن يقول له كم من دول أفل نجمها، وحكام زال سلطانها، أنت تعلمها وتعلمهم ولكنك متجاهل لها ولهم، وكما حدث هذا في غير الزاهرة سيحدث فيها وتهدم..!!

انتهى ابتناء مدينة الزاهرة وانتقلت إليها كافة مؤسسات الدولة وأمر ابن أبي عامر بالكتابة إلى جميع عماله على الأقاليم الأندلسية أن يُقصد قصره بالرسائل والخطابات وأموال الجبايات، وحذر من الذهاب إلى قصر الخليفة هشام المؤيد، وذلك بعد أن عزله عن الخاصة والعامة سواء، أو إن شئت فقل حبسه وجعله يحيا في ظل الإقامة الجبرية التي افترضها عليه، بأن أوكل الإشراف على قصره وحراسته لمن يثق بهم من رجاله الذين يمنعون من يحاول الدخول له، ويرقبون حركاته وسكناته ليلًا ونهارًا، ثم أشاع أن الخليفة أوكل إليه التصرف في كل شؤون الدولة حتى ينقطع هو للعبادة، وقام ابن أبي عامر على إثر ذلك بابتناء سور حول قصر الخليفة، ثم حفر خندقًا إمعانًا منه في عزله، بل إمعانًا منه في الاستبداد أمر ألا يصل إليه أي شيء خاص بالدولة وإن حدث وقام أحدهم بذلك سيتم عقابه والتنكيل به، وقد أجمل ابن عذاري ما اتخذه ابن أبي عامر ضد الخليفة من أمور بقوله: «أفرد الخليفة من كل شيء إلا من الرسم الخلافي»، ثم قال في موضع آخر حتى يرسم لنا صورة ذهنية إلى أي مدى وصل استبداد ابن أبي عامر وسوء فعله بالخليفة: «والأخبار عنه في هذا المعنى واسعة جدًّا، غير أن الاختصار في ذلك: أنّ ابن أبي عامر بلغ في ذلك مبلغًا لم يبلغه قط متغلب على خليفة، لأنه احتوى على الملك كُله وصيَّر الخليفة قُبضة في يده، حتى إنه لم يكن يُنفذ له أمرٌ في داره ولا حرمه إلا بإذنه وعلمه، وجعل مُتولي قصره من قِبَله من يثق به، وصيَّره عينًا على السلطان، لا يخفى عليه شيء من حركاته وأخباره».

ومما روي عن الخليفة هشام المؤيد أنه عقب عزله عن الناس، أنشد شاكيًا:

أليس من العجائب أن مثلي

يرى ما قلَّ مُمتنعًا عليه

وتُملك باسمه الدنيا جميعًا

وما من ذاك شيءٌ في يديه!

لم تكن الأعمال المعمارية التي استحدثها المنصور في الأندلس حكرًا على مدينته الزاهرة بما شملته بين أركانها من قصور ومساجد وأسواق ومؤسسات خاصة بالدولة، حيث ابتنى قنطرة على نهر قرطبة وهي غير القنطرة المعروفة والمشهورة، ابتدأ بناءها عام ٣٧٨هـ/٩٨٨م، وانتهى منها عام ٣٧٩هـ/٩٨٩م، وبلغت تكلفت بنائها ١٤٠ ألف دينار، واشترى الأرض المقابلة لها من صاحبها ب مائة دينار ذهبي بهدف التوسيع على الناس والجيوش إذا ما مرت على هذه القنطرة، كم أنه ابتنى قنطرة على نهر استجة، فهذه المنشآت إن دلت على شيء فإنما تدلّ على مدى عناية المنصور بدولته وذلك بالعناية بالمؤسسات التي من شأنها تيسير حياة الرعية، وفي نفس الوقت تسهيل حركة جيشه أثناء ذهابه وإيابه، ناهيك عن بناء وتعمير قنطرة([34]) طليطلة هذه القنطرة التي تعود أهميتها لكونها واصلة بين شمال بلاد الأندلس وجنوبه، لذلك فإن أغلب التجارات الداخلية والخارجية داخل هذا المحيط كانت تمر بتلك القنطرة.

كان للمنصور ابن أبي عامر نفس طموحة، تواقة للمعالي لا تقف عند حد، لذلك نجده عقب تحقيق حلمه بحكم الأندلس، يمني نفسه بملك مصر والحجاز، ونظم في ذلك قائلًا:

مَنَع العَيْنَ أن تذوقَ المَناما

حُبُّها أن تَرى الصَّفا والمَقاما

لي دَيونُ بالشرق عِند أُناس

قَد أحَلُّوا بالمَشعرينِ الحراما

إن قضوها نالوا الأماني وإلا

جعلوا دُونها رقابًا وهاما

عن قريب تَرى خُيول هشام

يبلُغُ النيل خَطوها والشاما

عند وصول ابن أبي عامر إلى هذه المنزلة من وضع كل مقاليد الحكم في يديه سعى في التخلص من صهره غالب الناصري الذي استعان به في التخلص من جعفر المصحفي، وكان غالب فارسًا شجاعًا متقنًا لفنون الحرب والفروسية، يتفوق في ذلك على ابن أبي عامر، ففكر ابن أبي عامر في شخص يستعين به على غالب فلم يجد إلا جعفر بن على بن حمدون المعروف بابن الأندلسي، وكان يقيم في المغرب، فأرسل إليه الخطابات يتلو بعضها بعضًا يدعوه ويستحثه للقدوم إليه، فسلم ابن الأندلسي عمله لأخيه يحيى

وعبر بجيشه إلى الأندلس، فاستقبله ابن أبي عامر وأعلى شأنه وأسكنه قصر العقاب ثم ولّاه الوزارة، وقربه وأدناه منه حتى قيل إنه جعله منه بمثابة الأخ في الثقة به والاعتماد عليه، وقدّمه على جميع من حوله غريبًا كان أو قريبًا، وكان قدوم ابن الأندلسي سببًا في ازدياد شوكة البربر الذين قربهم، وأعلى شأنهم ابن أبي عامر بمجرد وصوله لحكم الأندلس.

عندما وصل إلى غالب الناصري خبر قدوم ابن الأندلسي على ابن أبي عامر فطن إلى ما يرمي إليه، وبدأت العداوة بينهما تظهر فقامت بينهما المعارك والحروب التي كان النصر فيها حليف ابن أبي عامر، وحدث في إحدى المعارك التي دارت بينهما أن كان النصر على وشك أن يكون حليفًا ل غالب الناصري إلا أنه تعرض لحادث قيل إنه وقع من فوق جواده فمات، وتحول النصر لابن أبي عامر وهذا كان من حسن حظه الذي لازمه منذ أن وطأت قدمه قصر الحكم حتى تمكنه من مقاليد حكم الأندلس.

لم يكن ابن أبي عامر يفرغ من تدبير الحيل للتخلص من أحد منافسيه حتى يشرع في تدبير آخر ليتخلص من الذي يليه، لذلك نجده بمجرد فراغه من أمر غالب الناصري وتخلصه منه بمعاونة ابن الأندلسي يسعى للتخلص من ابن الأندلسي، فاستعان عليه ب أبي الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي، وهو أحد فرسان العرب الذي قاد البعض من الأندلسيين وقتلوا ابن الأندلسي في غفلة منه، ثم قتل ابن أبي عامر أبا الأحوص، وانفرد هو بالدولة حيث لم يعد فيها من يقوى على منافسته.

أما عن كيفية تمكن أبي الأحوص معن من قتل ابن الأندلسي وهو أحد أشجع فرسان العرب الذي لم يجد ابن أبي عامر أفضل منه يستخدمه ضد صهره غالب الناصري، حدث أن قام ابن أبي عامر بدعوة ابن الأندلسي إلى مجلسه، بحضور ندمائه وكبار رجال دولته، ناهيك عن الجواري وما لذّ وطاب من طعام وشراب وغناء، فحضر الفتى المسئول عن صبّ الخمر في مثل هذه المجالس وملأ كأسًا وقدمها لابن أبي عامر، فقال له ابن أبي عامر: «اسقها أعز الناس عليَّ»، فوقف الفتى متحيرًا لمن يعطيها؟!! والمجلس مكتظ بوجهاء وكبار رجال الدولة!!، وهنا عنفه ابن أبي عامر قائلًا له: «ناولها الوزير أبا أحمد – يقصد ابن الأندلسي-، عليك لعنة الله»، فأخذ ابن الأندلسي الكأس وشربها، فطرب وقام ليرقص، وتبعه جميع من في المجلس فقاموا للرقص معه، وأخذ يُنَاول الكأس تلو الأخرى فيشربها حتى سَكِر ولم تقوَ قدماه على حمله، فَهَمَ بالانصراف من المجلس في آخر الليل ومعه البعض من رجاله، وفي الطريق إلى داره أو قصره الذي أسكنه إياه المنصور فور قدومه إلى الأندلس خرج له أبو الأحوص معن التجيبي مع جملة من أصحابه فأحاطوا به، ونظرًا لسُكرِه لم يقوَ على مقاومتهم، فقتلوه، وقطعوا رأسه ويده اليمنى

وحملوهما إلى المنصور سرًّا، وعندما حلّ الصباح وعلم الناس بموته ووصل الخبر للمنصور لعب دور الحزين على موت أحد رفقائه.

قضى ابن أبي عامر على كل منافسيه، ثم لقب بالمنصور، وكان ذلك عام ٣٧١ه/٩٨١م، ودعي له بهذا اللقب على المنابر، وصارت كتبه ومراسلاته إلى ولايات وأقاليم الأندلس تبدأ ب «من الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر إلى فلان»، وقام الوزراء وكبار رجال الدولة متوجهين بالانحناء له وتقبيل يده، وتبعهم في ذلك وجهاء بني أمية، بل وصل الحال أن كبار رجال الدولة إذا ما لمحوا أحدًا من بنيه تسابقوا إليه مقبلين يده أو أطراف ثيابه، وبذلك استوفي ابن أبي عامر رسوم الخلافة مجتمعة اللهم إلا لقب «خليفة»!!.

تخلُّص المنصور من كل منافسيه الواحد تلو الآخر دون مراعاته لمواقف البعض أو عشرة الآخر أدى إلى تملك الخوف من قلوب الولاة على مختلف الأقاليم الأندلسية، وعلى رأس هؤلاء الولاة عبد الرحمن بن مطرف صاحب سرقسطة والثغر الأعلى الأندلسي، حيث فكر أنّ الدور لا بد وسيأتي عليه، لذلك حاول التفكير في تدبير حيلة يسبق بها المنصور ويتخلص منه، فخدمته الأقدار عندما خرج عبد الله بن المنصور بن أبي عامر على أبيه ولجأ إلى عبد الرحمن بن مطرف الذي لم يدع الفرصة تفوته في زيادة إشعال النار في قلب عبد الله تجاه أبيه.

كان سبب غضب عبد الله على أبيه وحقده على أخيه، قيام المنصور بتقديم أخيه عبد الملك وتفضيله عليه، حيث كان عبد الله يرى نفسه أنه الأفضل من عبد الملك فهمًا وعلمًا وشجاعة، بل بلغ به الكِبر والغطرسة أنه كان يرى أن أباه سيكون ظالمًا إذا ما ساوى بينه وبين أخيه، فكيف يقدمه ويفضله عليه؟!!، من هنا لجأ عبد الله إلى سرقسطة، وأقام بكنف صاحبها عبد الله بن مطرف الذي وجد فيه ضالته وتحقيق غايته، فزاد من إشعال النيران في قلبه تجاه أبيه، واتفقا سويّا أن يقاتلا المنصور وإذا ما انتصرا عليه تقاسما ملك الأندلس، ل عبد الله قرطبة وما يليها، ول ابن مطرف الثغر وما يليه.

أخذ عبد الله وابن مطرف في التجهيز والاستعداد لمناهضة المنصور وإزاحته عن حكم الأندلس، وانضم لهما وتبعهما جماعة من كبار وجهاء قرطبة، ناهيك عن بعض الجند والخدم الذين كانوا يتمنون التخلص من سطوة المنصور واستبداده، كما انضم إليهم الوزير عبد الله بن عبدالعزيز المرواني صاحب طليطلة، وفور وصول خبر هذه الأحداث للمنصور قام بحنكته وذكائه بعزل المرواني عن طليطلة دون أن يُعلمه أنه يعلم ب تواطئه مع ابنه عبد الله وابن مطرف للتخلص منه، لذلك عزله عن المدينة وتركه في الوزارة حتى يطمئن بعدم علم المنصور بأمره، ومن ثم يعارض أمره بالعزل ويعلن الثورة عليه،

وبعد فترة قام المنصور بعزله من الوزارة وأمره بلزوم داره وعدم الخروج منها، كما قام المنصور بإرسال الخطابات والمراسلات لابنه عبد الله يتودده ويسترضيه حتى يعود عما عزم عليه من شقّ عصا الطاعة.

خرج المنصور في غزوته الخامسة والأربعين ليقمع العدو النصراني من جهة، ويكبح جماح عبد الرحمن بن مطرف ومن تبعه من أهل الثغور من جهة أخرى، وعند توجهه قاصدًا قشتالة توافدت عليه الجيوش من الثغور وعلى رأسهم عبد الرحمن بن مطرف وجيش سرقسطة للانقضاض عليه والتخلص منه، وعندما وصلوا إلى وادي الحجارة عمد المنصور إلى استخدام الحيلة، فأمر البعض من رجاله بالدخول في جيش الثغور، ونشر شائعة مفادها أن ابن مطرف يستولي على أموال رجاله ويحتفظ بها لنفسه لينعم بها دونهم، وتمكن رجال المنصور من تنفيذ المهمة التي أوكلت لهم، مما أدى إلى حدوث زعزعة واضطراب في الجيش وهنا تمكن المنصور من هزيمته، وفرَ ابن مطرف هاربًا متخفيًا مع البعض ممن بقي معه من الجند، وقام ابن أبي عامر بتولية ابن أخيه عبد الرحمن بن يحيى الملقب ب سماجة على سرقسطة، ولم يمضِ غير قليل حتى تم القبض على ابن مطرف، فحاسبه المنصور وأذاقه ألوان العذاب ثم قتله.

انتهت هذه الفتنة وقام المنصور باستدعاء ابنه عبد الله يستقدمه إليه خوفًا من أن يرتكب أمرًا آخر لا تُحمد عقباه بسوء سلوكه وتصرفه، وعندما حضر رفق به ولم يتعرض لعقابه على صنيعه، متأملًا في صلاحه إلا أنه كما روي ابن عذاري أنه كان أبعد الناس عن الصلاح أو الاستصلاح، وذلك لما انطوت عليه نفسه من سقم، وانطوى عليه قلبه من حقد.

خذها قاعدة:

بعض الأشخاص مثل الأرض البور (الخربة) مهما حاولت إصلاحها واستصلاحها لن تجني منها إلا الضيق والتعب لما انطوت عليه تربتها من ملوحة وقفر، فلا تكلف نفسك العناء فيها، وعلى الصعيد الآخر احذر أن تترك أرضك (روحك) وتغفل عن تعهدها بالعناية والرعاية، فتبور وتصير صحراء جرداء لا زرع فيها ولن يفيد معها ماء..!!

اصطحب المنصور ابنه عبد الله معه وتوجه لغزو مدينة شنت أشتبين، وعندما انشغل المسلمون بقتال العدو فرّ عبد الله هاربًا والتجأ إلى غرسية بن فرذلند حاكم ألبة، فرحب به غرسيه واتفق معه في الخروج على أبيه، لذلك عقب انتهاء المنصور من ضبط أمور شنت أشتبين توجه إلى ألبة مطالبًا حاكمها بتسليم ابنه، فرفض غرسية طلبه، وهنا أقسم المنصور إن لم يتم تسليمه ابنه لن يرجع عن غزو بلاده، فاشتد غرسية في عناده، فدخل المنصور ألبة عنوة

وهزم جيشها، وافتتح حصن وخشمة وهو من أبرز حصون ألبة، وأسكنه المسلمين بعد أن أخلاه من النصارى، فلم يجد غرسية عقب تعرض بلاده لما تعرضت له بُدا من طلب الأمان على الشروط التي يشترطها المنصور، وأرسل له ابنه عبد الله مع جملة من رجاله، فأرسل المنصور بعض رجاله لاستقبال ابنه وعلى رأسهم فتى يدعى سعد الخادم، وعندما قدم عبد الله وكان يرتقي بغلًا ضخمًا وعليه ثيابٌ فخمة اقترب منه سعد وقبّل يده، وهوّن عليه ما حدث، وذلك حتى ينصاع له، وفي طريقهم مروا على موضع يدعى الوادي الجوفي، فتركه سعد الخادم، وأخبره من تبقى معه من الرجال بصدور الأمر بقتله، وطلبوا منه أن ينزل عن بغلته، فلم يمتنع بل تقدم إلى الموت بكل شجاعة حتى قيل عنه: «ظهرت منه عند الموت صرامة، عجب لها من شاهده»، وقام ابن خفيف الشرطي بقطع رقبته، وأحضروها لأبيه، بعد أن دفنوا جسده في الموضع الذي قتل فيه، وقام المنصور بإرسال الرأس ومعها خطاب ببشرى الفتح للخليفة، وكان ذلك عام ٣٨٠هـ/٩٩٠م، وعمره ثلاث وعشرون سنة.

كان من غرائب الأمور أنه عقب مقتل عبد الله بن المنصور، كره المنصور رؤية سعد الخادم الذي استقبل عبد الله عند قدومه من لدن غرسية حاكم ألبة، وابن خفيف الشرطي الذي ضرب عنقه، وضاق بهما ذرعًا حتى إنه لم يُطق أن يراهما حوله، فأمر بقتلهما، وكأنه لم يحتمل أن يرى قاتلا ابنه يتحركان أمامه وإن كان قتلهما له بأمره، أو ربما ألف المنصور الفتك والإيقاع بكل من سفكت يداهم الدماء، وإن كانت بأمره، وقد أحدث مقتل ابنه ردة فعل شديدة في قرطبة خاصة والأندلس عامة، وامتلأت قلوب الناس منه رعبًا، فمن يقدم على قتل ابنه ويرسل رأسه بنفسه إلى الخليفة، ما هو فاعل أن ظفرت يداه بغيره؟!!.

مما روى عن المنصور بعد مقتل ابنه عبد الله، أنه حضر مجلسه رجل يدعى زطرزون البربري، وكان من المعروفين بالجهل والبلاهة (الجنون)، فتبسط إليه المنصور وأنس به، فسأله زطرزون عن سبب إقدامه على قتل ابنه عبد الله؟!!، ثم ذكر له خصاله الحميدة وشجاعته، فقال له المنصور ألا يغتر بهذه الخصال الحميدة والشجاعة، لأنني لو تركته لقتلني، ثم قال إنه لم يكن ابنه([35])، ثم قال: «إن الأرحام الردية تُفسد الذرية»، فقال له زطرزون: «كذا يا مولاي؟!! فحَرَامُ أمِّه، وحِرْمُ أبيه»، يقصد إن كان الأمر كذلك، فأين كانت نخوتك أنت كرجل، عقب علمك بأنه ليس بابنك؟!!، فخجل المنصور منه، وقال: «شقينا بهذا الملعون – يقصد عبد الله – في حياته وبعد مماته!!»، إلا أنّ المنصور لم يتعرض ل زطرزون بسوء، لعلمه بجهله وجنونه، وصارت هذه الجملة من الجمل المأثورة التي ظل أهل الأندلس يرددونها ويتداولونها مدة طويلة.

صدق القائل:

خذوا الحكمة من أفواه المجانين..!!

كان من ضمن أغرب الأمور التي أحدثها المنصور بن أبي عامر في مدة سيطرته على مقاليد الأمور في الأندلس هي جعله الخليفة هشام المؤيد يكتب له عهدًا بتولية ابنه عبد الملك الحجابة من بعده، فالمتعارف عليه حتى هذه اللحظة أن الخليفة يكتب عهدًا بولاية العهد لابنه أو أخيه أو عمه أو أي كان من عشيرته، أما أن يعين وليًا للعهد في الحجابة فهذا لم تكن له سابقة في التاريخ قبل أن يستحدثها المنصور بن أبي عامر، ومنذ تلك اللحظة ترك المنصور التسمية بالحجابة واقتصر على لقب المنصور فحسب، وكان يكتب للولاة من وقتها «من المنصور بن أبي عامر، وفقه الله، إلى فلان..»، وتسمى ابنه عبد الملك بالحجابة، وصار يكتب للعمال مسبوقًا اسمه بالحجابة.

أما بالنسبة للغزوات التي غزاها المنصور ف كان من أشهرها غزوة شَنْت يَاقُوب، وشنت ياقوب هي أحد ثغور مدينة ماردة، كانت مملوكة للنصارى حتى هذا التاريخ، وكان بها كنيسة يعظمها النصارى حتى إنهم يعتبرونها بمثابة الكعبة لدينا، يحلفون بها ويحجون إليها من كافة الأقطار الأندلسية فضلًا عن الأوربية، وسبب علو مكانة هذه الكنيسة تحديدًا لديهم أنهم كانوا يزعمون أن يعقوب الحواري مدفون في هذه الكنيسة، وهو أحد حواري سيدنا عيسى-عليه السَّلام-الذين كان عددهم اثني عشر حواريًّا، وكان أقربهم لسيدنا عيسى-عليه السَّلام-حيث كان يلازمه ولا يكاد يفارقه، حتى إنهم كانوا ينعتونه بأنه أخوه قائلين أنه «أخو الرب»، باعتبار أن عيسى-عليه السَّلام-بالنسبة لهم الرب - تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا - وزعموا أن ياقوب هذا ابن يوسف النجار الذي كان يعمل لدى سيدنا زكريا عليه السلام.

ياقوب أو يعقوب كان أسقفًا لبيت المقدس، وظل يجوب الأقطار داعيًا إلى الله، وجاز الأندلس ووصل هذه المدينة التي عرفت فيما بعد باسمه، وظل بها مدة، ثم عاد إلى أرض الشام، وقُتل هناك، فحمل أصحابه رفاته إلى الأندلس ودفنوه في كنيسة هذه المدينة، وقيل: إن الكنيسة بنيت على جسده المدفون، فسميت باسمه، وكانت مدينة حصينة، لم يفكر أحد من حكام الأندلس الذين سبقوا المنصور في غزوها نظرًا لحصانتها ومناعتها، ومشقة الوصول إليها.

خرج المنصور لغزو شنت ياقوب عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م، وعلى الرغم من الصعوبات والعقبات التي تعرض لها المنصور ورجاله أثناء توجههم لغزو هذه المنطقة إلا أنّ المنصور لم يتراجع عن غزوها حتى دانت له، وعندما دخلها وجدها خالية من أهلها، فهدم مصانعها وأسوارها وكنيستها، ووجد بجوار قبر

ياقوب رجلًا كبير في السن فسأله عن سبب بقائه هنا وقد ترك أهل المدينة مدينتهم وهربوا، فقال له: أنه يؤنس ياقوب، فأمر بتركه وعدم التعرض له ولا للقبر بسوء.

قبل أن ننهي الحديث عن غزو المنصور وجهاده لا بد أن نشير إلى بعض أحواله التي رويت عنه أثناء ذهابه للغزو، فمما روي عنه أنه كتب لنفسه مصحفًا خطه بيده، لم يكن له أن يفارقه في جميع أسفاره أو غزواته التي غزاها سواء كان القصد منها غزو العدو، أو إخماد ثورة، وذلك تبركًا به، وفي هذه اللمسة على بساطتها لفتتان؛ الأولى: مهما كانت ذنوبك ومعاصيك وانشغالك في دوامة الحياة عن المولى جل وعلا، لا تنسى أن يكون بينك وبين الله تبارك وتعالى عمل خاص لا يعلم به غيرك، عمل خاص بك أنت وحدك؛ الثانية: لا تحرم نفسك لذة أن يكون المصحف رفيقًا لك في كل الطرق والدروب التي تسلكها.

لقد صحبنا في حياتنا الكثير والقليل، وشرفنا برفقة القليل والكثير، ولكن هل هناك شرف يداني شرف مرافقة كتاب الله جلّ وعلا، كتاب تعلم أنه يحمل بين طياته كلام المولى لك منزلًا من السماء لك أنت تحديدًا.. فكر أن تصطحب معك المصحف في أي مكان حتى وإن لم تقرأ فيه، فسيأتي يوم وتمد يدك إلى حقيبتك التي يزينها وتمسك به لتتصفح حروفه، بل سيمر عليك يوم يكون من أسوأ المشاعر أن تفتح حقيبتك ولا تجد بها كتاب الله-عزّ وجل- لأنك نسيته في البيت قبل خروجك، من يعش ولم يتذوق مثل هذه المشاعر، عاش ومات ولم يتذوق أحد أروع معاني الحياة.

ومن ذاق عرف..!!

أيضًا كان المنصور قد قام بتعيين بعض الخدم الذين يصحبونه في جميع غزواته وظيفتهم أن يجمعوا ما حوته ملابسه التي يرتديها لأجل الحرب من تراب ويضعونها في صرة أوصى أن تدفن معه في قبره، وكان إضافة إلى اصطحابه لهذه الصرة التي يوضع فيها ما حوته ملابسه من تراب في كل موطن تطؤه قدماه، والمصحف الذي خطه بيده، كان يحمل معه أكفانه لظنه أنه قد يموت في أي لحظة أثناء الغزو، وكان دائمًا ما يدعو الله-عزّ وجل-أن يميته وهو في طريق الجهاد؛ الغريب في الأمر أن أكفانه التي كان يصطحبها معه في كل غزواته لم يشترِها من أموال الدولة التي تحت يده ولا سبيل لأحد إليها إلا بإذنه وموافقته، وإنما اشتراها من ضيعة كان قد ورثها عن أبيه.

أيضًا كان من المواقف التي سطرت للمنصور بن أبي عامر بحروف من نور أنه حدث أن ذهب أحد رجاله مبعوثًا إلى غرسية أحد ملوك النصارى آنذاك، فاستقبله الملك النصراني وأكرمه، وظل الرجل في بلاد النصارى مدة يتجول

بين أنحائها ويشاهد كنائسها، وحدث أنه أثناء تجواله في أحد الكنائس قدمت عليه امرأة وعرفته بنفسها وأخبرته أنها أسيرة هنا منذ سنوات، قائلة له كيف للمنصور أن يهنأ بعيش والمسلمات أسيرات عند الأعداء، وأخذت منه العهود والمواثيق أن يخبر المنصور بحالها وشأنها، فوعدها الرجل بذلك.

انتهت مدة بقاء الرجل في بلاد النصارى وقفل عائدًا إلى المنصور، وفور وصوله للمنصور حدثه عن جميع ما رأى في هذه البقعة من حال ملكها ورعيتها وغيرها من أمور، وظل المنصور منصتا له حتى انتهى من حديثه، وعقب انتهائه سأله المنصور إن كان وقع على أمر غريب هناك؟!!، وهنا حدثه الرجل عن قصة المرأة التي التقاها في الكنيسة، فغضب المنصور وعنفه أنه لم يبدأ الحديث بها، وقام من فوره وأمر بتجهيز الجيش لغزو هذا الملك النصراني الذي خالف العهود التي بينه وبين المنصور والتي منها ألا يُبقى أحدًا لديه من أسرى المسلمين بل يسلمهم جميعًا، وعندما علم الملك النصراني بالأمر تعجب وأرسل رسالة للمنصور متسائلًا: ما الذي حدث حتى يغزو بلاده وقد أخذ عليه من العهود والمواثيق التي لم يتجرأ على نقضها؟!!، وهنا عنف المنصور الرسول الذي أرسله الملك مخبرًا إياه بشأن المرأة الأسيرة في الكنيسة، وعاد الرسول إلى الملك وحدثه بالخبر الذي لم يكن له علم به، فقام الملك على الفور بإرسال المرأة للمنصور ومعها اثنتان من النسوة كنّ أسيرات معها في نفس المكان حيث أسرهن أحد القساوسة واستخدمهن للعمل في الكنيسة دون علم الملك، ولم يقف استرضاء الملك للمنصور عند هذا الحد بل أخبره أنه سيهدم هذه الكنيسة، وهنا استحيى منه المنصور ورجع عن قراره بغزو بلاده وحمل النسوة معه وأوصلهن إلى بيوتهن.

هذا هو المنصور بن أبي عامر الذي يطعن فيه البعض وكأنه لم يكن له أي حسنات، فما يعنينا من أعماله أنه أعزّ الإسلام وأهله فلم يكن يتجرأ أحد في حياته على المسلمين، وغزا بلاد العدو فلم تهزم له راية، هذا لا يعنى أنه ليس له أخطاء، ولكنّ أخطاءه لا تلغي أو تنفي ما قدمه للإسلام والمسلمين، فلا تنجرف أخي القارئ وأختي القارئة وراء من يطعنون في رموز الأمة حتى لا يجد أبناؤها رموزًا يفتخرون بها فضلًا عن أن يقتدوا بها.

كان من أبرز الصفات التي امتاز بها المنصور هي اعترافه الدائم بذنبه، وكان يتضح ذلك جليًّا من تقبله لمن يأتي له مذكرًا إياه بالمولى سبحانه وتعالى وبثوابه وعقابه، فلم يكن ينهره وإنما كان يتعظ ويعتبر ويبدو عليه أثر الخوف من عقاب ربه تبارك وتعالى، أضف أنه على الرغم من حيازته للملك إلا أنه لم يغرق في الحياة التي غرق فيها الملوك من مجالس اللهو والمجون والجواري، فيما عدا الخمر، إلا أنه كان قد انتهى عن تناولها قبل وفاته بعامين؛ أما بالنسبة لعدله فلم يكن حكرًا على الخاصة من رجاله وبطانته، وإنما شمل

عدله الخاصة والعامة سواء، بل كان يعاقب ويقتص من رجاله ورجال دولته إذا ما وصل لسمعه أن أحدهم قام بالتعرض لأحد من الرعية بظلم أو أذى.

كان من المواقف التي تبرز عدل المنصور مع رعيته ولو على حساب رجاله وحاشيته، أن حضر رجل من العامة مجلسه، وناداه قائلًا: يا ناصر الحق إن لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك!!، ويقصد أحد الصقالبة المتواجدين بجوار المنصور، وأكمل الرجل حديثه موضحًا للمنصور أنه دعا هذا الصقلبي للمثول أمام قاضي المظالم وإن كان لأيّ منا حق فليأخذه من الآخر إلا أنه رفض، وهنا بدا على وجه المنصور الغضب مغلفًا بالتعجب، فقال: «أو عبد الرحمن بن فطيس – اسم الصقلبي – بهذا العجز والمهانة، وكنا نظنه أمضى – أفضل – من ذلك؟»، ثم التفت للرجل وقال له: «اذكر مظلمتك!!»، فذكر له الرجل أنه كان بينه وبين هذا الصقلبي معاملة خاصة بدرع أخذه منه ولم يوفِه حقه كاملًا، فقال المنصور: «ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية..!!»، ثم نظر إلى الصقلبي نظرة ملؤها الغضب والضيق وأمره أن يعطي الدرع للرجل، كما أمره أن ينزل من مكانه ويقف بجوار الرجل مساويًا له، قائلًا له: «انزل صاغرًا – ذليلًا -، وسَاو خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك»، فامتثل الصقلبي لأوامر المنصور، ثم استدعى المنصور صاحب الشرطة وأمره أن يأخذ الصقلبي والرجل إلى قاضي المظالم ليحكم بينهما قائلًا له: «خذ بيد هذا الفاسق الظالم - يقصد الصقلبي - وقدّمه مع خصمه إلى صاحب المظالم، لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن وغيره»، ففعل صاحب الشرطة ما أُمر به، ثم عاد الرجل عقب إنصاف المنصور وصاحب المظالم له حتى يشكر المنصور، فقال له المنصور: «قد انتصفت أنت، اذهب إلى سبيلك، وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتي»، وبعدها أذاق المنصور هذا الصقلبي كل أنواع المذلة والمهانة جرّاء فعلته تلك وذلك بعد أن أبعده وعزله عن منصبه.

أيضًا من المواقف التي توضح عدل المنصور بن أبي عامر من ناحية وترسم صورة واضحة لهذه الشخصية الفذة من ناحية أخرى، أن فتاه المعروف بالبورقي أو الميورقي على الاختلاف بين المؤرخين، وهو أقرب فتيان المنصور إليه، وأعلاهم منزلة لديه، حتى إنه أوكل له أمر قصره وحرمه، حدث بين هذا الفتي وبين تاجر مغربي خصومة، تواجه فيها الطرفان أمام القاضي حتى أوجب فيها القاضي على البورقي – فتى المنصور - حلف اليمين على صحة ما قاله، وهنا استشاط البورقي غضبًا من القاضي، وعنّف القاضي مغلظًا له القول فكيف له أن يطلب منه حلف اليمين وهو من هو؟!!، وهنا ذهب التاجر المغربي إلى المنصور حيث اعترضه أثناء طريقه إلى الجامع وصرخ فيه موضحًا ظلم رجله له، وعلى الفور أوكل المنصور به من اصطحبه إلى القاضي للحكم في قضيته، فأنصف القاضي التاجر لصحة دعواه وظُلم

البورقي له، فغضب المنصور من فتاه أشد الغضب عندما علم بصحة ما قيل فيه، وعزله من منصبه، وقام بنفيه.

كذلك من هذه القصص قصة فصّاد المنصور، والفاصد: كما أوضحنا أثناء الحديث عن الناصر هو الشخص الذي يأخذ عينه من الدم ليقوم بفحصها، كان فصّاد المنصور ويدعى محمد إضافة إلى امتهانه الفصد من خدام المنصور المؤنسين له، لذلك كان كثيرًا ما يدعوه المنصور للجلوس والحديث معه، وذات يوم بعث إليه المنصور لأجل الفصد وعندما ذهب أحد فتيان المنصور لإحضاره علم أنه محبوس في سجن القاضي محمد بن زرب وذلك بسبب ظلم وقع منه على زوجته، وكان هذا الفاصد عند ذهابه إلى القاضي يظن أن كونه أحد رجال المنصور وأقرب مقربيه سيحميه هذا الأمر من اتخاذ القاضي أي اجراء ضده، إلا أن ظنه خاب حيث حكم عليه القاضي بالسجن، وعندما علم الفتى المرسل من قبل المنصور لإحضاره بأمره عاد إلى المنصور ليخبره بما حدث له، وهنا أمر المنصور أن يأتي له بالفاصد ومعه رقيب من رقباء السجن يصطحبه إليه، ونفذ أمر المنصور وجيء ب محمد الفاصد إليه، وعندما مثُلَ أمامه أخذ يشكو إليه ما حدث له، وهنا قطع المنصور كلامه وقال له: «يا محمد إنه القاضي، لو رأى أن إظهار الحق يتحقق بحكمه عليّ ما اعترضت ولا امتنعت عن إنفَاذ حكمه!!»، ثم أمره أن يعود مع الرقيب إلى السجن، ويعترف بالحق لأنه الوحيد القادر على إنقاذه، ففقد الفاصد الأمل في دعم المنصور له ووقوفه بجانبه، وعاد إلى السجن واعترف للقاضي بظلمه لامرأته فصالحه القاضي مع امرأته واطلق سراحه، وعندما علم القاضي بموقف المنصور كان هذا سببًا في أن يشتد في دعم الحق وسلك كل السبل والدروب لإنفَاذه مهما كان صاحبه.

هنا نلحظ أنّ القاضي قام بحبس أحد رجال المنصور وأقرب مقربيه دون إذن منه، بل دون علمه، فإن لم يبعث المنصور لإحضار الفاصد ما كان له أن يعلم بمحبسه، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على عدل الحاكم واحترامه للقضاء وأهله من ناحية، وأمانة ونزاهة القضاة الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم من ناحية أخرى، فلولا وجود هذين العاملين ما قام القاضي بمثل هذا الفعل الذي قد يكون سببًا في إنهاء حياته من قبل الحاكم، وليس عزله من منصبه فحسب؛ بل بلغ من احترام المنصور للقضاء أنه لم يفكر مجرد تفكير في الشفاعة لرجله لدى القاضي على الرغم من أن الأمر متعلق به وبزوجته، وليس بعموم الدولة من فساد واحتيال مما قد يشكل ضررًا على الرعية، بل أمعن المنصور في هذا الاحترام والتقدير للقضاء عندما وضح لرجله أنه لو وجد القاضي أنه لا سبيل لإظهار الحق وتثبيته إلا بالحكم عليّه لامتثل وأذعن وخضع لحكمه.

يتضح مما سبق إلى أي مدى كان حزم المنصور وشدته مع رجاله إذا ما أساءوا الفعل والتصرف مستغلين مناصبهم وقربهم منه، وبالرغم من ذلك فقد كان أشد حزمًا وصرامة مع الجنود الذين يصحبونه في غزواته وحروبه، فكان يخضعهم لنظم وقوانين قاسية حتى لا يفكروا مجرد تفكير في التهاون في أي شيء مهما صغر أو بدا عليه أنه تافه، ولعل السبب في ذلك أنه يستخدمهم لقتال أعدائه الذين يتحينون الفرص لهزيمته أو الوصول إلى أي ثغرة من الممكن أن ينفذوا منها إليه، لذلك كان عند وقوفه على رأس جيشه ليلقي عليهم المهام والتعليمات التي ينبغي أن يسيروا وفقها في الحرب التي يخوضونها معه لا تكاد تسمع ولو حتى صوت أنفاسهم، بمعنى كما يقال في عصرنا الحاضر لو رميت الإبرة لسُمِعَ صوتها، وقد تحدث المؤرخون عن هذا الأمر بكلمات هدفهم منها رسم صورة ذهنية لدى القارئ توضح له إلى أي مدى وصل هذا الحزم والشدة، فكان من جملة ما أوردوه وصف لهذه الحالة: «حتى إنّ الخيل لتتمثل إطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة»، بمعنى أن الخيل تراها وكأنها تشارك الفارس الذي يرتقى ظهرها فتطرق مثله منصتة للمنصور!!، وقد حدث ذات مرة أثناء وقوف المنصور على رأس جنوده يلقى عليهم التعليمات المعتادة في ميدان الحرب أنّ أحد الفرسان وكان في مؤخرة الجيش قام بالإشارة لصاحبه بالسيف، وظنّ أنّ المنصور لن يراه بحكم تواجده في مؤخرة الجيش، إلا أنّ المنصور أثناء حديثه لمح بريق السيف، فقال لأحد رجاله ائتني بمن شهر - رفع - السيف، فأحضره له، وعندما مثل الجندي أمام المنصور قال له: ما حملك على أن شهرت سيفك في مكان لا يشهر فيه إلا عن إذن؟!! فقال له الجندي: أشرت به لصاحبي، فأمر به المنصور فضربت عنقه، وأمر أن يطاف برأسه بين الجند وينادى عن سبب قطع رأسه.

على الرغم من هذا الحزم والشدة والصرامة التي انطوت عليها شخصية المنصور، إلا أن هذا لا يعني أنه كان جلفًا غليظًا لا يلين قلبه البته، فما روي عنه يثبت غير ذلك أنه شهد مع رعيته ذات يوم صلاة الاستسقاء، وكان مرتديًا ثيابًا بيضاء بالية بعض الشيء، وظهرت عليه علامات الخشوع والخضوع للمولى تبارك وتعالى، وكانت يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فمن يراه دون أن يعرفه، لا يخطر بباله أنه المنصور بن أبي عامر مالك مفاتيح الأندلس، وإنما يخيَّل له أنه رجل بلغ مصابه ما تنوء عنه الجبال، فتوجه للجلوس عن يمين الإمام وكان آنذاك القاضي محمد بن يبقي بن زرب الذي سبق وتم الإشارة إلى فضله وعدله وعدم أخذه في الله لومة لائم، وكانوا قد وضعوا للمنصور حصيرًا خاصًّا يجلس عليه، إلا أنه قام بإزاحته بقدمه وأمر بإزالته، وجلس على الأرض، وشهد الاستسقاء مع رعيته.

أيضًا من المواقف التي لا ينبغي أن يفوتنا ذكرها عن المنصور أنه حدث ذات يوم أن عرض على المنصور أسماء السجناء المتواجدين لديه ليقوم بإطلاق سراح من يرى أنه يستحق هذا الإطلاق لصغر ذنبه، أو حسن سيرته فترة تواجده في السجن أو لأي أسباب أخرى يراها المنصور مناسبة لاستحقاقه العفو فيما يُعرف في عصرنا الحالي بالعفو السياسي، وكان من ضمن هذه الأسماء اسم رجل من رجاله الذين كانوا يخدمون في دولته، وكان المنصور قد نقم عليه وحبسه لسبب لم يذكره لنا المؤرخون، وعندما وقعت عينه على الاسم وقّع أمامه قائلا: «لا سبيل إلى إطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية»، بمعنى لن يطلق سراحه حتى يموت فيلحق بأمه ويدفن بجوارها، وعندما علم الرجل في محبسه بما حدث من المنصور، لم يجد بابًا يلجأ إليه إلا باب المولى جل وعلا، فأفرد ليله ونهاره داعيًا ومناجيًا ربه أن يفرج كربته ويقيل عثرته، وأجهد نفسه في ذلك، وجند له كل أوقاته أو بالأحرى أغلبها، وأثناء هذه الفترة التي التجأ فيها الرجل لربه تبارك وتعالى وافقها إصابة المنصور الدائمة بالأرق وعدم قدرته على النوم، وإذا ما نام أتاه رجل يعنفه ويأمره بإطلاق سراح الرجل، ويتوعده إذا لم ينفذ أمره، وتكرر هذا الأمر مرات عدة في ليالي متعاقبة حتى أدرك المنصور أن هذا نذير من ربه، فكتب على الفور بإطلاق سراح الرجل قائلًا: «هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبي عامر»، وكانت هذه الحادثة من الحوادث التي ظل أهل الأندلس يرددونها ويتوارثون حكايتها زمنًا طويلًا.

الشاهد مهما مرت بك خطوب وكروب، ملازمة لاقترافك معاصٍ وذنوب، اعلم علم اليقين أن ربك لن يغلق بابه في وجهك، فالتجئ إليه وتذكر الحديث القدسي عن أبي هريرة t قال: قال النبي -صلّى اللَّه عليه وسلم- يقول الله «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»(رواه البخاري ومسلم).

فتذكر:

إن ذنبك مهما عظم لن يكون أعظم من مغفرة ربنا جل وعلا، لكن لا يدفعنك هذا إلى التمادي، لما من فيه اجتراء وسوء أدب في التعامل مع رب العزة وهو الغني عنّا..!!

كذلك كان المنصور بن أبي عامر من طراز الحكام الذين يقربون العلماء ويعلون مراتبهم سواء معنويًّا أو ماديًّا بما جبل عليه من كرم وجود حتى وصفه المؤرخون قائلين: «كان في ذلك - يقصد الجود والبذل - أعجوبة الزمان»، كما أنه كان يقوم بقمع أهل البدع ويضيق عليهم متى ثبت له سوء فكرهم

ومعتقدهم، فلم يكن يفكر مجرد تفكير في التغافل أو التهاون مع من يُعرف عنهم الحديث في علوم الفلسفة والجدل، أو تداول الأحاديث عن قضايا النجوم ودلالاتها، والاستخفاف بأمور الشريعة، لذلك أمر بحرق كل ما حوته مكتبة الحكم التي سبق وتحدثنا عما حوته بين طياتها من الكتب في مختلف العلوم والآداب والفنون من كتب الفلسفة والجدل، بل أشرف على حرق هذه الكتب بنفسه، بحضور جملة من كبار العلماء آنذاك.

أيضًا من المواقف التي توضح عدم تهاون المنصور مع من يستخف بأمور الشريعة ويخوض في أمور الدين، ما روى عنه أن الشاعر عبد العزيز بن الخطيب وكان يتزعم جملة من الناس يقولون بقرب انقراض دولة المنصور، وقد حدث أن قطع المنصور لسان أحدهم، ثم قتله وصلبه، فسكت البقية، وتركوا الحديث عن هذا الأمر، وكان ابن الخطيب هذا من رجال المنصور المقربين لديه، إلا أن المنصور تغيَّر تجاهه، فظل ابن الخطيب بعد ذلك مترقبًا غدر المنصور به، كما هو عهده مع كل من يتغير عليهم؛ هذا الخوف من غدر المنصور دفع ابن الخطيب إلى مدحه بأبيات بلغ فيها أقصى درجات الغلوّ والخوض في الدين، حيث قال:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

فكأنما أنت النبي محمد

وكأنما أنصارك الأنصارُ

وفور سماع المنصور منه هذه الأبيات، أمر بضربه مائة سوط، كما أمر رجاله بالطواف به في المدينة، والمناداة باستخفافه بأمور الدين، ثم حبسه، وبعد مدة أخرجه من السجن وأمر بنفيه خارج الأندلس؛ وقد يقول قائل إن المنصور لم يفعل ذلك بسبب غضبه أو انزعاجه من خوض الرجل في الدين، وإنما فعل ذلك لأجل كرهه وبغضه له، ولكن لو تمعنا قليلًا في الأمر لوصل إلينا أنّ عقاب المنصور للرجل كان لأجل الدين، فلو كان لأجله لاستغل الأمر وقتله في وقتها، ولم يفرض عليه هذه العقوبات التي ذكرت.

وبما أن الشيء بالشيء يذكر، فقد حدث أن تنبأ ما يطلق عليهم المنجمون بخراب مدينة الزاهرة، وذكر أن المنصور بن أبي عامر كان دومًا ما يرى في منامه أن الله تعالى اطَّلع على قصر الزاهرة، وكثرة رؤيته لهذا المنام دفعته إلى سؤال ابن الهمذاني عن تفسيره، فأخبره ابن الهمذاني أن تفسيره هو خراب الزاهرة بعد إعمارها، وتلا له قوله ا:» فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا»([36])، فكان المنصور عندما يتذكر هذا المنام وهذا التفسير

يغتم ولا يستطيع الهناء بشراب ولا طعام، لذلك كان يتشدد في إيذاء وتعنيف كل من تسول له نفسه الحديث بهذا الأمر.

كذلك روي بشأن خراب الزاهرة أن أحد وزراء المنصور كان يرى في منامه يهوديًّا يمشي في أزقة الزاهرة مناديا: «خرُّوبش، خرُّوبش»، وعنما سأل أحد المفسرين عن ذلك، قيل له هذا نذير باقتراب خراب الزاهرة.

الأكثر مما سبق أن المنصور على الرغم من تنغيص نفسه وضيقها عند تذكره التنبؤ بخراب الزاهرة، فضلًا عن المجاهرة بذلك، إلا أنه كان قد تنبأ أن من ستهدم على يده الزاهرة أو بالأحرى من سيكون سببًا في خرابها ومن ثم هدمها وهو ابنه عبد الرحمن المعروف ب شنجول، حيث كان ابن حدير جالسًا مع المنصور فطلع عليهم ابنه عبد الرحمن وهو يومئذ ابن سبع سنوات، وكان متجهًا إلى الكُتاب، فلما لمحه المنصور قال لابن حدير: «تأمل من طلع علينا، والذي يكون خراب دولتنا على يديه هو عبد الرحمن بن محمد، وأنا أخشى أن يكون هذا لكنه من النفس بمنزلة لا يلحقه معها مكروه، وأراه كأنه هو بعينه، وإن قضى الله شيئا كوَّنه».

وحدث بالفعل أن هدمت الزاهرة في عهد عبد الرحمن بن المنصور المعروف ب شنجول حيث حدث أثناء غيابه في الغزو أن دخل محمد بن هشام بن عبد الجبار قرطبة وأغرى بها الغوغاء والسفهاء ممنيًا إياهم أنه سيترك لهم انتهاب الزاهرة إذا ما انضموا له وناصروه، وبالفعل تم له ما أراد، فترك لهم انتهاب الزاهرة وفيما بعد تم هدمها في خبر يضيق المجال للتفصيل فيه، إلا أننا هنا سنكتفِي بالإشارة إلى لفتة بسيطة، مفادها «إياك ودعوة المظلوم»، فقد ذكر أن الفقيه «القبري»، الذي أمر المنصور بنفيه من الأندلس، مرّ هو وجملة من أصحابه بالزاهرة زمن ولاية شنجول، فنظر إليها وقال داعيًا: «يا دار، فيكِ من كلِّ دار، جعل الله منك في كلِّ دار»، فقدر ربنا تبارك وتعالى كما ورد إجابة هذه الدعوة في أقل من شهر، فانتهبت الزاهرة، وصار من محتوياتها في كل دار من دور قرطبة.

إنه المنصور بن أبي عامر لمن لا يعرفه!!، إنه المنصور بن أبي عامر لمن يهدر كل مواقفه الحسنة والبنَّاءة مقابل ما قام به من سيئات وذنوب ومعاصٍ وتجاوزات وإن دخلت في عداد الكبائر!!، نكرر مهما بلغ مقدار هؤلاء العظماءً الذين تتزين بهم صفحات تاريخنا لا ينبغي أن ننسى أنهم يقعون في تعداد البشر لهم ما لهم وعليهم ما عليهم وفي النهاية حسابنا وحسابهم على الله.

توفي المنصور بن أبي عامر عام ٣٩٢ه بمدينة سالم أثناء عودته من غزو الروم، وكان قد أوصى الثقات من رجاله أن يقوموا بدفنه في الموضع الذي يموت فيه، ولا يحملوه في تابوت أو ما شابه، ودامت دولته ستًا وعشرين سنة

غزا مدة حكمه بنفسه ستًا وخمسين غزوة وقيل سبعًا وخمسين على اختلاف الروايات لم يُهزم في واحدة منها وذلك على الرغم من إصابته بالنقرس، وكان عمره حين مات زهاء خمس وستين سنة، قيل فيه:

آثاره تنبيك عن أخباره

حتى كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتي الزمان بمثله

أبدا ولا يحمى الثغور سواه

وذكر أن هذين البيتين تم نقشهما على قبره.

روى أحد موالي المستعين بن هود ويدعى شجاع، أنه توجه إلى أحد ملوك النصارى آنذاك ويدعى أذفونش، وعند وصوله وجده في مدينة سالم هذه المدينة التي دفن فيها المنصور بن أبي عامر، وكان هذا الملك ناصبًا مجلسه على قبر المنصور، وعندما دنا منه شجاع قال له الملك: يا شجاع، أما تراني قد ملكت بلاد المسلمين، وجلست على قبر ملكهم؟!!، وهنا أخذت شجاعًا الغيرة والحمية على الإسلام وأهله وقال للملك: لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه ما سمع منك ما يكره سماعه، ولا استقر بك قرار، وهنا استشاط الملك غضبًا وقام نحو شجاع ليضربه، فحالت زوجته بينه وبين شجاع قائلة لزوجها: صدقك فيما قال، أيفخر مثلك بمثل هذا؟!!.

وفي نهاية حديثنا عن المنصور بن أبي عامر لا يفوتنا أن نذكر أن من عجائب الأقدار - وإن لم يكن في قدر الله من عجب وهو المدبر لأمر الكون وفعله بين الكاف والنون- عندما ارتحل محمد بن أبي عامر إلى قرطبة، كان عاملًا ضمن العمال الذين كانوا يبتنون مدينة الزهراء التي أمر الحكم بابتنائها، تدبر كان عاملًا يحمل الأحجار اللازمة للبناء، ثم أضحى بفضل الله أولًا ثم صبره ومثابرته ويقينه بتحقيق حلمه حاكمًا عليها، لا يحدث فيها شاردة ولا واردة إلا بعلمه بل وأمره، وقد علق المؤرخون على ذلك قائلين: «كان من غريب الأمور أن محمد بن أبي عامر تولى النظر في شأنها مع من نظر فيها، وهو يومئذ في حال الفتوة والاحتياج، ولا يعلم يومئذ به، فسبحان من يُؤتي ملكه من يشاء».

المتدبر لسيرة المنصور بن أبي عامر يلحظ أنه على الرغم من إعزازه لدولة الإسلام وغزواته التي بلغت زهاء الخمسين غزوة لم تهزم له في واحدة منها راية، ناهيك عن استطاعته إدارة أمور الدولة وجعل أهلها يعيشون في رغد من العيش مع أمنهم على أنفسهم وممتلكاتهم، إلا أن تماديه في الاستبداد بالدولة وقضاءه على كل منافسيه بضرب بعضهم بعضًا، ناهيك عن الإكثار من

البربر ورفعتهم، وإسقاط العرب ورتبتهم، قد بذر بذور الشقاق والفتنة بين أهل الأندلس هذه البذور التي نتج عنها عهد ملوك الطوائف على ما سيأتي ذكره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أضواء على ملوك الطوائف

عندما تم للجيوش الإسلامية فتح الأندلس فرت البعض من الفلول النصرانية الناجية من الجيوش الإسلامية، واتجهت صوب المناطق الشمالية الغربية من شبه الجزيرة، وذلك للاحتماء بها، ثم قامت هذه الفلول الهاربة والتي رفضت الخضوع للمسلمين بتنظيم نفسها فيما بعد حتى صارت مركز مقاومة ضد المسلمين منذ العهد الأول للفتح([37])، وقد نمت هذه الفلول مع مرور الزمن حتى أصبحت ثلاث ممالك كبرى، أخذت تتسع على حساب الدولة الإسلامية في الأندلس كلما سنحت لها الفرصة حتى تم لها الاستيلاء على الأندلس بكاملها عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م.

توفي المنصور بن أبي عامر وتولى ابنه عبد الملك المظفر أمور الدولة وإدارة شؤونها، وجرى على سنن أبيه من حيث السياسة والغزو، وعزل الخليفة هشام المؤيد، والجدير بالذكر أن مدة ولايته التي بلغت سبع سنوات كانت أيام خير ورخاء حتى إنها سميت بالسابع، تشبيهًا لها بسابع العروس، وربما سميت بذلك لأنها كانت آخر الأيام التي نعم فيها أهل الأندلس برغد العيش والنصر على الأعداء، حيث تبعها أيام اتسمت باندلاع نيران الفتن والصراعات بين الحكام المسلمين الذين درجت كتب التاريخ على تسميتهم ب ملوك الطوائف من جهة، واستغلال العدو النصراني لهذه الفتن والصراعات والتشرذم بين هؤلاء الحكام وتوجهه للاستيلاء على المعاقل والحصون الإسلامية من جهة أخرى، وقد وصف ابن عذاري هذا الحال قائلًا: «ولم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى والفتنة بين أمراء الأندلس قبحهم الله تستعر إلى أن كلّب العدو على جميعهم، ومل من أخذ الجزية ولم يقنع إلا بأخذ البلاد وانتزاعها من أيدي المسلمين».

كان من نتائج السياسة التي اتبعها المنصور بن أبي عامر فترة حكمه للأندلس أن أصبح المجتمع الأندلسي مجزءًا عنصريًا حيث أنه لم يكن يثق بأهل البلد من الأندلسيين ولا بالجنود الصقالبة الذين كانوا يتواجدون في قصر الخلافة، خاصة بعد المؤامرات والدسائس التي حيكت من قبلهم ضده حتى يحولوا بينه وبين الوصاية على هشام المؤيد، مما أدى إلى جلبه العديد من المغاربة، والمماليك، والصقالبة([38]) وإدخالهم في جيشه حتى يضمن ولاءهم، لذلك عندما ضعفت الدولة الأندلسية أخذ هذا المزيج من المجتمع الأندلسي وهم: (العرب، والأمازيغ، والأندلسيون، والصقالبة) في التطاحن فيما بينهم، مما أدى في النهاية إلى انهيار الدولة الأموية بعد حروب أهلية طاحنة.

كان من نتائج هذه الحروب الأهلية الطاحنة التي سادت الأندلس في هذه الفترة والتي أفضت في نهايتها إلى سقوط الدولة الأموية أن تجزأت الأندلس

إلى عدد من الدويلات التي يحكمها عدد من الحكام المتصارعين والمتناحرين، وهو ما عرف في التاريخ الأندلسي باسم عصر ملوك الطوائف، وكان ذلك في أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ويصف لنا العلامة الجليل لسان الدين بن الخطيب هذه الحقبة التاريخية ممثلة في عصر ملوك الطوائف قائلًا: «وذهب أهل الأندلس من الانشقاق، والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار مع امتيازها بالمحل القريب، والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث ولا في الإمارة سبب، ولا في الفروسية نسب، ولا في شروط الإمامة مكتسب، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار، وجبوا العمالات والأمصار، وجندوا الجنود، وقدموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وهم ما بين محبوب، وبربري مجلوب، ومجند غير محبوب، وغفل ليس في السراة بمحسوب، ما منهم من يرضى أن يسمى ثائرًا، ولا لحزب الحق مغايرًا، وقصارى أحدهم أن يقول: «أقيم على ما بيدي، حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه!» ولو جاءه عمر بن عبد العزيز، لم يقبل عليه، ولا لقى خيرًا لديه، ولكنهم استوفوا في ذلك آجالًا وأعمارًا، وخلفوا آثارًا، وإن كانوا لم يبالوا اغترارًا من معتمد ومعتضد ومرتضى وموفق ومستكف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل كما قال الشاعر:

مما يزهدنى في أرض أندلس

أسماء معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهر يحكى انتفاخًا صولة الأسد

ويصف آخر هذه الحقبة قائلًا: «ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق، إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه، وجعله معقلًا يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه، فصار كل منهم يشن الغارة على جاره، ويحاربه في عقر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي، ويلوح معاقلهم بالعيث ويغادي، حتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقدرة، وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة، كان ذلك في الكتاب مسطورًا، وقدرًا في سابق علم الله مقدورًا».

وقد وصفت هذه الفترة بقول الشاعر:

حتى إذا سلك الخلافة انتثر

وذهب العين جميعًا والأثر

قام بكل بقعة مليك

وصاح فوق كل غصن ديك

استمرت الحروب والصراعات والمنازعات بين هذه الدويلات قرابة نصف قرن، وكان من نتائجها أن خرجت من تحت مظلة الحكم الإسلامي قرابة نصف مساحة أرض الأندلس، وذلك بدون حروب تذكر، وإنما تنازل عنها الحكام المسلمون للنصارى في سبيل إعانتهم لهم في صراعاتهم وحروبهم ومحاولاتهم الانتقام والتشفي من إخوانهم المسلمين في الممالك الأخرى، والبعض الآخر منها تنازلوا عنه للنصارى في سبيل مهادنتهم حتى يتمكنوا من البقاء على ما تحت أيديهم من أراضٍ.

كان أيضًا مما وصف به هذا العصر أو هذه الحقبة التاريخية هذا الوصف الذي يوضح إلى أي مدى تكالب أعداء الإسلام على أهله بسبب ضعفهم وهوانهم على الناس: «عُداة الله كانوا يتولعون حينئذ بهتك حُرم أسْراهم وبناتهم بحضرتهم إبلاغًا في نكايتهم ويعبثون في الثيِّب ويفتضون البكر وزوج تلك وأبو هذه موثَّق في الحديد، ومن لم يرضَ منهم أن يفعل ذلك أعطاهن لغلمانه يعبثون فيهن، فبلغ الكفرة يومئذ منهم ما لا تلحقه الصفة والحول والقوة لله العظيم».

وقيل في موضع آخر: «فدهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة، وسفسف أخلاقهم، وأخبث أعراقهم، وسفه أحلامهم، وخبث ضمائرهم، واحتوى عليهم الجهل، فلبثوا في غير سبيل الرشد يعللون أنفسهم بالباطل، وذلك من أدل الدلائل على فرط جهلهم، واغترارهم بزمانهم، وبِعادهم عن طاعة خالقهم، وغفلتهم عن سد ثغرهم، حتى ظل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم، يتبحبح عراص دورهم، ويستقري بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم منهم طرفًا ويبيد أمة، ومن لدينا وحوالينا صموت عن ذكرهم، لُهاة عن بثهم، ما أن يُسمع بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكر لهم أو داع لهم فضلًا عن نافر إليهم أو مواس لهم، حتى كأنهم ليسوا منا أو كان فتقهم ليس بمفضٍ إلينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء فبُؤنا بالعناء، عجائب مفرجة، فاتت التقدير، وعرضت للتغيير، ولله عاقبة الأمور، وإليه المصير».

كما وصفهم المؤرخون في موضع ثالث قائلين: «ما منهم – يقصد ملوك الطوائف - من يحذر الدار الآخرة»؛ ولعل هذا الوصف هو أبلغ سبب أوصل حكام هذه الحقبة التاريخية إلى ما وصلوا إليه من الطمع في الدنيا والتكالب على المال والجاه والسلطان، ومن ثم دخولهم في وحل الذل والهوان..!!.

ونظم ابن عسال في هذا المعنى قائلًا:

لولا ذنوب المسلمين وأنهم

ركبوا الكبائر ما لهن خفاء

ما كان يُنصر للنصارى فارس

أبدًا عليهم فالذنوب الداء

كان ملوك الطوائف يسطون على بعضهم من أجل سلب أملاك بعضهم، وتوسيع ممالكهم؛ أي أنهم كانوا يسلكون مسلك التوسع على حساب بعضهم البعض وليس على حساب العدو، بل الأكثر من ذلك أنه قد يحدث أثناء حصار أحدهم للآخر من أجل انتزاع ما تحت يده من أقاليم وحصون أن يأمر الملك المُحَاصَر أحد رجاله أن يجد طريقة للخروج تحايلًا وخفية دون أن يفطن له أحد من الجيش المُحاصِر، وهذا ليس لأجل الصلح أو التفاوض أو حتى الاستسلام؛ بل لأجل أن يذهب إلى إحدى المدن الأندلسية الأخرى ويحضر له بعض الجواري ليأنس بهن، ويروّح معهن عن نفسه، مثلما حدث أثناء حصار المعتضد بن عباد للأفطس صاحب بطليوس.

كما كان أحدهم يقسم مملكته بين جملة أبنائه الذين يقومون عقب وفاة أبيهم بالتناحر، وقتل بعضهم بعضًا لأجل أخذ كلٍ منهم ما في حوزة الآخر، وذلك مثلما فعل ابن هود الذي قسم مملكته سرقسطة بين أبنائه الخمسة، فقام أحد الأخوة ويدعى أحمد بن سليمان بن هود، بالاحتيال على إخوته الثلاثة، وأخذ ما في أيديهم بعد أن سجن بعضهم وقتل البعض الآخر حرقًا، أما الأخ الخامس ويدعى يوسف فلم يستطع أحمد التغلب عليه وانتزاع ما في يده، مما أدى إلى خلع الناس الطاعة ل أحمد، وتوجههم إلى الانضمام إلى يوسف، وعندما رأى أحمد التفاف الناس حول أخيه تمادى في غيّه، وتحالف مع حكام النصارى لأجل السطو على أخيه أو غيره من حكام المسلمين.

هذه عبارة عن نبذة خاطفة تعرف بعصر ملوك الطوائف الهدف منها؛ أولا: أن يدرك القارئ الكريم عظمة الخطوة التي خطاها ابن عبّاد عندما فكر في أن يبعث للمرابطين في المغرب لإنقاذ الأندلس؛ ثانيا: قدر هذا العمل الجليل الذي قام به المرابطون ممثلًا في إنقاذ الأندلس من الضياع الذي كان سيفضي يومًا ما لسقوطها لا محالة.

نختم ما ذكر عن ملوك الطوائف بما سطرته يد أستاذنا ومعلمنا الجليل دكتور عبد الحليم عويس في كتابه الماتع «دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية»، حيث كان من جملة ما قال: «إن هذه هي النتيجة الطبيعية لكل ملوك طوائف في كل عصر، فالذين يخشون الموت سيموتون قبل غيرهم، والذين يحسبون للفقر حسابه مضحين بكرامة دينهم ووجود أمتهم سوف يصيبهم الفقر من

حيث لا يشعرون..»، ثم تابع د. عويس كلامه قائلًا: «ولقد نسى ملوك الطوائف هذه الحقائق فنغّص الله عليهم كل شيء حتى الموت، كما قال ابن صمادح حاكم المرية وهو يحتضر ويسمع أصداء الهجوم على قصره، فليبحث ملوك الطوائف في كل عصر عن الحياة، حتى لا يبحثون ذات يوم عن الموت فلا يجدونه، وحتى لينغص الله عليهم كل شيء حتى الموت فتلك سنة الله.. ولن تجد لسنة الله تبديلًا.. ولن تجد لسنة الله تحويلًا..».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المعتمد بن عباد

(صانع الفرق)

إن كانت دولة بني عباد تعرف بالمعتمد بن عباد، إلا أن لهذه العصبة ممثلة في بني عباد جذورًا موغلة في التاريخ حيث يرجع نسبهم إلى قبيلة لخم، هذه القبيلة التي جاز البعض من أفرادها البحر إلى الأندلس، وتفرقوا في أقطارها، فنزل البعض منهم بقرية تدعى «يَوْمين» وهي من قرى إشبيلية، وكثر نسلهم بها، ثم انتقل البعض منهم إلى مدينة إشبيلية نفسها، فكثروا بها، وتصدروا لخدمة حكام بني أمية، فتولوا بعض المناصب في الدولة، وظل أفراد هذا البيت في المناصب العليا للدولة حتى زمن الحكم المستنصر ثم ابنه هشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر.

وجد من بني عباد رجل يدعى إسماعيل بن عباد هذا الرجل الذي يعتبر المؤسس الأول لمجد بني عباد، ولاه المنصور بن أبي عامر على قضاء إشبيلية، وظل متوليًا لقضائها حتى زمن الفتنة، فأحسن إدارة أمورها وتصريف شؤونها إلا أنه حدث أن نزل ماء في عينه أضعف بصره، فولى القضاء ابنه ويدعى أبا القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد، واقتصر إسماعيل على مشيخة البلد، وكان مما وصف به المؤرخون إسماعيل بن عباد أنه كان: «آية من آيات الله علمًا ومعرفة وأدبًا وحكمة»، هذه الخصال والسمات التي تميز بها إسماعيل بن عباد ناهيك عن العلم الذي اكتسبه فضلًا عن الحكمة هي التي مكنته من حماية إشبيلية من سطوة البرابرة دون استخدام سيف أو إراقة قطرة دم واحدة، بل كان ذلك بالحكمة والرأي الراجح، وظل كذلك حتى توفي عام ١٠٢٣/٤١٤م، وظل مُلك بنى عباد في إشبيلية يتسع يومًا بعد يوم حتى تولاها «المعتمد بن عباد».

أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد، الشهير ب (المعتمد بن عباد)، وهو أشهر بني عباد، ولد في مدينة باجة من مدن الأندلس عام ١٠٣٩/٤٣١م؛ تولى المعتمد بن عباد أمر إشبيلية عقب وفاة أبيه المعتضد وكان عمره آنذاك سبعًا وثلاثين سنة، وهو ثالث وآخر ملوك بني عبَّاد في الأندلس، كان ملكًا على إشبيلية وقرطبة ومرسية، وقد ازدهرت في عهده إشبيلية والمدن الأخرى التي حكمها سواء من الناحية العلمية أو العمرانية، ثم جرت عليه المحنة التي أدت إلى خلعه عن ملكه عام ١٠٩١/٤٨٤م، فكانت مدة ولايته عشرين سنة، كانت له فيها من المآثر ما لا يعد ولا يحصى، لذلك قيل عنه بشأن هذه المآثر: «كانت له في أضعافها مآثر أعيا على غيره جمعها في مائة سنة أو أكثر منها».

لَقب أبو القاسم محمد بن عباد ب «المعتمد على الله، الظافر بحول الله» عقب ولايته، وكان يشبه بهارون الواثق بالله([39]) من خلفاء بني العباس في ذكاء النفس وغزارة الأدب، حيث كان المعتمد من أبرع أهل زمانه نظمًا للشعر وإتقانًا له، ونظرًا لحبه هذا الفن ممثلًا في الشعر، روى عنه أنه «كان لا يستوزر وزيرًا إلا أن يكون أديبًا شاعرًا حسن الأدوات، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله من ملوك الأندلس».

كان من أبرز الأمثلة التي توضح عناية ابن عباد بالشعر والأدب وشغفه به أنه وصل إلى سمعه بيتا شعر، وهما:

قَلَّ الوفاء فما تَلقَاه في أحد

ولا يمر لمخلوق على بال

وصار عندهم عنقاء مُغربة

أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

يقصد الشاعر من هذين البيتين أن الوفاء قَلَّ، وندر في زمانه حتى لا تجده عند أحد، بل لا يخطر لأحد على بال أو خاطر، وشبه الوفاء أنه صار عند أهل زمانه مثل عنقاء مغربة: وهي طائر قيل إنه لم يره أحد، كما يتحدثون عن الألف مثقال ولا يرونها.

عندما سمع المعتمد هذه الأبيات أعجب بها، وسأل عن صاحبها، فقيل له: عبد الجليل بن وهبون أحد خدام مولانا؛ و وهبون هذا من مدينة مرسية، وكان من جملة الشعراء الذين يطوفون بمجلس المعتمد وقد قال هذه الأبيات قبل أن يدخل في خدمته، فقال المعتمد: هذا والله اللوم البحت؛ رجل من خدامنا والمنقطعين إلينا يقول: «أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال» وهل يتحدث أحد عنا بأسوأ من هذه الأحدوثة؟!!.

عناية المعتمد بالشعر وإتقانه له فضلًا عن شغفه به جعلته يدرك أن الشعر على قمة الفنون التي تخلد مآثر قوم أو تبرز مساوءهم، وتجعل هذه المآثر أو المساوئ مخلدة ومتداولة عبر الأجيال على مر الأزمان، كما كان المعتمد يبرز فيه طابع العناية بتخليد مآثره ومآثر قومه، هذان الأمران جعلاه يهرول ويأمر ل عبد الجليل بن وهبون بألف مثقال، فدخل عليه ابن وهبون حتى يشكره، فقال له المعتمد، هل عاد الخبر عيانًا؟!! – حيث وصف ابن وهبون الألف مثقال أنها لا تُرى مثل طائر العنقاء مغربة الذي لم يره أحد – فرد عليه ابن وهبون: إي والله يا مولاي. – يقصد صار عيانًا يُرى ويلمس – ودعا له بطول البقاء، وعندما استعد ابن وهبون للانصراف من مجلس المعتمد قال له: يا عبد الجليل، الآن حدث بها لا عنها – يقصد الألف مثقال -.

لم يكن المعتمد يتلذذ فقط بسماع الشعر؛ بل كان هو نفسه معدودًا من كبار شعراء زمانه، وكان من نظمه:

عَلل فؤادك قد أَبَل عليل

واغنَم حياتك فالبقاءُ قليل

لو أن عمرك ألف عام كَامل

ما كان حقًا أن يُقال طويل

أكذا يقودُ بك الأسَى نحو الرَّدَى

والعُودُ عُود والشَّمول شَمول

لا يستَبيك الهمُّ نفسك عنوة

والكأس سيف في يديك صقيل

بالعقل تزدحم الهموم على الحشا

فالعقل عندي أن تزول العقول!

انتظم للمعتمد بن عباد من المُلك ما لم ينتظم لأحد من معاصريه من ملوك الطوائف، حيث دخلت في طاعته الكثير من المدن الأندلسية، وامتدت مملكته إلى أن بلغت مرسية، وكانت تسمى «تُدمير»، بينها وبين إشبيلية مسافة ليست بالقصيرة، وفي خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة، لذلك قال عنه المؤرخون: «ولم يزل المعتمد هذا في جميع مدة ولايته والأيام تساعده، والدهر على ما يريده يأزره ويعاضده إلى أن انتظم له في ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم لملك قبله - وبالطبع يقصد الكاتب الملوك المتغلبين في عصره ممن سبقوه أو عاصروه -».

تغلب المعتمد على قرطبة، وأخرج منها حاكمها ويدعى ابن عكاشة، وكان ذلك عام ٤٧١هـ/١٠٧٨م، ثم رجع إلى إشبيلية بعد أن استخلف على قرطبة ابنه «عباد» بعد أن أطلق عليه لقب «المأمون»، وكان «عباد» هذا أكبر أبناء المعتمد، ولد له في حياة أبيه المعتضد، وكان المعتضد يضمه إليه ويقول: يا عباد، يا ليت شعري من المقتول بقرطبة، أنا أو أنت؟!!، فكان المقتول بها «عباد» هذا في حياة أبيه المعتمد في العام الذي زال فيه ملك بني عباد.

الجدير بالذكر أن زمن ولاية المعتضد بالله العبادي والد المعتمد نزلت قبيلتا لمتونة ومسوفة - قبيلتان عظيمتان من البربر- في مراكش واختاروا هذا الموطن دار ملكهم لموقعه المتميز من حيث توسط بلاد المغرب، وكانت مراكش آنذاك عبارة عن أرض فسيحة مليئة بالشجر الكثيف ولا عمران فيها،

وسميت بهذا الاسم نسبة إلى عبد أسود كان يستوطنها، يدعى «مراكش» وكان يقطع الطريق على الناس ويخيفهم، فاستوطنها البربر، وولوا على أنفسهم رجلًا منهم اسمه «تاشفين بن يوسف».

وكان المعتضد بن عباد دائم استطلاع أخبار العدوة المغربية، متسائلًا: هل نزل البربر أرض مراكش أم لا؟!!، وذلك لما وقع على علمه أن أحد الأشخاص تنبأ أن هؤلاء القوم سوف يقومون بخلعه أو خلع عقبه وإخراجهم من ملكهم!!، فلما علم بنزول البربر هذه المنطقة، جمع أبناءه، وجعل ينظر إليهم وكأنه ذاهل عن نفسه ومن حوله قائلًا لهم: «يا ليت شعري من تناله معرة([40]) هؤلاء القوم، أنا أو أنتم؟!!»؛ فقال له ابنه أبو القاسم – المعتمد -: «جعلني الله فداك وأنزل بي كل مكروه يريد أن ينزله بك!!»، وعلق المراكشي على هذه الدعوة قائلًا: «فكانت دعوة وافقت المقدار».

خذها قاعدة:

لا تدعُ يومًا على نفسك فيستجيب الله جل وعلا دعاءك له، فتندم حيث لا ينفع الندم، واجعل ديدنك سؤال المولى جل وعلا العفو والعافية في الدنيا والآخرة..

كان المعتمد يتمتع بالكثير من الفضائل والسجايا التي ميزته عن غيره من ملوك زمانه وكان على رأس هذه الفضائل والسجايا الحياء والنزاهة ناهيك عن السخاء والجود، وهذا ما دعا المراكشي إلى وصفه قائلا: «وفي الجملة فلا أعلم خصلة تُحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم، وضرب له فيها بأوفى سهم، وإذا عُدّت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت، فالمعتمد هذا أحدها، بل أكبرها».

كذلك كان المعتمد بن عباد ذا مروءة ورجولة متعاليًا عن الكثير من الصغائر التي لا تليق بأخلاق الرجال فضلًا عن الملوك، ومن أبرز المواقف التي توضح ذلك مواقفه مع حاكم المرية أبو يحيي محمد بن معن بن صمادح (المعروف بالمعتصم بن صمادح) حيث كانت بينه وبين ابن عباد ضغائن وأحقاد لا تخمد نيرانها، فروى أنه لم يكن بين أحد من ملوك الطوائف مثل ما كان بين ابن صمادح وابن عباد من ضغائن وأحقاد، هذه الضغائن والأحقاد أدت بابن صمادح إلى أن يرسل الرسائل لابن عباد الواحدة تلو الأخرى هذه الرسائل التي حوت بين طياتها من قبح الكلمات ما حوته، ناهيك عن تشهير ابن صمادح بابن عباد والطعن فيه في المجالس التي يحيطه فيها رجال دولته وغيرهم من سفراء ورسل الممالك الأندلسية، وكان مع كل هذا الضغط والاستفزاز من قِبَل ابن صمادح إلا أن ابن عباد لم يكن يجاريه في أحقاده أو يرد عليه بقبح كلامه

وأفعاله، فكان المعتمد مؤمنًا بأن المروءة والرجولة لا يليق بها الخوض في الوحل، فكيف يليق ذلك برجل توج ملكًا على أهله؟.!!.

لا يفوتنا هنا أن نذكر موقف بعينه من المواقف التي جرت بين ابن صماح وابن عباد، والهدف من ذكر هذا الموقف هو تسليط الضوء على شخصية كلٍ منهما، وإن كان الذي يهمنا هو شخص ابن عباد بحكم أن محور الحديث متعلقٌ به؛ حدث أن خرج ابن عباد إلى شرقي الأندلس يتفقد حدود مملكته، وينظر في أحوال عماله ورعيته، وعندما وصل إلى الحدود الفاصلة بين مملكته ومملكة ابن صمادح، خرج له ابن صمادح متقدمًا وجهاء وكبار رجال دولته، ولقيه بالبشاشة والترحاب، ودعاه للدخول إلى بلاده إلا أن ابن عباد رفض، فألح عليه ابن صمادح كل إلحاح إلا أن ابن عباد أبى كل الإباء، وبعد محاولات ومداولات بينهما اتفقا على أن يجتمعا في أول حدود بلاد ابن صمادح وآخر حدود بلاد ابن عباد، وتم ذلك واصطلحا في الظاهر، واحتفل ابن صمادح بابن عباد وبالغ في إكرامه، وقدم له من الطقوس السلطانية وذخائر الملوك التي يتم إظهارها في مجالس الأنس الخاصة بالملوك ما أراد أن يستفز به ابن عباد ويملأه بالغم والكمد، إلا أن ابن عباد ترفع بنفسه عن ذلك، ولم يلتفت لسلوك ابن صمادح ولم يعره أي اهتمام، وتفرقا وذلك بعد أن ظل ابن عباد في ضيافته ثلاثة أسابيع كاملة حاول ابن صمادح خلالها استفزازه وإثارة غضبه بكل الوسائل والسبل، ولكن لم يتم له ما أراد بسبب ما انطوت عليه أخلاق ابن عباد من حلم وأناة ومروءة فضلًا عن التغاضي والتعالي عن سفاسف الأمور وصغائرها؛ تَرفع ابن عباد عن مثل هذه السفاسف التي لا يخوض فيها إلا الصغار، أما ابن عباد فكان يرى نفسه كبيرًا ولم يكن مهمًّا بالنسبة له أن يكون كذلك في عين ابن صمادح إنما كفاه أن يكون كذلك في عين نفسه.

خذها قاعدة:

ليس المهم أن تكون كبيرًا في عين الجموع الغفيرة، وإنما الأهم أن تكون كبيرًا في عين نفسك، ولن يتأتى لك ذلك إلا بالخصال الحميدة والأخلاق الكريمة..

الجدير بالذكر أنه عند عبور ابن تاشفين إلى الأندلس تلقاه ابن صماح بالترحاب، وأكرمه بالهدايا الفاخرة والتحف النادرة، وتلطف في خدمته حتى قربه ابن تاشفين إليه وقدمه على غيره من ملوك الطوائف، ولم يكن السبب في تقريب ابن تاشفين له المبالغة في إكرامه وتقديم الهدايا والتحف له بقدر ما كان السبب هو شهادة ابن عباد فيه، بحيث وصفه بكل ما تطويه شخصيته من خير وفضل، ولم يكن وصفه له نفاقًا لأن ابن صمادح كان كما وصف ابن عباد، حتى إن ابن تاشفين كان يحدث أصحابه قائلًا: «هذان رجلا الجزيرة» ويقصد ابن صمادح وابن عباد.

نلحظ أن ابن عباد على الرغم من سوء سلوك ابن صمادح وسوء أفعاله معه، لم ينكر أن ابن صمادح يملك الكثير من السمات والصفات التي تميزه عن غيره من ملوك الطوائف وبالتالي أشاد به وبشخصيته وملكاته لدى ابن تاشفين؛ هذا ابن عباد..!!.

أما ابن صمادح فقد كان على العكس من ذلك فبما انطوت عليه روحه من حقد وبغض لابن عباد سعى في تغيير قلب ابن تاشفين عليه وإفساد العلاقة بينهما، فكان يبث في أذن ابن تاشفين إلى أي مدى معجب ابن عباد بنفسه، وأنه مفرط الكبر، ولا يرى أحدًا ممن حوله في مكانته وقدره، بل أضاف أن ابن عباد قال في حق ابن تاشفين ورجاله التالي: «طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة – يقصد ابن تاشفين - لو عوجت له إصبعي ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه، وكأنك تخاف غائلته، وأي شيء هذا المسكين وأصحابه؟!! إنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش، وغلاء سعر، جئنا بهم إلى هذه البلاد نُطعمهم حِسبة وائتجارًا، فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم»، وغيرها من الأقوال التي بثها ابن صمادح في أذن ابن تاشفين والتي تحمل من التقليل والتحقير من شأنه وشأن رجاله ما تحمله في حين أن ابن عباد لم يتطرق إلى هذه الأقوال بحال، وإنما من قالها هو ابن صمادح نفسه وأسرّ بها لابن عباد، ثم أعادها على ابن تاشفين مدعيًا أن ابن عباد هو قائلها لإفساد ما بينه وبين ابن عباد من علاقة كما أوضحنا، وحدث ذلك بالفعل حيث قام ابن تاشفين فيما بعد ببعض الأفعال التي أشعرت ابن عباد بتغييره عليه.

كذلك لم يكن ابن عباد يملك من التجبر والتسلط والنزوح إلى سفك الدماء والتضييق على رعيته بالقدر الذي كان يجنح إليه ملوك زمانه، لذلك كان توجهه إلى إنزال العقاب بمن يخطئ من رعيته لم يكن يمنعه أن يفكر في طريقة قد تصل بهذا الشخص الذي استحق العقاب إلى الاعتراف بخطئه والتوبة عنه، ومن ثَم تعهده بعدم الرجوع إليه مرة أخرى حتى يعفو عنه ابن عباد، ولعل هذا يبرز بشكل أكبر ما انطوت عليه شخصية المعتمد بن عباد من خير وصلاح وحكمة وصفاء روح.

أما بالنسبة للنهضة والازدهار العلمي بالأندلس فلم يكن قاصرًا على مدينة قرطبة باعتبارها كانت عاصمة الخلافة، بل شملت هذه النهضة والازدهار العلمي غيرها من المدن الأندلسية الكبرى، مثل طليطلة وبلنسية وإشبيلية وغيرها، وظلت قرطبة كذلك حتى دخلها البربر وعاثوا فيها بالفساد والتخريب، مما أدى إلى ضعفها وتدهورها فهجرها العلماء والأدباء والفقهاء إلى غيرها من المدن الأندلسية، وذلك لاختلال الأمن والاستقرار بها، وبذلك فقدت قرطبة أهميتها الثقافية والحضارية بعد أن ألغيت وظيفتها كعاصمة سياسية وإدارية وثقافية للأندلس، ومن ثم فإن التركة الثقافية في قرطبة قد

تقاسمتها المدن الأندلسية، وتنافست فيما بينها أن تتبوأ كلّ منها مركز الصدارة والزعامة الثقافية.

كان من بين المدن التي تنافست لتحتل مركز الصدارة والزعامة الثقافية بعد سقوط العاصمة قرطبة، مدينة إشبيلية التي أصبحت ميدانًا ثقافيًا وعلميًا وأدبيًا، وذاع صيتها زمن المعتمد بن عباد، ومدينة بلنسية التي شهدت ازدهارًا للآداب والعلوم والفنون؛ وذلك لكثرة من هاجر إليها من الفقهاء والعلماء القرطبيين عقب أحداث الفتنة التي حدثت في قرطبة، كذلك ساهمت سرقسطة في هذا الازدهار العلمي الأندلسي، لا سيما في عهد حكامها من بني هود، ومدينة غرناطة التي اختصرت الأندلس فيها قبل سقوطها النهائي، هذه بعض المراكز التي ورثت التركة الثقافية لقرطبة، وهى عبارة عن مثال لتعدد مراكز الثقافة في الأندلس.

كانت أولى المدن الأندلسية الكبرى التي استولى عليها النصارى من يد المسلمين هي مدينة طليطلة، حيث تم انتزاعها من يد حاكمها ابن ذي النون عام ٤٧٨هـ/١٠٩٥م([41])، وقد تبعها جميع المناطق المحيطة بها، والتابعة لها، وتتضمن ثمانين موضعًا، عدا القرى والضياع، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال: يا أهل أندلس حثوا مطيكم

فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى

ثوب الجزيرة منسولًا من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا

كيف نعيش مع الحيّات في سفط

باستيلاء الفونسو السادس (٤٣١-٥٠٢هـ/١٠٤٠-١١٠٩م) ملك قشتالة على أكبر ممالك الطوائف وهى مملكة طليطلة أصبحت الأندلس الإسلامية لا تشمل سوى ثلث شبه الجزيرة الأيبيرية، وعقب استيلائه عليها نشب خلاف بينه وبين المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، وذلك بسبب طلب ملك قشتالة من المعتمد بن عباد أن يسلم له الضريبة المستحقة عليه، مضيفًا لها بعض الحصون المنيعة لديه، وذلك جراء تأخره عن الموعد المحدد لأداء الضريبة المستحقة عليه لملك قشتالة؛ بل إن الأمر لم يقف عند هذا الحد، حيث أرسل ملك قشتالة للمعتمد بن عباد وزيره اليهودي طالبًا منه تلبية رغبة زوجته في أن تلد مولودها في المسجد الجامع بقرطبة، وهنا استشاط ابن عباد غضبًا وقتل الوزير اليهودى وصلبه منكوسًا في قرطبة.

ونتيجة لما سبق قام ملك قشتالة بتجهيز جيش عرمرم اتجه به إلى إشبيلية للاستيلاء عليها من ابن عباد، وعندما استقر جيشه بالقرب من قصر ابن عباد أرسل له قائلًا: «كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب، واشتد علىَّ الحر، فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسى، وأطرد بها الذباب عن وجهى»، وهنا كان رد ابن عباد الذي خلده له التاريخ، والذي لم يخطر لألفونسو على بال حيث كتب له على ظهر رسالته: «قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية([42]) تروح منك لا تروح عليك إن شاء الله تعالى».

اعترض ملوك الطوائف على ابن عباد عندما علموا برغبته في طلب النجدة من المرابطين([43]) وذلك خوفًا على ملكهم، إلا أنه تم في النهاية عبور المعتمد البحر قاصدًا مدينة مراكش حيث «يُوسُف بن تَاشُفين»، وطلب منه إنقاذ بلاد الأندلس من يد العدو النصراني التي تغلب عليها وفعل في أهلها الأفاعيل، فسارع ابن تاشفين للاستجابة ل طلبه، وقال له: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي!»، فرجع المعتمد إلى الأندلس مسرورًا لاستجابة أمير المسلمين لطلبه، ولم يدرِ كما قال المراكشي أنَّ: «تدميره في تدبيره، وسلَّ سيفًا يحسبه له ولَم يدرِ أنه عليه»، وشبه المراكشي حاله تلك بقول أحد الشعراء ويدعى أبو فراس: إذا كان غير الله للمرء عُدّة

أتته الرزايا من وجوه الفوائد

كما جرت الحنفاءُ ([44]) حَنْفَ حُذيفة

وكان يراها عُدة للشدائد

لبى المرابطون الدعوة وتوجهوا نحو الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين، والتقت الجيوش المرابطية ومعها قوات المسلمين بالأندلس بقوات النصارى في وادي يدعى الزلاقة، وكان ذلك عام ١٠٨٦/٤٧٩م وانتهت المعركة التي عرفت في التاريخ باسم معركة الزلاقة بنصر المسلمين على عدوهم، ثم توالت انتصارات المرابطين في معركتي أقليش ١١٠٧/٥٠١م، وإفراغة عام ١١٣٣/٥٢٨م.

عقب انتصار المسلمون في الزلاقة عاد ابن تاشفين إلى مراكش إلا أن الأندلس كانت قد تمكنت من قلبه، ومما يدل على ذلك ما روى عنه أنه قال لبعض من ثقاته ووجهاء أصحابه: «كنت أظن أني قد ملكت شيئًا، فلما رأيت تلك البلاد، صَغُرت في عيني مملكتي، فكيف الحيلة في تحصيلها؟!!»، وهنا اقترح عليه رجاله أن يتم التواصل مع ابن عباد ويستأذنونه في أن يظل في الأندلس بعض من رجاله للمرابطة ببعض الحصون القريبة من أرضِ العدو

النصراني لمواجهته ومقاومته إذا ما اعتدى على أراضي المسلمين، فأذن لهم ابن عباد بعد أن وافقه في ذلك ابن الأفطس صاحب بطليوس، وكان هدف ابن تاشفين من ذلك أن يكون لهم موطن هناك فإذا ما أظهروا دعوتهم وجدوا لهم في كل بلد معين.

جهز يوسف بن تاشفين بعضًا من خيار أصحابه، ووضع على قيادتهم أحد قرابته ويدعى «بُلجين»، وجازوا إلى الأندلس وقدموا على المعتمد حتى يحدد لهم المكان الذي سيقومون بالمرابطة فيه، فأرسل معهم المعتمد من يدلهم على الحصون التي حدد مرابطتهم فيها، وظل هؤلاء الرجال في هذه الحصون حتى قامت الفتنة على المعتمد والتي بدأت عام ٤٨٣ه/١٠٩٠م، وذلك بسيطرة المرابطين على جزيرة طريف هذه الجزيرة المقابلة لمدينة طنجة من المغرب، ومناداتهم بالدعوة لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وذلك دون مقدمات أو أسباب تذكر، وعندما انتشر خبر سيطرة المرابطين على جزيرة طريف في الأندلس زحف المرابطون المتواجدون في الحصون التي حددها لهم المعتمد على قرطبة، وكان حاكمها آنذاك عباد بن المعتمد الملقب ب «المأمون»، وقتل المأمون في هذه الحادثة بعد أن بذل قصارى جهده في الدفاع عن نفسه، وكان ذلك عام ٤٨٤ه/١٠٩١م.

عقب هذه الحادثة قامت جماعة بإشبيلية بالثورة ضد المعتمد، ووصل الخبر للمعتمد، وأغراه رجاله أن يقوم بسفك دماء القائمين بالثورة وهتك حرمهم إلا أنه أبى كل الإباء، وذلك لما انطوت عليه نفسه من المروءة والنزاهة، وقد وصف المؤرخون هذا الموقف من ابن عباد قائلين: «أبى له ذلك - يقصد سفك دماء الثوار وهتك حرمهم - مجده الأثيل، ورأيه الأصيل، ومذهبه الجميل، وما حباه الله به من حسن اليقين، وصحة العقل والدين».

نُهبت في هذه الفتنة قصور المعتمد وسلبت منه كل ممتلكاته، وقبض عليه، وأجبر أبناؤه على تسليم ما في أيديهم من حصون، فالمعتد بالله خرج من حصنه وأخذ منه كل ما يملك، أما الراضي بالله فعند خروجه من حصنه قتل غدرًا وأخفي جسده، ثم رحل المعتمد إلى المغرب فقيرًا معدمًا بعد أن كان ملكًا حِيزت له الدنيا بملذاتها.

كان من المواقف التي حدثت مع المعتمد فور نزوله أرض المغرب، ووصوله مدينة طنجة التي ظل فيها أيامًا، حدث أن لقيه الشاعر الحصري، وهو من شعراء مدينة القيروان الذين سبق لهم عبور البحر والتوجه إلى الأندلس، ومدح ملوكها طلبًا للمكافأة ومنهم المعتمد، وكان الحصري من الشعراء الملحين في طلب المكافأة من الملوك الذين يمتدحهم، لذلك بمجرد أن لقى المعتمد في طنجة هرول إليه ومدحه بالأشعار القديمة التي سبق ومدحه بها في الأندلس وأضاف إليها بعضًا من الأشعار الحديثة، إلا أن المعتمد عند

وصوله طنجة لم يكن الملك المعروف حيث توجه إليها بعد أن سلبت منه كل ممتلكاته، لذلك بعث للحصري بالقليل من المال وكتب له بعضًا من أبيات الشعر يعتذر له فيها عن قلة هذا المال الذي بعث به إليه، وعندما علم الشعراء في المغرب ممن هم على شاكلة الحصري في التكسب من الشعر والإلحاح في طلب المكافأة ممن يمدحونهم تعرضوا للمعتمد في كل طريق يمر فيها طلبًا لمرادهم، وهنا أنشد المعتمد قائلًا: شعراء طنجة كلهم والمغرب

ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب

سألوا العسير من الأسير وإنه

بسُؤالهم لأحق فاعجب واعجب

لولا الحياة وعزة لخمية

طي الحشا ساواهم في المطلب

قد كان إن سُئل الندى يُجزل وإن

نادى الصريخ ببابه اركب يركب

أقام المعتمد بطنجة أيامًا على هذا الحال آنف الذكر، ثم انتقل إلى مدينة مكناسة، فأقام بها أشهرًا إلى أن تقرر إرساله ومن معه للإقامة في أغمات، فأقام بها حتى مات عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، وقيل: ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، وكان يبلغ من العمر آنذاك إحدى وخمسين سنة، وقد رثاه الشاعر ابن اللبانة قائلا: لكل شيء من الأشياء ميقات

وللمُنى من مناياهن غايات

والدهر في صبغة الحرباء مُنغمس

ألوان حالاته فيها استحالات

ونحن من لُعَب الشطرنج في يده

وربما قُمرت[45] بالبيدق الشاة[46] فانفض يديك من الدنيا وساكنها

فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

وقُل لعالمها الأرضي قد كتمت

سريرة العالم العلوي أغمات

طوت مظلتها، لا بل مذلتها

من لم تزل فوقه للعز رايات

من كان بين الندى والبأس، أنصله

هندية وعطاياه هُنيدات

الجدير بالذكر أنه قبل هذه الحادثة أو الفتنة التي تعرض لها المعتمد وسلب منه ملكه ونفي على إثر ذلك إلى أغمات بأشهر قليلة، روى أن رجلًا رأى في منامه وهو بمدينة قرطبة أنّ رجلًا صعد المنبر وأنشد في الناس المجتمعين قبالته قائلًا: رُب رَكب قد أناخوا عيسهم

في ذرى مجدهم حين بَسق

سكت الدهر زمانًا عنهم

ثم أبكاهم دمًا حين نطق

وبعد هذه الرؤيا بأشهر قليلة حدث ما حدث ل ابن عباد من القيام ضده والثورة عليه.

وصل حال المعتمد في أغمات من الفقر والحاجة أن لجأت إحدى بناته إلى امتهان الغزل حتى تسد بأجرته حاجتها وحاجة ذويها، وكان من غرائب الأقدار أن أرسلت لها سيدة لتقوم لها بالغزل، كانت هذه السيدة بنت عريف شرطة كان يعمل لدى أبيها أيام ملكه، كانت وظيفة هذا الشرطي أن يمنع الناس من الوصول إلى المعتمد أثناء سيره في موكبه الملكي، ولم يكن هذا الشرطي يتمكن من رؤية المعتمد إلا في هذا الوقت وهو وقت خروج المعتمد للتجوال في أنحاء مملكته، ولكن سبحان من ينزع الملك ممن يشاء، ويؤتي الملك من يشاء..!!.

كما كان للمعتمد بن عباد ولد يلقب ب «فخر الدولة» رشحه لولاية العهد من بعده، إلا أن ما تعرض له المعتمد وذويه من محنة ألجأت فخر الدولة إلى التوجه إلى السوق حتى يتعلم صنعة يستعين بها على معاشه، فتعلم من الصنائع صنعة الصواغ، وعندما رأى الشاعر ابن اللبانة حال فخر الدولة وهو ينفخ الفحم في دكان الصائغ باذلًا جهده لتعلم مهنة الصياغة نظم قصيدة قال في مطلعها: أذكى القلوب أسى، ابكى العيون دما

خطب وجدناك فيه يُشبه العدما

أفراد عِقد المنى مِنا قد انتشرت

وعَقد عُروتنا الوثقى قد انفصما

شكاتنا فيك يا فخر الهدى عظمت

والرزء يعظم فيمن قدره عظما

طوقت من نائبات الدهر مخنقة

ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما

وعاد كونك في دكان قارعة

من بعد ما كنت في قصر حكى إرما

كان فخر الدولة هذا شابًا عاقلًا متزنًا، لا يلتفت إلا لكل فعل كبير وخلق كريم، كما كان خجولًا حييًّا يستحي وتحمر وجنتاه من أبسط لفظة، وتجرحه أقل كلمة، ناهيك أنه كان من الشباب الشغوفين باقتناء الكتب، المهتمين بطلب العلم حتى إن المراكشي وصفه قائلًا: «وهذا من بنيه -يقصد أبناء المعتمد - أحسن الناس سمتًا، وأكثرهم صمتًا، تخجله اللفظة، وتجرحه اللحظة، حريص على طلب الأدب، مسارع في اقتناء الكتب، مثابر على نسخ الدواوين، مفتح فيها من خطه زهر الرياحين».

ما أحوجنا نحن شباب وفتيات هذا العصر لمثل هذا الحياء والخجل الذي ندر وكأنه أضحى أثرًا بعد عين..!!

وقد وصف المراكشي هذه الحالة التي وصل إليها ابن عباد قائلًا: «إنّ ما آلت إليه حال المعتمد هذا من الخمول بعد النباهة، والضعة بعد الرفعة، والقبض بعد البسط من جملة العبر التي أرتناها الأيام، والمواعظ التي تُصعّر الدنيا في عيون أولي الأفهام»، كما نظم المعتمد بن عباد في محنته تلك قائلًا: مولاي أشكو إليك داء

أصبح قلبي به قريحا

سخطك قد زادني سقامًا

فابعث إليَّ الرضى مسيحا

أيضًا من المعاني التي ينبغي الإشارة إليها في إطار حديثنا عن هذه الشخصية التاريخية الفذة ممثلة في المعتمد بن عباد، أنه كما وجد من أصحاب النفوذ من يديرون ظهورهم لمن أفل نجم بزوغهم، كذلك وجد منهم من يظل محافظًا على العهد وفيًّا للوعد، ومن الأمثلة على ذلك أنه حدث أن مرضت زوجة المعتمد، وصادف ذلك قدوم الطبيب الوزير أبو العلاء بن زهر بن عبد الملك بن زهر إلى مراكش لعلاج أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فأرسل له المعتمد يطلب منه الحضور لمعرفة علة زوجته وعلاجها، فأرسل له أبو العلاء رسالة يوضح له استجابته لطلبه، وكتب ضمن هذه الرسالة أن دعا

للمعتمد بطول البقاء، وعندما وقعت عين المعتمد على دعاء أبي العلاء له بطول البقاء نظم قائلًا: دعا لي بالبقاء وكيف يهوى

أسير أن يطول به البقاء

أليس الموت أروح من حياة

يطول على الشقي بها بالشقاء

فمن يك من هواه لقاء حب

فإنّ هواي من حتفي اللقاء

أأرغب أن أعيش أرى بناتي

عواري قد أضر بها الحفاء

خوادم بنت من قد كان أغلى

مراتبه إذا أبدو النداء

وطرد الناس بين يدي ممري

وكفهموا إذا غصّ الفناء

وركض عن يمين أو شمال

لنظم الجيش إن رفع اللواء

جزيت أبا العلاء جزاء بَر

نوى بِرا وصاحبك العلاء

سَيُسلي النفس عما فات علمي

بأنّ الكل يدركه الفناء

كذلك من الشخصيات التي ظلت على وفائها للمعتمد بعد أفول نجمه الشاعر أبو بكر بن اللبانة الذي قدم إلى أغمات وزار ابن عباد، ففرح ابن عباد بقدومه عليه لذلك عندما عزم ابن اللبانة على السفر، حاول المعتمد جاهدًا أن يجمع ما يستطيع إليه سبيلًا ويعطيه لابن اللبانة الذي كان يمدحه أيام ملكه ويأخذ منه ما يتفضل به ابن عباد، فأعطى له عشرين درهمًا وثوبين، وكتب له قصيدة قال في مطلعها: إليك النزر من كف الأسير

فإن تقبل تكن عين الشكور

تَقبَّل ما يذوب له حياء

وإن عذرته حالات الفقير

ولا تعجب لخطب غضّ منه

أليس الخسف مُلتزم البدور؟

إلّا أن ابن اللبانة رفض هذه الأعطية من المعتمد، واعتذر منه ببعض من أبيات الشعر أيضًا، وظلا يتبادلان الشعر فيما بينهما مما لا يتسع المجال لذكره.

في مثل هذه المواقف يُعرف مَن طبعه الكرم ممن يتمثل هذا الكرم..!!، فليس الكريم من يعطي هذا وذاك وقت عنفوانه ليقال عنه كريم، وإنما مقياس الكرم من عدمه يقاس عندما تعطي وأنت في أشد الحاجة لما تعطيه، وفي إطار الحديث عن الكرم والذي يبرز لنا أنه ليس كرم في المال فحسب، وإنما هذا الكرم الذي ظهر في صورة بذل المال كان يقف على أرضية صلبة ممثلة في كرم الأخلاق، فإن لم يملك المعتمد ما يكفي من الأخلاق ما اجتهد لجمع ما استطاع جمعه لابن اللبانة.

قد يكون الكرم طبيعة في بعض الأشخاص، ولا يمت بصلة لآخرين، فبعض الأشخاص تلحظ وكأنّ البخل يجرى فيهم مجرى الدم في العروق أو كأنه النفس الذي يخرج من رئاتهم، فإذا ما فكروا في أن يقتطعوا ولو النذر اليسير مما يمتلكون ليعطوه لغيرهم من ذوي الحاجة أو حتى على قبيل الهدية ينقطع هذا النفس، وتخرج أرواحهم إلى باريها، لذلك يمتنعون أن يعطوا لغيرهم ولو كوبًا من الماء، وفي المقابل يوجد من الأشخاص من لا يكادون يملكون بأيديهم شيئا إلا ويعطون منه هذا وذاك دون أن يتطرق إلى تفكيرهم فكرة إمكانية نفاده، إلا أن هذا لا يمنع أن هذه الصفة ممثلة في الكرم من الممكن أن تصبح خصلة لدى من يحاول اكتسابها والاستعاضة بها عن البخل ومنع العطاء، فكما أن العلم بالتعلم والحلم بالتعلم، كذلك فإن الكرم بالتكرم، جرب وسترى النتائج بنفسك..!!.

تذكر:

البخيل بالمال أو في الأمور المادية عامة، لن يكون هذا فحسب حيز بخله لأنه سيكون بخيلًا في مشاعره وعواطفه، سيكون البخل هو المركز الذي يدور فيه فلكه، ولن يستطيع الانفكاك عنه بحال، فيما عدا لو أراد..!!

مات المعتمد ابن عباد ودُفن في أغمات - جنوب شرق مراكش - بجوار زوجته اعتماد الرميكية، هذه الزوجة التي كانت من أحب النساء للمعتمد وأقربهم إلى قلبه حتى إنه لم يكن يقوى أن يرفض لها أيّ مطلب، وكان من أشهر المطالب التي طلبتها اعتماد من زوجها المعتمد أنها اشتهت أن تلعب في الطين، كما يفعل نساء البادية اللاتي رأتهن من شرفة قصرها، وهنا قام

المعتمد نزولًا على رغبتها وأمر بإحضار العنبر والمسك والورد ومزج كل هذه المكونات بالماء، واستعاض بها عن الطين حتى يحقق رغبة زوجته، وسمي هذا اليوم بيوم الطين، ولا يخفى عليك أخي القارئ وأختي القارئة أنّ هذا الموقف يرسم لنا صورة عن البذخ والإسراف وإنفَاق الأموال في غير مواضعها، وهذا لم يكن فعل ابن عباد فحسب، بل هذا البذخ والإسراف وإهدار الأموال وإنفَاقها في غير موضعها كان السمة السائدة لدى ملوك عصر الطوائف.

الجدير بالذكر أنه بعد هذا اليوم الذي عرف بيوم الطين حدث خصام بين المعتمد وزوجته اعتماد، فقالت له عقب هذا الشجار: والله ما رأيت منك خيرًا..!!، فقال لها: ولا يوم الطين؟!! تذكيرًا لها بهذا اليوم الذي أنفق فيه من الأموال ما لا يعلمه إلا الله، وذلك ليس إلا لأجل شهوة أو نزوة، وهنا استحت زوجته وسكتت.

هذا الموقف على بساطته يذكرنا بالعلاقات بين الأصدقاء، هذه العلاقات التي تستمر أيامًا وشهورًا وسنوات حتى يصبح كلٌّ منهم وكأنه فرد من بيت الآخر، وإذا ما حدث بينهم موقف صغر أو عظم إذا بكلٍّ منهم يكيل الشتم والاستهزاء والاستخفاف بالآخر، ناهيك عن إفشاء الأسرار وغيرها مما لا يليق، متناسين أنّ العلاقات أخلاق، والأخلاق لا تعلو بالاجتماع وتسقط بالفرقة، لأنّ صاحب الأخلاق يظل على أخلاقه في كل الظروف والأحوال.

كان المعتمد بن عباد قبل وفاته قد رثى نفسه بقصيدة أمر أن تُكتب على قبره، حيث قال:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي

حقًّا ظفرت بأشلاء ابن عبادِ

بالحلم، بالعلم، بالنُّعمى إذا اتصلت

بالخصب إن أجدبوا، بالري للصادي

بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا

بالموت أحمر، بالضرغامة العادي

بالدهر في نقم، بالبحر في نعم

بالبدر في ظلم، بالصدر في النادي

نعم، هو الحق وحاباني به قدر

من السماء، فوافاني لميعادِ

كفاك فارفق بما استودعت من كرم

رواك كل قطوب البرق رعّاد

ولا تزل صلوات الله دائمة

على دفينك لا تُحصى بتعدادِ

أضحى قبر المعتمد بن عباد وزوجته اعتماد وكأنه محجًّا للخاصة والعامة سواء، ومما يدلل على ذلك موقف نقله لنا كلّ من الفتح بن خاقان وابن الخطيب عن الصيرفي حيث قال الأخير: «لما انفصل الناس من مصلى العيد الذي توفي المعتمد في شهره، حفت بقبره ملأٌ من الناس، يتوجعون له، ويترحمون عليه، وأقبل شاعره ابن عبد الصمد في جُملتهم، وقد اتفق حضوره يومئذ لبعض شأنه، فوقف على قبره، وأنشد قائلًا: ملك الملوك أسامعٌ فأنادي

أم قد عدتك عن السماع عوادِ

لما خلت منك القصور ولم تكن

فيها كما قد كنت في الأعيادِ

أقبلت في هذا الثرى لك خاضعًا

وتخذت قبرك موضع الإنشاد

وعقب انتهاء ابن عبد الصمد من نظم هذه الأبيات «خر يبكي ويعفر وجهة في تراب قبره - يقصد المعتمد- قال فبكى ذلك الملأ حتى أخضلوا -بللوا- ملابسهم، وارتفع نشيجهم وعويلهم، ومنع النهار، فلله در ابن عبد الصمد، وملأ ذلك البلد».

كما حدث أن زار الوزير لسان الدين بن الخطيب الغرناطي قبر المعتمد في أغمات، حيث يروي هو عن نفسه قائلًا: «ووقفت على قبر المعتمد على الله بمدينة أغمات في حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية،باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار، عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م، وهو بمقبرة أغمات في نشزٍ من الأرض، قد حفت به سدرةٌ، وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته، مولاة رُميك، وعليها وحشة التغريب ومعاناة الخمول من بعد الملك، فلا تملك العينُ دمعها عند رؤيتها»، فانشدتُ في الحال: قد زرت قبرك عن طوع بأغمات

رأيت ذلك من أولى المهمات

لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا

ويا سراج الليالي المدلهمات

وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه

إلى حياتي لحادت فيه أبياتي

أناف قبرك في هضب يميزه

فتنتحيه حفيات التحيات

كرمت حيًّا وميتًا واشتهرت علا

فأنت سلطان أحياء وأموات

ما رئى مثلك في ماضٍ ومعتقدي

أن لا يُرى الدهر في حال وفي آت

وقد نظم أحد الشعراء المشارقة في هذا المعنى قائلًا:

لله أيام مضت مأنوسة

ما كان أحسنها وأنضرها معا

لو ساعة منها تُباع شَريتها

ولو أنها بيعت بعمري أجمعا

وقد يتساءل القارئ لماذا تمت الإشارة إلى المعتمد بن عباد وهو من ملوك الطوائف، فأي رجولة حملها هؤلاء الملوك فضلًا عن يستطيعوا صنع التاريخ؟!!، الجواب ببساطة: إن لم يكن المعتمد بن عباد هو الوحيد في هذه الحقبة التاريخية الذي ينطبق عليها مسمى المؤلف ممثلًا في: «رجال صنعوا التاريخ»، سيكون هو على قمتهم، ويكفيه من ذلك أنه كان بتوفيق الله جل وعلا سببًا في قدوم المرابطين إلى الأندلس، هؤلاء المرابطون الذين كانوا سببًا في تأخير سقوط الأندلس قرونًا من الزمان، لذلك إذا ما سُئلت: ما هو الفرق الذي صنع الفرق؟!!، فقل الفرق: هو المبادرة إلى إنقاذ الأمة الإسلامية من براثن العدو المتربص مستغلًا السعي وراء الدنيا وملذاتها؛ أما الذي صنع الفرق؟!!، فهو المعتمد بن عباد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

يوسف بن تاشفين
(منقذ الأندلس)

كان هناك رجل يدعى «يحيي بن إبراهيم الجدالي» نسبة إلى قبيلة جدالة، توجه هذا الرجل في أحد الأعوام لأداء فريضة الحج، وعند عودته من الحج مر على مدينة القيروان، وكان ذلك عام ٤٤٠هـ/١٠٤٩م، وأثناء وجوده في القيروان حضر مجلس علم للعلامة أبي عمران الفاسي، وسأله أبو عمران الفاسي عن وطنه وقبيلته، فذكر له يحيي أنه يعيش في الصحراء، وهو من قبيلة جدالة إحدى قبائل صنهاجة، فسأله الفقيه أبو عمر الفاسي عن مذهبه ومذهب قبيلته؟!!، فرد عليه يحيي قائلًا: «ما لنا علم من العلوم ولا مذهب من المذاهب، لأننا في الصحراء منقطعين لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهال، حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولا علم عندهم».

ليس غريبًا أن يرد يحيي الجدالي على الفقيه الفاسي هذا الرد لأنه الواقع الذي يعيش فيه من انقطاع قومه عن أي علم أو معرفة سواء بالدين أو الدنيا؛ إنما الغريب في الأمر أن يحيي لم يقف عند هذا الرد، بل عرض على الفقيه الفاسي اقتراحًا ممزوجًا بالترغيب والرجاء في نفس الوقت فواصل حديثه له قائلًا: «وفينا أقوام على تعليم العلوم يحرصون، وعلى التفقه في الدين من الله يرغبون، فعسى يا سيدنا تنظر في من يتوجه معي إلى بلادنا ليعلمنا ديننا».

نلحظ أن يحيي لم يكن من طراز الأشخاص الذين يعتنقون مبدأ «أنا ومن بعدي الطوفان!!»، أو «لا دخل لي ولا شأن!!»، أو «وهل أنا سأصلح الكون؟!!»، وغيرها إن استحق أن نطلق على مثل هذه الجمل السلبية مبادئ أو حتى أفكارًا، إنما رَغّب الفقيه الفاسي أن يرسل معه أحد الأشخاص ليعلمه وقومه موضحًا له أن من بينهم من يرغب في التعلم ويحرص عليه، ومزج هذا الترغيب بالرجاء عندما قال له ليعلمنا ديننا، وكأنه أراد أن يقول له لا علم لنا حتى بالدين فهلا أرسلت لنا من يعلمنا أساسيات ديننا؟!!.

تذكر:

لا يدري أحد منا بأي عمل سيدخل الجنة، لذلك لا تحرم نفسك أن تغرس بذرة ولو في صورة كلمة لعلها تثمر يومًا ما، ويظل عطر ولذة ثمرها في ميزان حسناتك إلى أن تقوم الساعة..

أخبر الفقيه الفاسي يحيي أنه سيحاول جاهدًا أن يجد من يرسله معه إلى قومه وقبيلته حتى يعلمهم أمور دينهم، فانصرف يحيي، وعرض أبو عمران

الأمر على تلاميذه لعله يجد من يتطوع لينال مثل هذا الثواب العظيم من منطلق «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، إلا أنه لم يجد من يوافقه ويرد عليه بالقبول، نظرًا لمشقة السفر إلى هذه الصحاري القاحلة، ناهيك عن الانقطاع فيها عن المعمور من الأرض، وعندما لم يجد الفقيه أبو عمران من تلاميذه من يتطوع لحمل هذه المهمة العظيمة والمقدسة لم يقل ليحيي لم أجد من يوافقني للأسباب المذكورة وهي أسباب منطقية، بل أرسله إلى رجل من فقهاء المغرب الأقصى يقال له «واجاج»، وأرسل له معه كتابًا – رسالة - يذكر فيها رغبته في أن يذهب لتعليم هؤلاء القوم المنقطعين عن كل شيء، هنا وقفة: هل ذهب يحيي بالرسالة إلى الفقيه المذكور؟!! أم حدثته نفسه قائلة: يكفيني أن فكرت وحاولت أن أجد من يأتي معي لتعليم قومي دينهم، وبما أنني لم أجد فلي العذر!!، لذلك لن أتعب نفسي وأتجول في البلاد باحثًا عن هذا وذاك لأرجوه أن يحضر معي..!!.

لم يفعل يحيي ذلك؛ تدرون لمَ؟!! لأنه كان يملك هدفًا؛ كان هدفه الوحيد أن يضع قومه على طريق تعلم أمور دينهم، لذلك لم يفكر مجرد تفكير أن يتساءل حتى ولو بينه وبين نفسه، هل هذا من شأني أم لا؟!!، لم يفكر مجرد تفكير أن يرمي المسئولية على غيره بحكم أنه مجرد فرد من هذه الأمة..!!، لم يفكر في أعباء السفر وما يحمله من مشاق محاولًا الوصول إلى شخص يتطوع للإتيان معه لتعليم قومه..!!، لم يفكر في أي شيء سوى هدفه ممثلًا في أن يتعلم قومه أمور دينهم..!!.

خذها قاعدة:

لا تسير في الدنيا وأنت لا تعلم لمَ جئت؟!! ولا إلى أين أنت ذاهب؟!!، بل اجعل لك هدفًا تحيا لأجله!!، هدفًا تتنفسه!!، هدفًا لا يحول بينك وبين تحقيقه إلا الموت!!، مع ذلك لا تنسى أن تربط هذا الهدف بالغاية العليا وهي رضى المولى تبارك وتعالى..

توجه يحيي إلى المغرب الأقصى باحثًا عن «واجاج»، ووجده في موضع يقال له «ملكوس»، فالتقى به وأعطاه رسالة الفقيه أبي عمران، ورحب «واجاج» بيحيي وأكرمه، وحدثه يحيي برحلته إلى الحج ولقائه مع الفقيه أبي عمران، كما حدثه عن حال قومه وأحوالهم من البعد كل البعد عن أمور الدين، ناهيك عن غرقهم في الفواحش والمنكرات فضلًا عن المعاصي والبدع التي يعيشون فيها، وليس هذا عن عمد منهم إنما هو عدم معرفة وعلم بالدين ليس إلا، فاختار له «واجاج» شخصًا ليذهب معه، ويقوم بالمهمة التي يريدها، هذا الشخص يُدعى «عبد الله بن ياسين».

كان «عبد الله بن ياسين» الذي حمل على عاتقه إنفاذ هذه المهمة المقدسة قد دخل الأندلس في دولة ملوك الطوائف، وظل بها سبعة أعوام محصلًا ما استطاع إليه سبيلًا من علوم، ثم رجع إلى المغرب الأقصى، وكان أهل المغرب آنذاك يتولون أمور بلادهم، وأمراؤهم يتولون الإمارة بينهم إلى أن يتغلب كل شخص منهم على الموضع الذي يقيم فيه شأنهم في ذلك شأن ملوك الطوائف في الأندلس.

عاد «عبد الله بن ياسين» كما أوضحنا إلى المغرب الأقصى وفي طريقه مرّ ببلاد المصامدة، فوجدهم يُغير بعضهم على بعض، وينتهب بعضهم أموال بعض، ويقتلون الرجال ويسبون الحريم والذراري، وليس لهم أمير يأتمرون بأمره وينتهون بنهييه، فقال «عبد الله بن ياسين» لبعضهم: ألا تعرفون الله ربكم ومحمدًا رسولكم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام؟!، فقالوا له: نعم عرفنا الله ربنا ومحمدًا نبيّنا -صلّى اللّه عليه وسلم-؛ فقال لهم ابن ياسين: فما لكم بدلتم وغيَّرتم؟، هلا قدمتم عليكم إمامًا يحكم بينكم بشريعة الإسلام وبسنة النبي -صلّى اللّه عليه وسلم-؟ فرد عليه بعض أشياخ المصامدة: لا يرضى أحد منا ينقاد إلى حكم أحد من غير قبيلته..!!.

خذها قاعدة:

لا يمنعنك صدور الحق من مخالف ألا تقبله..

ترك عبد الله بلاد المصامدة ورحل إلى بلاد جُزولة، والتقى مع شيخه «واجاج» فطلب منه شيخه أن يذهب مع يحيي إلى جدالة، فامتثل عبد الله لأمره، وذهب يحيي وعبد الله سويّا حيث قبيلة جدالة، ولقي أهل جدالة عبد الله بن ياسين بالترحاب وأكرموه واجتمع له سبعون شخصًا ما بين صغير وكبير والتفوا حوله محاولين تعلم دينهم وتفقههم فيه، ويومًا تلو الآخر كان هذا العدد في ازدياد، ومع مرور الزمن وفي ظل هذا التزايد أمرهم عبد الله أن يقوموا لمحاربة قبائل لمتونة، فذهبوا وتغلبوا عليهم ودخلت لمتونة في دعوة ابن ياسين، وغزت القبيلتان – جدالة ولمتونة - سائر قبائل الصحراء وحاربوهم، وظل أمرهم في قوة وازدياد إلى أن مات يحيي بن إبراهيم الذي غرس هذه البذرة التي أزهرت فيما بعد وأثمرت ثمارًا حلوة طيبة المذاق؛ فإن لم يشهد يحيي هذه الثمار بنفسه، هذا لا يمنع أنه صاحب الفضل بعد المولى جل وعلا في إثمارها، فلولا غرسه ما وجد غرس حتى يثمر..!!.

ظلت قبيلتا جدالة ولمتونة قوة واحدة متماسكة منقادة إلى أمر عبد الله بن ياسين لا ينفكون عنه أو يحيدون عن أمره قيد أنملة، فقاموا بدعوة الحق ورد المظالم وقطع المغارم، وهم متمسكون بالسنة، وبالطبع يرجع الفضل في ذلك بعد المولى تبارك وتعالى إلى عبد الله بن ياسين، ولكن حدث أن قعد له

أحد الأشخاص ويدعى «الجوهر بن سحيم» - وقيل: غير ذلك - قعد له متصيدًا له أي خطأ، فحدث أن وجد بعضًا من تناقض في أحكام عبد الله بن ياسين وهنا أغرى به جماعة مردودًا في آذانهم هذا التناقض في الأحكام، ومن ثم تجمعوا لعزل ابن ياسين عن قيادة الجماعة، ولم يكتفوا بذلك بل انتهبوا أمواله وداره، وأخذوا منه كل ما كان معه، حتى إن عبد الله بن ياسين فرّ ناجيًا بنفسه خوفًا منهم.

توجه ابن ياسين بعد هربه من جدالة إلى قبيلة لمتونة وكان أميرها آنذاك يدعى «يحيي بن عمر اللمتوني» فتلقاه ابن عمر أحسن لقاء وأكرمه، واستضافه، ثم توجه عبد الله بن ياسين إلى شيخه «واجاج» الذي بعثه إلى قبيلة جدالة بناء على طلب يحيي بن إبراهيم الجدالي، وذُكر أن ابن ياسين كتب رسالة إلى شيخه «واجاج» يُعلمه بما فعلته معه قبيلة جدالة، فغضب «واجاج» وحزن، وكتب إلى كبار ووجهاء جدالة يعاتبهم على ما حدث مع عبد الله بن ياسين، فردوا عليه يعتذرون له عن تقصيرهم مع ابن ياسين، وعندما وصله ردهم أمر تلميذه عبد الله بالرجوع إلى جدالة، بعد أن أعلم كبارها ووجهاءها أنّ من يخالف عبد الله بن ياسين قد خالف الجماعة.

إن كانت قبيلة جدالة قد انقادت إلى أمر عبد الله بن ياسين ونهيه، فإنّ لمتونة فاقتها في ذلك الانقياد والطاعة لأمره ونهيه، وعلى رأس لمتونة أميرها يحيي بن عمر اللمتوني الذي كان يطيع عبد الله بن ياسين بلغة عصرنا طاعة عمياء، ولكن هذه الطاعة كانت عن ثقة في تقوى ابن ياسين وصلاحه وليس عن جهل من قبل يحيي بن عمر، حتى إنه في إحدى الغزوات التي قادتها لمتونة أخبر ابن ياسين يحيي بن عمر أنّ هناك عقوبة يجب أن تقام عليه، فسأله يحيي عن سبب هذه العقوبة التي وجبت عليه؟، فقال عبدالله: أنه لن يخبره حتى تُنفذ العقوبة، فامتثل يحيي لأمره وضرب بالسوط عدة ضربات على رجله، وعقب انتهاء العقوبة التي حددها ابن ياسين قال له: «إن الأمير لا يدخل القتال بنفسه، لأنّ حياته حياة عسكره وهلاكه هو هلاكهم»، وهذا الموقف كما أنه يوضح إلى أي مدى كان ينصاع يحيي بن عمر اللمتوني وهو سيد قومه إلى عبد الله بن ياسين، كذلك يوضح بعض الأفكار الضعيفة التي كان يؤمن بها عبد الله، لأن القائد كما أن موته يضعف الروح المعنوية لدى جنوده، فإن تقدمه لصفوفهم يُحيي هذه الروح بل ويشعلها.

الجدير بالذكر أن قبائل لمتونة كانت قبائل شديدة البأس حتى إنهم كانوا يختارون الموت على أن ينهزموا أمام عدوهم أيًا كانت القضية التي يؤمنون بها سواء كانت صحيحة أم خاطئة، ولا يعرف عنهم الفرار وقت الحرب، لأنّ هذا الفعل بالنسبة لهم من أكثر الأفعال المشينة؛ كما كانوا يحبون القتال وهم على أرجلهم وليس على ظهور الخيل، وعلى الرغم من هذه الصلابة التي

تمتعت بها لمتونة سواء في قوة الجسد أو صلابة الفكر إلا أنهم انقادوا إلى عبد الله بن ياسين وكانوا من أكثر القبائل إيمانًا بدعوته وتصديقًا لها ودفاعًا عنها.

صارت قبائل لمتونة ومن تبعها منقادة لكل أوامر ابن ياسين ونواهيه، حتى إنهم قالوا له أثناء أحد مجالسهم معه «أيها الشيخ المبارك، مرنا بما شئت تجدنا سامعين لك مطيعين، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا»، انظر وتمعن في هذه الكلمات من أناس كانوا لا يرضخون إلا لرجل منهم، ها هم يولون عليهم ابن ياسين هذا الغريب الداخل عليهم؛ لعل هذا يجعلنا نتخيل مدى الجهد الذي بذله ابن ياسين حتى يُغيَّر قناعة مثل هؤلاء القوم الذين اشتهروا بشدة البأس والقسوة والجمود، ومن ناحية أخرى هذا الموقف من هؤلاء القوم يوضح ما انطوت عليه شخصية ابن ياسين من حسن الأخلاق ولينها، لأنّ كسب القلوب لا يتأتى إلا لمثل من يتمتع بهذه الشخصية، ومن يزرع لا بد أن يأتي يوم ويحصد، فقد يحصد الشهد والعسل، وقد يحصد المرارة والحنظل، هذا يتوقف.. أولًا: على غرسه الذي غرسه، ثانيًا: هل تعهده أم تركه تعصف به الرياح حتى اندثر وأصبح أثرًا قبل أن يُضحى عينًا..!!.

خذها قاعدة:

مهما كانت صلابة فكر من أمامك وقسوة قلبه، لا بد وله مفتاح يفتح به عقله وقلبه، ولكن حتى تتمكن من الوصول لهذا المفتاح عليك بأمرين؛ أولهما: الإخلاص لوجه الله تبارك وتعالى، وثانيهما: الاستعانة به جل وعلا ثم عليك أن تمزج هذين العاملين بالأسباب ممثلة في حسن الخُلق ولين الجانب.

ما ذكر من صلاح عبد الله بن ياسين وتقواه ومحاولته إعادة قبائل لمتونة وجدالة وغيرها من قبائل المغرب إلى طريق الحق، هذا لا يمنع من ذكر بعض المآخذ التي أخذت عليه، لأنّ تاريخنا كما ذكرنا مرارًا وتكرارًا تاريخ صنعه بشر وليس ملائكة..

كان من المآخذ التي أخذت على عبد الله بن ياسين أنه كان لا يسمع ب امرأة جميلة إلا وسعى في خطبتها، حتى روي عنه أنه كان دائم الزواج والتطليق؛ كذلك من ضمن المآخذ التي أخذت عليه بشأن الأحكام والقوانين التي كان يفرضها على قبائل لمتونة وجدالة وغيرهما من قبائل المغرب التي انقادت وانصاعت لأمره ونهيه أنه إذا أتاه الرجل تائبًا من ذنوبه وداخلًا في دعوته، يقول له لقد أذنبت ذنوبًا كثيرة فيجب أن يقام عليك حدها، وحدها هو حد الزنا..!!؛ كما أن قاتل النفس لا بد وأن يتم قتله سواء أتاهم تائبًا أو هم تمكنوا منه قبل أن يأتيهم بنفسه؛ والأغرب من ذلك في الأحكام التي كان يؤخذ بها أنه إذا ما تأخر رجل عن صلاة الجماعة ضرب عشرين سوطًا، ومن فاتته

ركعة واحدة منها ضرب خمسة أسواط، وهذا التشدد في الأحكام دفع أكثر الناس إلى الصلاة دون وضوء إذا ما حان وقتها وتأخروا عنها، هربًا من العقاب والضرب.

إنّ كان ما سبق ذكره من أحكام تحمل بعضًا من غرابة إلا أنّ هناك ما هو أغرب منها؛ هذا الأغرب ممثل في أنه حدث أن حضر تاجر يختصم لدى ابن ياسين ضد تاجر آخر، فأمر ابن ياسين بعقوبة هذا التاجر بالضرب، أتدرون لم؟!! لأنه قال أثناء حديثه: «حاشا لله أن يحدث ذلك»، فيتضح أن ابن ياسين كان يرى أن مصطلح «حاشا لله» من المصطلحات المنهي عنها مما دفعه أن يفرض العقوبة على التاجر وكان ذلك من أعجب العجب حتى إن المراكشي نعت ابن ياسين في هذا الموقف ونسبه إلى الجهل حيث قال: «ومما يحفظ من جهل عبد الله بن ياسين كذا».

توفى يحيي بن عمر اللمتوني، وولي بدلًا عنه أخوه أبو بكر بن عمر، وظل عهد أبو بكر مع ابن ياسين كعهد أخيه يحيي معه، ثم حدث أن مات ابن ياسين وأضحت كل الأمور في قبضة أبي بكر، ودانت له البلاد والعباد، ووجه عماله إلى الأنحاء، واستوطن هو أغمات، ومما روى عن أبي بكر بن عمر، أنه في الفترة التي أقام فيها في أغمات كانت بها امرأة اشتهرت بالحسن والجمال وعرفت ب «زينب النفزاوية»، شاع ذكر هذه المرأة في هذه الأنحاء، مما دفع بالشيوخ والأمراء للسعي في خطبتها، فكانت ترفضهم قائلة: «لا يتزوجني إلا من يحكم المغرب كله»، فكانوا ينعتونها بالحماقة، وكان لهذه الفتاة كثير من الأخبار المستغربة، فقيل عنها: إن الجن يكلمها، وقيل: إنها ساحرة، وقيل: إنها كاهنة، وقيل غير ذلك؛ فسمع عنها أبو بكر بن عمر فتقدم لخطبتها فوافقت به، وتزوجته ووعدته بكثير من الأموال تعطيها له، وبعد زواجهما أدخلته في دار تحت الأرض بعد أن غطت عينيه بعصابة، وعندما وصل إلى المكان التي تريده أزاحت عن عينيه العصابة، ففتح عينيه ورأى أكوامًا من الذهب والفضة والجواهر، فدهش مما رأى، فقالت له: هذا كله مالك ومتاعك أعطاك الله إياه على يدي، ثم أغلقت عينيه بالعصابة مرة أخرى، وخرجا، وهو لا يعلم من أين دخل ولا من أين خرج..!!.

هذه القصة التي لا أعلم مدى صحتها وأن كنت نقلتها عن مصدر وليس مرجع، استوقفتني فيها مقولة زينب النفزاوية عندما قالت لزوجها: «هذا كله مالك أعطاك الله إياه على يدي»، وسواء كانت هذه الرواية صحيحة أم غير صحيحة هذا لا يمنعنا الإفادة منها، فنلحظ أن المرأة لم تنسب هذا المال لنفسها، إنما قالت له: «هذا كله مالك»، ولم تقل له إنه أصبح مالك بفضلي إنما قالت له: «أعطاك الله إياه على يدي»؛ هذا الموقف ذكرني بحالنا إذا ما قدر ربنا جل وعلا لنا أن نقف بجوار شخص يحتاج إلى مساعدة من أي نوع سواء كانت

مادية أم معنوية، تجدنا في هذا الوقت على الفور ننسب الفضل لأنفسنا أننا وقفنا بجانبه وساعدناه في حين أننا في هذه اللحظة ليس إلا مجرد أن صرنا جندًا من جنود الله تبارك وتعالى الذين سخرهم لهذا الشخص..

خذها قاعدة:

لا تغتر أو تصاب بالعُجب إن لم يكن الكِبر إذا ما كنت تساعد هذا وتقف بجوار ذاك؛ بل اشكر نعمة ربك جل وعلا؛ أولًا: لأنه تبارك وتعالى أنعم عليك بمثل هذه النعمة التي قال فيها عبد الله بن عمر «لأن أمشي في حاجة أخي خير لي من اعتكاف عشر سنوات»، ثانيًا: أن جعل ربنا تبارك وتعالى خلقه يحتاجون إليك وليس العكس..

كان لا بد من ذكر هذه المقدمة والإشارة العابرة للشخصيات آنفة الذكر حتى يتم رسم صورة واضحة قدر الإمكان عن البيئة التي نشأ فيها يوسف بن تاشفين من جهة، ونسبة الفضل إلى أهله من جهة أخرى، فلولا فضل ربنا جل وعلا ثم هذه الجهود التي قام بها الرجال الذين سبقوا يوسف بن تاشفين وعلى رأسهم الرموز التي ذُكرت ما كان هناك يوسف بن تاشفين، فما سبق ومن سبق يوسف بن تاشفين يعتبر هو الأساس الذي شكل شخصية ابن تاشفين وبنى عليه أعماله فيما بعد.

خذها قاعدة:

أثناء سيرك في الحياة لا تحرم نفسك أن تساند من حولك ولو بكلمة لعلك بهذه الكلمة تُحيي قلبًا، وتفتح عقلًا، فتغرس بذرة تثمر فيما بعد، وتكون ثِمارها في ميزان حسناتك أنت.. أنت تحديدًا دون غيرك..

كان أول ظهور ل يوسف بن تاشفين عندما بعثه الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني على رأس جيش يضم بالإضافة إلى العسكر والجنود جملة كبيرة من مشايخ ووجهاء لمتونة، وقبائل المصامدة وغيرها، وذلك لإخضاع بعض القبائل المتواجدة في المغرب وعلى رأسها بني يفرن الزناتيين الذين كانوا يتخذون من قلعة مهدي بن تبالا ملجأ لهم، فحاربهم يوسف بن تاشفين ومن معه من القبائل الخاضعة لأبي بكر بن عمر اللمتوني، وانتصروا عليهم.

كما حدث في عام ٤٦٣ه/١٠٧٠م أن كان أبو بكر واقفًا على العمال الذين يبنون سور مدينة مراكش، وأثناء ذلك جاءه رجل يركب فرسًا يبدو عليه أثر إرهاق السفر والفزع فألقى عليه السلام وأخبره أن قبائل جدالة أغارت على لمتونة وقتلوا وسبوا منهم الكثير، فحزن أبو بكر وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم جمع أشياخ لمتونة ووجهاءها وأخبرهم بعزمه على السفر للأخذ بثأر من قُتل من لمتونة على يد جدالة، وقال لهم أن يختاروا شخصًا يولونه

عليهم بدلًا عنه حتى يرجع، فنظر كلٍ منهم إلى الآخر وصمتوا ولم يردوا بكلمة، فأعاد عليهم كلامه مؤكدًا على وجوب اختيارهم لرجل يقودهم ويأتمرون بأمره وينتهون بنهيه إلى أن يعود، ثم تركهم وذهب يصلى وأثناء صلاته دعا المولى جل وعلا أن يوفقه في اختيار رجل صالح يستخلفه على قومه، ونام فهتف به هاتف باسم الشخص الذي ينبغي عليه توليته، وأثناء ذلك استيقظ فزعًا من نومه، فنسى الاسم الذي هتف به المنادي، وفي اليوم الثالث من هذه الحادثة جاءه يوسف بن تاشفين ودخل عليه وكان أبو بكر يكرر على وجهاء لمتونة وجوب اختيار من يخلفه، فقال له يوسف بن تاشفين: «أنا أكون خليفتك إن شاء الله عز وجل»، فرد عليه أبو بكر: «صدقت يا يوسف، أنت والله خليفتي»، حيث تذكر حينها أن الهاتف الذي هتف به في منامه ذكر اسم يوسف بن تاشفين.

هذا الموقف يحمل بين طياته كثيرًا من الدروس لمن يتدبره ويتأمله، مع ذلك سنستخرج منه درسين اثنين ونتركك أخي القارئ وأختي القارئة لتستخرجا ما تريانه درسًا وعبرة من وجهة نظركما؛ الدرس الأول: أن أبا بكر لم يستبد برأيه في اختيار من يخلفه بل جمع كبار ووجهاء قومه وطلب منهم أن يختاروا من يستخلفونه عليهم، لأنهم إذا ما اختاروه بأنفسهم سيطيعونه وينقادون له، أما لو فرض عليهم فقد يعصونه بل ويقتلونه، أضف إلى ذلك أنه على الرغم من عرضه المسألة على كبراء القبيلة لم يُخلِ مسئوليته، وفي نفس الوقت لم ينتهز فرصة تردد كبار ووجهاء قومه ويفرض عليهم شخصًا من اختياره، بل توجه على الفور للصلاة ومناجاة ربه ليوفقه لاختيار من يصلح لهذا الأمر؛ الدرس الثاني: التردد الذي كان فيه كبار ووجهاء قومه، لم يكن ترددًا عن جهل، بل لأنهم حتى وقتهم هذا كانوا لا يزالون يحملون بعضًا من رواسب الجاهلية ممثلة في أن كل قبيلة تود أن يكون القائد منها، وقد سبق وذكرنا كيف كان تنازعهم وتناحرهم وعدم رغبة كلٍ منهم في إمرة آخر عليه، لمجرد أنه ليس من قبيلته حتى استطاع عبد الله بن ياسين أن يجمعهم على كلمة واحدة وأمير واحد.

تذكر:

قد يكون من أشد وأخطر الآفات في زماننا: هو التردد..!! وعلاجه: «إذا عزمت فتوكل»، وعزمت هنا تعني فكرت وتدبرت في الأمر، ولا تنسى أن تكون قبل ذلك ومع ذلك وبعد ذلك متمسكًا بحبل الاستعانة بالله تبارك وتعالى..

توجه أبو بكر بن عمر نحو الصحراء بعد أن قسم الجيش بينه وبين يوسف بن تاشفين، وقيل: إنه أخذ ثلثي الجيش وترك ليوسف الثلث، وكان أبو بكر عندما عزم على التوجه للأخذ بثأر قومه الذين قتلوا دون جريمة اقترفوها، بل هي العصبية المقيتة ليس إلا، قال لزوجته زينب إنه يذهب للحرب ولا يدري هل

يعود أو يموت فيها، فعرض عليها أن يطلقها، فوافقت، وقيل: إنها هي التي طلبت منه الطلاق، وروي أيضًا أن أبا بكر بعد أن طلقها طلب من ابن تاشفين أن يتزوجها قائلًا له: «تزوجها، فإنها امرأة مسعودة».

تزوج يوسف بن تاشفين زينب النفزاوية بعد انقضاء عدتها، وتملكت قلبه، وملك هو قلبها، وحدث أن أنجبت له في عام ٤٦٤هـ/١٠٧١م ابنه الذي اسماه المعز بالله، ولم تكن زينب النفزاوية تبخل على زوجها ابن تاشفين بجهد أو مال في سبيل تحقيق أهدافه ممثلة في نصرة الإسلام وعزة أهله، ناهيك عن تحفيزها وذكرها الدائم له أنه سيملك المغرب حتى آمن بهذا الحلم وكأنه حقيقة، وحدث أن جاء الوقت الذي أصبح فيه حقيقة بالفعل.

هذا المعنى فحسب كفيل أن يجعلك تستشعر عظمة قول الرسول -صلّى اللَّه عليه وسلم-: «ما أُوتِى رجل خيرًا من امرأة صالحة»..

وُصِف ابن تاشفين بكثير من الصفات الحسنة والخصال الجميلة، ومنها: أنه كان كتومًا للسر، هذه السمة التي عدمت عند الكثير إلا من رحم ربي؛ كما أنه كان دائم الدعاء، فلم يكن يقوم بأي فعل إلا عقب التفرغ للدعاء والاستخارة؛ ولم لا ف «الدعاء هو مخ العبادة»، ولا يوجد فعل قد يُغيّر القضاء إلا الدعاء؛ أما الاستخارة فهي الصلاة التي لا يذكرها أحد منا إلا عندما يكون هناك عريس أو عروسة حينها نهرع إليها فيما عدا ذلك لا نفكر فيها إلا من رحم ربي جل وعلا؛ أيضًا من السلوكيات التي امتاز بها ابن تاشفين أنه ظل طوال عمره يأكل من عمل يده، وكان يكفيه قدوة في ذلك الحبيب المحب -صلّى اللّه عليه وسلم-.

كما كان ابن تاشفين من المقربين للعلماء، فظل طوال حياته محافظًا على مبادئه في تقريب العلماء منه وإجزال الأعطيات لهم، وكان يلزم نفسه بكل الفتاوى والأحكام التي تصدر عنهم؛ كما أنه ظل مقيمًا للعدل بين رعيته مغدقًا عليها النعم التي أفاض الله جل وعلا بها عليه، لذلك لم يكن يتغافل عن من يخطئ منهم، ومن أبرز العقوبات التي كان يوجبها على رعيته جراء أخطائهم وتجاوزاتهم هو الاعتقال الطويل، فيما عدا لو اتجهوا إلى شق عصا الطاعة ففي هذه الحالة كان يرى أن أفضل حل وأسلمه هو خلع الفتنة من جذورها وذلك بأن يُحَلّ الأمر بالسيف؛ كما أنه لم يتوانَ عن الدفاع عن رعيته، ومقاومة أعدائهم المتربصين بهم.

اشتغل يوسف بن تاشفين بإكمال الأعمال التي ابتدأها أبو بكر بن عمر، فأكمل بناء مدينة مراكش وتحصينها، وأثناء ذلك كان يتودد للقبائل ويكرمهم ويشفق عليهم، فامتلأت قلوبهم بحبه، مما دفعهم إلى معاونته في جميع

أموره وأحواله، ولم يكن يمر أمر أو مسألة أو فعل إلا بعث بحدوثه لأبي بكر بن عمر، وكان أبو بكر يرسل له شاكرًا له فعله.

خذها قاعدة:

قد لا يوجد نعمة في الكون تضاهي نعمة حب الناس لك، ولكن هذه النعمة حتى تحوزها لا بد لك من القيام بدفع ثمنها مقدمًا، هذا الثمن ممثل في إكرامهم واحترامهم وتقديرهم، فبالإحسان.. بالإحسان فحسب تُستعبد القلوب..

كذلك أسس ابن تاشفين الدواوين وشرَّع القوانين وأطاعته البلاد، وعقب إحكامه لأمور دولته وتصريفه لشؤونها ابتدأ بإرسال الخطابات سرًّا إلى كبار ووجهاء القبائل يدعوهم للقدوم عليه ودعمه، واعدًا إياهم بجزيل العطاء، وإنزالهم المنازل العليا، فأطاعه وقدم عليه كثير منهم.

كان يوسف بن تاشفين من طراز القادة الذين يؤمنون أن الدين والدنيا يسيران في خطين متوازيين، فعلى الرغم من عيشه في هذا المجتمع الزاهد والمتقشف لم يكن من طراز القادة التقليديين أو بالأحرى النمطيين الذين يظنون أن هناك تعارضًا بين التمسك بالدين والشريعة وبين التجدد والانفتاح والاهتمام ببناء دولة وتشييد حضارة وعمران، مما يدفعهم في كثير من الأحيان إلى محاربة التجديد لتصورهم القاصر أن هذا يتعارض والدين كما أوضحنا، لذلك نجده بالإضافة إلى ما سبق ذكره من أعمال أنجزها قام بإنشاء دار السكة بمدينة مراكش ولا يخفى على أحد ما لهذا العمل من أهمية في استقلال الدول وعدم اعتمادها على غيرها أو كما يقال «الذي يطعم نفسه من فأسه يصبح قراره من رأسه»، وحدث في نفس هذا الوقت الذي أنشأ فيه دار السكة أن ارتدت بعض القبائل وقامت ضده، فأرسل لهم جيشًا بقيادة محمد بن إبراهيم اللمتوني، فاستطاع الأخير إخضاعهم وإعادتهم إلى الطاعة، وهذا يفسر لنا معنى أنّ الدين والدنيا بالنسبة له كانا يسيران في خطين متوازيين.

قويت شوكة ابن تاشفين وعظم نفوذه وشرع في شراء الكثير من العبيد السودان ليقوي بهم جيشه، فقيل: إنه اشترى منهم نحوًا من مائتي وأربعين فارسًا، ناهيك عن نحو من ألفين من العبيد الذين اختصهم للخدمة والحجابة، واشتد على اليهود وفرض عليهم الفروض العظيمة التي اجتمع له منها مال عظيم استخدمه في بناء دولته وزيادة شوكته.

حدث في عام ٤٦٤هـ/١٠٧١م أن عزم الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني على الرجوع إلى بلاد المغرب عقب انتهائه من أخذ ثأره من قبائل جدالة التي خرجت عن الطاعة وغزت قبائل لمتونة كما سبق أن أوضحنا، وفور علم ابن

تاشفين بخبر رجوع أبي بكر بن عمر اغتم وحزن، وذلك لأن رجوع أبي بكر يعني تَسَلُمه أمور الحكم من ابن تاشفين الذي كان خليفته على البلاد حتى يرجع، وعندما رأته زوجته زينب النفزاوية علمت أنه مهموم، كما فطنت لسبب همه وغمّه، فأخذت في تهدئته، وعندما هدأ أخبرها برجوع أبي بكر الذي استخلفه ووثق به دون كبار ووجهاء القبائل، وأفصح لها لولا أنه ابن عمه لقتله، فاقترحت عليه زوجته قائلة: «إذا قدم عليك وبعث مقدمات رجاله إليك فلا تخرج إليه، ولكن بادره بهدية جليلة، فلا يقاتلك على الدنيا، فإنّ الرجل خيّر لا يستحل سفك دماء... وتفوز بملكك إن شاء الله»، فوافق على اقتراحها قائلًا لها: «والله لا خالفتك في أمر تُشيرين به أبدًا»، ووصل الأمير أبو بكر من الصحراء إلى مراكش عام ١٠٧٢م/٤٦٥هـ، ووجد يوسف قد استبد بالملك ودانت له البلاد وأطاعه العباد، فأيقن أنه إذا ما فكر في الوقوف بوجهه سيكون المغلوب لا محالة، فآثر السلامة لذلك قرر تسليم الأمر له.

لعل بعض القراء الكرام إذا ما وقعت أعينهم على مثل هذه الأفعال أو السلوكيات التي سلكها بطلنا وقائدنا بل وأحد قدواتنا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يستغربها أو يرفضها وقد يكذبها، لأن عقله أو عاطفته تمنعه أن تشوه صورة فارسه يوسف بن تاشفين، هذا البطل الهمام صاحب موقعة الزلاقة، هذه الموقعة التي أخرت سقوط الأندلس لقرون عدة، وذلك لأن أغلبنا نحن جيل الشباب والفتيات -كما أوضحت سابقًا وأكرره حاليًا لأهميته- ننظر لأبطال التاريخ الإسلامي وقادته الذين أحرزوا نجاحًا باهرًا أو كانت لهم بصمة واضحة لها أثرها في تغيير مسار هذا التاريخ ننظر لهم على أنهم معصومون من كل خطأ، منزهون عن كل نقص، وبالتالي هم أرقى من أن يفكروا مجرد تفكير في مثل هذه الأفكار التي لا يفكر فيها إلا القادة السيئين الذين يقضون حياتهم لهثًا وراء المال والسلطة والشهرة، وننسى نحن جيل الشباب والفتيات أن هؤلاء القادة يقعون في تعداد البشر، ننسى أن الإنسان مهما امتلأ قلبه بالخير والزهد في الدنيا والترفع عن سفاسفها، هذا لا يمنع البتة أن نفسه تحوي بين جنباتها بعضًا من جوانب الضعف الإنساني بشكل أو بآخر، هذا الجانب من الضعف الإنساني لديهم لا يلغي بحال من الأحوال ما قدموه للإسلام؛ بل للإنسانية من دعم ومساندة، كما أن ما قدموه من صور الرقي الإنساني لا يلغي بحال أنهم بشر تضم أنفسهم بعضًا من جوانب الضعف الإنساني، وإلا ما ارتقينا نحن لفكرة أن نتخذهم قدوات لأنهم حينها سيكونون في مرتبة أعلى من مرتبتنا نحن البشر..!!

وصل أبو بكر بن عمر إلى بلاد المغرب متجهًا نحو مراكش عام ١٠٧٣م/٤٦٥هـ، ونزل بالقرب من مدينة أغمات في حين تسابق كبار ووجهاء رجال دولته الذين حضروا معه من الصحراء نحو مدينة مراكش بسبب ما تواصل إلى سمعهم من فخامة بنيانها ناهيك عن كرم يوسف بن تاشفين وإجزاله العطاء

على من يقدم عليه من إخوانه وقرابته، فقَدِمَ الكثير منهم على يوسف فأنزل كلًّا منهم حسب منزلته، فأمر لهم بالملابس الفاخرة والخيل العتيقة، وغيرها من الهدايا والأعطيات، وعندما رأى أبو بكر بن عمر حال ابن تاشفين من زهوة الملك وعز السلطان، قرر أن يسلمه أو بالأحرى أن يتنازل له عن أمور الحكم والملك.

أرسل أبو بكر بن عمر إلى يوسف بن تاشفين في دار ملكه يخبره بيوم محدد سيقدم فيه عليه، فخرج له ابن تاشفين من مراكش وسط جنده وعبيده، والتقيا في نصف الطريق، فسلم عليه ابن تاشفين وهو على ظهر دابته ولم يكن هذا بالطبع من عادته، ثم نزلا من فوق الأحصنة وقعدا على بُرنُس فرش لهما في ذلك المكان الذي سمي عقبها ب «فحص البُرنس» نسبة لهذا اللقاء، وكان أبو بكر طوال الوقت ينظر إلى كثرة الجنود والعبيد التي تحيط بابن تاشفين وتظهر على قسمات وجهه حالة من التعجب الشديد وهو الرجل الذي ألف الزهد والتقشف، وعاش أغلب عمره بين جنبات الصحاري، وهنا ابتدأ ابن عمر الكلام وقال ل ابن تاشفين: «يا يوسف أنت ابن عمي ومحَلَّ أخي، وأنا لا غنى لي عن معاونة إخواننا بالصحراء، ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك، ولا أحق به منك، وقد خلعت نفسي لك ووليتك عليه، فاستمر على تدبير ملكك وأنت حقيق به وخليق له، وما وصلت إليك إلا لأمرك في بلادك وأُسلم لك وأعود في مقر إخواننا وموضع استيطاننا»، فشكر له يوسف ما تفضل به، وقال له: «لك عليّ ألا أقطع أمرًا دونك، ولا استأثر إن شاء الله بشيء عليك»، وتم إحضار أشياخ لمتونة ووجهاء القبائل وأعيانها ليشهدوا على خلعه لنفسه، وتولية الأمر ليوسف ابن تاشفين، ثم توجه أبو بكر إلى أغمات موضع نزوله، وعاد يوسف إلى مراكش دار ملكه، وكان هذا كله بإشارة زينب النفزاوية له كيف له أن يحل الأمر حتى علق المراكشي على ذلك قائلًا: «فكان هذا التدبير برأي زينب النفزاوية زوجته، فهي التي جسرته على ذلك كله حتى ملك المغرب أسعد ملك وأتمه نصرًا على العدو، ولم يهزم له قط جيش ولا رُدت له راية بملك، والله يؤتي ملكه من يشاء»، لذلك كان يقول لأبناء عمومته إذا ما خلا معهم وحضر ذكرها، يثني عليها قائلًا: «إنما فتح البلاد برأيها».

وصل يوسف بن تاشفين إلى مراكش بعد انتهاء اجتماعه مع أبي بكر بن عمر وتنازله له عن الملك، وشرع على الفور في تجهيز هدية يبعث بها لأبي بكر، كانت هذه الهدية عبارة عن خمسة وعشرين ألف دينار من الذهب، وسبعين فرسًا منها خمسة وعشرون فرسًا مجهزة بأفخم التجهيزات وأفخرها، وسبعين سيفًا، ومائة وخمسين من البغال، ومئتين من البقر، وخمس مائة من الغنم، ناهيك عن البذور والدقيق، والعنبر والمسك، والبخور، إضافة إلى الحلي والملابس الفاخرة، والخدم والجواري، وغيرها، وأرسل يوسف مع هذه

الهدية الفخمة خطابًا لأبي بكر يعتذر فيه عن صغر قدر الهدية وأنها لا تليق بقدره ومقامه، وحلف له أنه لم يتبقَ معه أي شيء مما كان يَدّخره ويقتنيه، ففرح أبو بكر وأثنى على يوسف، وبعد أن وزع جزءًا من هذه الهدية على رجاله وإخوانه وقرابته، توجه إلى الصحراء وظل يوسف يمده بالهدايا والتحف والمعونة إلى أن قتله السودان المجاورون للمتونة عام ٤٦٨هـ/١٠٧٦م أثناء محاربته لهم.

لعل المتأمل للهدية التي بعث بها يوسف بن تاشفين لأبي بكر بن عمر يلحظ أنها ترسم بشكل أو بآخر صورة واضحة لهذه الشخصية الفذة والقديرة ممثلة في يوسف بن تاشفين الذي استطاع أن يخضع القبائل المجاورة له ويجعلها تنضوي تحت لوائه، ثم استخدم أفرادها في تأسيس دولته وأغدق عليهم الأموال وأكرمهم وأفشى بينهم العدل، فعمل الجميع معه على ازدهار هذه الدولة عن حب ورغبة واقتناع منهم فاستطاع أن يصل إلى هذا الحد من الملك والتملك في هذه المدة البسيطة التي ذهب فيها ابن عمر لقتال قبائل جدالة ثم عودته مرة أخرى إلى المغرب، وبالرغم من هذا الملك الذي حازه ابن تاشفين إلا أنه لم يكن أبدًا من طراز الحكام الذين كانوا يركنون إلى الشهوات والملذات والدعة والراحة، مستغلين انبساط الدنيا لهم، ودورانها في فلكهم.

استمر ابن تاشفين في إخضاع القبائل إلى سلطانه وبناء دولته على أسس متينة من الرحمة والعدل الذي لم يكن يُفرّق فيه بين قوي وضعيف أو غني وفقير، وحدث في عام ٤٦٦هـ/١٠٧٤م أن اجتمع في مجلسه كبار رجال الدولة وأعيانها، وذكروا له أنه خليفة الله في المغرب ولا بد أن ينعت بأمير المؤمنين، وليس بلقب الأمير فحسب، فرفض ذلك قائلًا لهم: «حاشا لله أن أتسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به الخلفاء، وأنا رجل الخليفة العباسي والقائم بدعوته في بلاد الغرب»، فألحوا عليه أنه لا بد أن يسمى باسم يمتاز به عن غيره، فقال لهم ليكن أمير المسلمين، فهو الذي اختار لنفسه هذا الاسم، وأمر أن يكتب بهذا الاسم إذا كتب الكُتاب عنه أو إليه.

استمر أمير المسلمين في افتتاح مدن المغرب بالصلح تارة، وبالحرب أخرى، وكان من كبار المدن المغربية التي افتتحها آنذاك مدينتا فاس وتلمسان، وحدث في عام ٤٦٩هـ/١٠٧٧م أن قدم عليه من الصحراء إبراهيم بن أبي بكر بن عمر مطالبًا بملك أبيه أبو بكر بن عمر، ونزل إبراهيم بالقرب من مدينة أغمات في جملة من جند لمتونة ورجالها، وعندما علم أمير المسلمين بذلك بعث له ابن عمه وأحد أبرز وزرائه بل ذراعه الأيمن بلغة عصرنا ويدعى مزدلي اللمتوني، فذهب إليه مزدلي وسأله ماذا يريد؟!! فذكر له أنه يريد ملك أبيه الذي تغلب عليه ابن تاشفين واغتصبه منه رغمًا عنه، فقال له مزدلي:

«إن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، والله تعالى قد خصّ هذا الرجل – يقصد ابن تاشفين- بالملك دوننا، فإن كنت عاقلًا فاطلب منه أن يعينك بمال وخيل ترجع بهما إلى بلدك، وإن طلبت غير هذا أخاف أن يجعل على رجلك قيدًا ويحبسك عنده عبدًا، وما قلت لك ذلك إلا بوجه الشفقة عليك»، بعد هذه المقالة بهذا الأسلوب من هذا الوزير المحنك مزدلي الذي وصفه المؤرخون بأنه كان رجل: «حسن السياسة صحيح المذهب، عارفًا بخدمة الملوك»، هدأت أو إن شئت فقل ارتخت ثورة الغضب التي كانت تغلي بداخل هذا الشاب المتحمس، وقال للوزير مزدلي: «يا عمي مزدلي رضي الله عنك، عسى أن تجتمع معه – يقصد ابن تاشفين – في أمري وتُبين له حالي»، فطلب منه مزدلي أن يظل في مكانه حتى يرجع وسيأتي له بما يرضيه، وذهب مزدلي إلى أمير المسلمين وحدثه في أمر إبراهيم إلا أنه لم يذكر له سوء أدبه في الحديث أو تجاوزه، بل حسن له مقاله..!!، فبعث إليه يوسف بن تاشفين بالعطايا من مال وخيل وكسى فاخرة وبالغ في إكرامه، وحمل مزدلي ما تفضل به ابن تاشفين إلى إبراهيم فشكره، وانصرف إلى الصحراء دون أن يلتقي يوسف بن تاشفين وظل بها إلى أن مات.

ذكرنا سابقًا في إطار حديثنا عن المعتمد بن عباد أن يوسف بن تاشفين عبر البحر إلى الأندلس عام ١٠٨٧/٤٧٩م، وذلك عقب استنفار ما استطاع استنفاره من البربر للعبور معه وإنقاذ بلاد الأندلس من العدو الغاشم، وقد صدق فيه قول الشاعر:

فإذا أراد الله نصر الدين

استصرخ الناس بابن تاشفين

فجاءهم كالصبح في إثر غسق

مستدركًا لما تبقى من رمق

اجتمع ل ابن تاشفين نحوًا من سبعة آلاف فارس فضلًا عن المشاة، فتوجه بهم إلى مدينة سبتة ومنها عبر البحر إلى الأندلس ونزل بالجزيرة الخضراء، وهناك وجد المعتمد وكبار رجال دولته في انتظاره واستقباله، ولقيه المعتمد في أبهى لقاء واستقبله في أكبر استقبال، وقدم له من الهدايا والتحف والذخائر ما لم يكن ابن تاشفين قبل أن يراها يظن أنها موجودة عند ملك من ملوك الأرض.

تقدم ابن تاشفين جيشه وتوجه به إلى شرقي الأندلس، فطلب منه المعتمد أن يتجه معه إلى مدينة إشبيلية دار ملكه حتى يستريح من سفره ومن ثم

يشرع في تنفيذ ما حضر لأجله، فرفض ابن تاشفين وقال للمعتمد: «إنما جئت ناويًا جهاد العدو، فحيثما كان العدو توجهت إليه».

كان يوسف بن تاشفين مستيقظًا ومتنبهًا للهدف الذي ترك بلاده وعبر بجيشه إلى بلاد غريبة لأجل تحقيقه، فلم تشغله الهدايا والتحف والذخائر التي قدمها له المعتمد، أو تشتته عن هدفه؛ ولو تم قياس ذلك على عصرنا سنجد في زماننا الفتاة أو الشاب يملك الكثير من الأخلاق ناهيك عن التدين والالتزام، وإذا ما حدث وسافر إلى بلد غربي أو أوربي للعمل أو الدراسة أو حتى للسياحة والتجوال ينخدع بهذه المظاهر الزائفة ويقع في فخها ويعود إلى بلاده وكأنه تبدل إلى شخص آخر، وكذلك الفتاة الخلوقة المحترمة إذا ما تعرفت على البعض من صديقات السوء تجدها وقد نهجت نهجًا آخر لا يمت بصلة لنهجها السابق؛ تدرون لمَ؟!!، لأن الأخلاق والتدين عند البعض منا نحن الفتيات والشبان ما هي إلا سلوكيات سطحية لم ترسخ جذورها في أعماق القلب حتى إذا ما ابتلينا بفتح الدنيا لم نجد لنا واعظًا وزاجرًا من أعماق قلوبنا..

تذكر:

وأنت في طريقك لا بد أن يكون لك هدف تسير إليه، ف كن متيقظًا..!!

أثناء توجه يوسف بن تاشفين إلى شرقي الأندلس كان يقصد بذلك التوجه إلى حصن «الليط» هذا الحصن الذي كان محاصرًا بالنصارى محاولين الاستيلاء عليه، ولكن فور علمهم بعبور ابن تاشفين وجيشه إلى الأندلس تركوا الحصن وعادوا إلى بلادهم حتى يستنفروا جنودهم ويعدوهم لملاقاة هذا الجيش الذي يعلمون كل العلم أنه ليس كأي جيش.

لم يكن هدف ابن تاشفين في الأندلس الجهاد فحسب وإن كان هو الهدف الأول، وإنما كان يسعى في نفس الوقت إلى الإصلاح بين المسلمين الذين فرقتهم نيران الأطماع والصراعات، واعتدى كل منهم على الآخر، لأنه كان يدرك أنه إن أخرج العدو من الأندلس ثم تركها وعاد إلى بلاده لن تُؤتي جهوده ثمارها وسيعود العدو مرة أخرى للسيطرة عليها مستغلًا تناحر المسلمين وتنافسهم فيما بينهم، لذلك نجده وقد سعى إلى الإصلاح بين ابن رشيق الذي تغلب على مرسية وأعمالها من يد ابن عمار وزير المعتمد، فطلب منه ابن تاشفين أن ينزل عن مرسية إلى المعتمد ويعوضه المعتمد عن ذلك بالمال وأن يوليه أحد جهات إشبيلية، فأجابه ابن رشيق إلى ذلك وترك مرسية وأعمالها إلى المعتمد.

وبدأت موقعة الزلاقة، هذه الموقعة الفاصلة التي تأخر بها سقوط الأندلس لسنوات عدة، فخرج المعتمد بعد أن اجتمع له جيش ضخم من كافة أقطار

الأندلس، فتكامل عدة المسلمين من المتطوعة والمرتزقة([47]) في هذه الموقعة زهاء عشرين ألفًا، والتقت جيوش المسلمين في بداية بلاد النصارى، وكان ملك النصارى آنذاك قد استنفر الكبير والصغير في مملكته ولم يترك رجلًا قادرًا على القتال إلا دعاه للمشاركة في هذا الجيش، وذلك لأجل استئصال شأفة يوسف بن تاشفين وجيشه، وذلك لأنّ ملك النصارى يعلم أن ملوك الطوائف أصغر من أن يشغلوا عقله وكلهم يعطون له الجزية صاغرين، وقد علق المؤرخون على ذلك قائلين: «وإنما كان مقصوده الأعظم قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الأندلس، والتهيب عليهم، فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الإتاوة، وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من أن يحتفل - يهتم أو ينشغل - بهم».

أضحى جيش المسلمين وجيش النصارى في مواجهة بعضهما البعض واستطاع أن يرى كلّ منهما الآخر عن بعد، فهال ابن تاشفين والجيش كثرة عدد العدو وجودة سلاحه وخيله حتى إن المعتمد عندما رأي ذلك قال: «ما كنت أظن هذا الخنزير - لعنه الله - يبلغ هذا الحد!»، وهنا قام يوسف بن تاشفين باختبار صدق عزيمة الجيش بعد رؤيتهم للعدو، فأمر من يقوم ليعظهم ويخطب فيهم، فظهر منهم صدق النية والحرص على الجهاد راجين إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، ففرح ابن تاشفين بذلك.

وقف الجيشان في مقابلة بعضهما، وكان ذلك في يوم الخميس، وأخذت رسل الطرفين في التبادل بينهم لتقرير يوم الزحف والالتقاء، فبعث ملك النصارى للمسلمين مقترحًا أن يكون القتال يوم الاثنين لأنّ يوم الجمعة هو عيد المسلمين، والسبت عيد اليهود وهم وزراؤه وكتابه وكثير من خدمه وجنوده من اليهود، والأحد عيدهم هم النصارى، وكان يقصد بذلك أن يخدع المسلمين حتى ينقضّ عليهم دون علم أو استعداد منهم فيقضي عليهم.

أشرقت شمس يوم الجمعة، وعندما جاء وقت صلاة الجمعة، تهيأ ابن تاشفين وأصحابه للصلاة، لأنه كان يعتقد أن الملوك لا تغدر؛ أما المعتمد فقد أخذ بالاحتياط لأنه لم يكن يثق في ملك النصارى، فقال لابن تاشفين صلِّ في أصحابك وأنا وأصحابي سنكون في ظهرك للحماية ربما يغدر بنا النصارى، وبمجرد أن شرع المسلمون في الصلاة هجمت عليهم خيل النصارى ظانين أنهم انتهزوا الفرصة، وإذا بالمعتمد وجنوده في مواجهتهم، وتناول ابن تاشفين وجيشه أسلحتهم وارتقوا على أحصنتهم، وقاتلوا قتال الطالب لأحد الحسنين النصر أو الشهادة حتى تعجب المعتمد من حزمهم وقوة جهادهم، فلم يكن يظنّ أنهم سيستميتون في الحرب إلى هذا الحدّ، وكُتب النصر للمسلمين في هذه الواقعة الشهيرة التي عرفت ب «موقعة الزلاقة»، وفرّ ملك النصارى هاربًا مع قلة من جنوده بعد أن قُتل أغلبهم.

استقبل أهل الأندلس بشارة النصر بالتهليل والتكبير والسرور وكثر الدعاء لابن تاشفين على منابر الأندلس، وانتشر له الثناء والمدح والامتنان في أقطار الأندلس قاطبة، وكان طوال مكث ابن تاشفين في الأندلس يُقدر المعتمد ويُجله ويقول: «إنما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت أمره، وواقفون عند ما يحدّه»؛ فأي أخلاق تضاهي مثل هذه الأخلاق؟!!؛ فهذا يوسف بن تاشفين الواقف عند حدود الله والمراعي لها، وهذا المعتمد صاحب البذخ والإسراف فيما ينفع ويضر، والمتصارع مع المسلمين على أراضي الإسلام، إلا أنّ هذا لا يلغي موقفه البطولي في التفكير في نجدة الأندلس واللجوء إلى المرابطين لإنقاذها من يد العدو النصراني.

على الرغم من ازدياد نفوذ ابن تاشفين خاصة عقب موقعة الزلاقة هذه الموقعة الخالدة، وانتشار اسمه وصيته في الآفاق إلا أنه لم يُصب بما نطلق عليه حديثًا داء العظمة وحب الذات، هذا الداء والمرض العضال الذي يصيب العديد من أبناء هذا الجيل الذين لا يساوي الواحد منهم مقدار شعرة في ذراع ابن تاشفين، وعلى الرغم من ذلك تجده سائرًا على الأرض وكأنّ السماء لم تظل مثله، ولم تحمل الأرض شبيهًا به، فظل ابن تاشفين طوال حياته متبسطًا في لبس الثياب غير مفتخر بها، بل ظل طوال حياته مداومًا على تنازل خبز الشعير، ولم تذهب عينه إلى خبز القمح، ولم يتناول إلا لحوم الإبل وألبانها.

خذها قاعدة:

إذا ما غلبتك نفسك ودعتك للكِبر والغرور تذكر ما هو مبدأك؟!!، وما هي نهايتك؟!!، وعندها ستهون عليك الدنيا ولن تتمنى منها سوى العمل الصالح والسيرة الحسنة حتى يتذكرك الناس بها وتكون شفيعًا لك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم..

كانت قلوب أهل الأندلس قد امتلأت بحب يوسف بن تاشفين وأصحابه لما قاموا به من نصرة الإسلام وأهله الذين ظلوا أمدًا طويلًا في وحل الذل والهوان بسبب أطماع وصراعات ملوك الطوائف، ناهيك عن ضعفهم وانهزامهم أمام أنفسهم قبل أعدائهم، لذلك بمجرد أن قامت الفتنة ضد المعتمد وقبض عليه ونفي إلى أغمات استوثق أمر الأندلس ليوسف بن تاشفين، وظل أصحاب يوسف بن تاشفين يستولون على المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى إلى أن دانت لهم الأندلس بجملتها، ثم توجه المرابطون عقب ذلك لمجاهدة العدو، والدفاع عن المسلمين وحماية أراضيهم، فضلًا عن تأمين الثغور وحمايتها، ففرح بهم أهل الأندلس الذين ذاقوا طعم العزة بعد الذلة، والرفعة بعد الهوان فازدادوا لهم حبًا، وفي نفس الوقت ارتجفت قلوب العدو منهم خوفًا، وكان ابن تاشفين خلال ذلك يمدهم بالجيش تلو الجيش،

ويتحدث في كل مجالسه التي يحيطه فيها كبار ووجهاء رجال دولته ناهيك عن غيرهم من الرسل والسفراء يتحدث في هذه المجالس موضحا هدفه بقوله لهم: «إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة – يقصد الأندلس – أن نستنقذها من أيدي الروم، لمّا رأينا استيلاءهم على أكثرها، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة، وإنما همة أحدهم كأس يشربها، وقينة – جارية - تُسمعه، ولهو يقطع به أيامه، ولئن عشت لأُعيدنّ جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم - يقصد الروم - خيلًا ورجالًا لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، إنما هَمَّ - اهتمام - أحدهم فرس يَرُوضه ويستفرهه([48])، أو سلاح يستجيده أو صريخ يُلبي دعوته»، وغيرها من أمثال هذه التصريحات التي كان يصرح بها ابن تاشفين والتي أرعبت قلوب العدو الذي ألف استكانة ملوك الطوائف ومذلتهم، وإبداء الولاء والطاعة لهم حتى لو تطلب الأمر وقوف الأشقاء ضد بعضهم البعض بمساعدة عدوهم.

عقب هذه الانتصارات التي حققها المرابطون في الأندلس وإذلالهم العدو واستنقاذ المسلمين من براثنِه، قَدِمَ العلماء والفقهاء ورجالات الدولة ووجهاؤها من كل فج إلى مجلس أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حتى شبه مجلسه أنه أضحى يضاهي مجالس خلفاء بني العباس في صدر دولتهم.

ظل ابن تاشفين طوال حياته في مجاهدة العدو وإذلاله وحماية المسلمين والدفاع عن أراضيهم، إلا أنه على الرغم من الانتصارات التي حققها المرابطون على العدو الإسباني فإنّ مساحة الأندلس في زمنهم تقلصت إلى ٢٥٠،٠٠٠ كيلو متر مربع فقط، وكانت أهم القواعد الإسلامية التي سقطت في هذه الحقبة، ولم يستطع المرابطون استعادتها مدينة طركونة التي سقطت عام ٩٦٠م، وبراعة عام ١٠٤٥م، وقلمرية عام ١٠٦٤م، ووادى الحجارة ومجريط عام ١٠٨٥م، وغيرها من المدن.

حدث في عام ٤٩٨ه/١١٠٥م أن شاع خبر مرض يوسف بن تاشفين في الأندلس، واستغل أعداؤه من بني جلدته الفرصة للخوض فيه والنيل منه، وعندما وصل الخبر إلى ملك النصارى آنذاك أذفونش تملكته الفرحة وقرر على الفور غزو بلاد المسلمين لاعتقاده أنها خلت من الرجال بعد أن مرض ابن تاشفين وأقعد في دار ملكه، لذلك جهز جيشًا قوامه يزيد على ثلاثة آلاف وخمس مائة فارس، وأمرهم بالتوجه إلى إشبيلية، وامتثلوا لأمره واستمروا في التوغل في بلاد المسلمين حتى وصلوا إلى موضع يدعى «مقاطع»، وغنموا من تلك القرى التي في الأنحاء الغنائم الكثيرة والوفيرة، وهنا خرج الفارس الذي يدعى ابن فاطمة من إشبيلية وتحصن في أحد الحصون وتلاحقت به أجناده وأمداده، وظل في هذا الحصن منتظرًا قدوم أبي عبد الله

بن الحاج من غرناطة بعساكره، وعندما فطن إليهم النصارى فروا هاربين لا ينظر أحد منهم خلفه، ولحق بهم المسلمون وأعملوا فيهم القتل حتى قيل: إنه قتل منهم ما يزيد على ألف وخمس مائة رجل.

كما حدث أن عمّ القحط بلاد الأندلس في هذه السنة المذكورة، ووصل بأن ظنّ الناس أنه لا مفرّ من الهلاك، وفي السنة التي تليها زاد مرض يوسف بن تاشفين، وظل كذلك حتى قبضه الله جل وعلا إليه عام ٥٠٠هـ/١١٠٧م، وقد تحدث المؤرخون عن هذه الفترة التي مرض فيها ابن تاشفين مسلطين الضوء على شماتة الأعداء من الداخل والخارج؛ حيث قالوا: «شاع الخبر بالأندلس بمرض الأمير يوسف واستيلاء الآلام عليه، وخاض فيه أهل الدولة الذين يستنبطون الغوائل، ويُشعلون نيران الشقاق والنفاق، واتصلت الأخبار بالطاغية أذفونش على غير صورتها، وجُلبت لديه في غير معرضها، وصور أن بلاد المسلمين من الرجال قد خلت، ومن الحماة وذوي النجدة قد تفرغت، وظنَّ أنه من هذا الحادث قد اضطربت الأمور، وانحل نظام التدبير».

خذها قاعدة:

لا يخلو زمان من الأزمان ولا مكان من الأماكن ممن يحاربون الصلاح والإصلاح، ولكن تذكر أن هذا ليس مبررًا أن نبتعد عن (الصلاح) مبتدئين بإصلاح أنفسنا، و(الإصلاح) محاولين إنارة الطريق لغيرنا..

وبما أننا في زمن الشعارات لا ينبغي أن يفوتنا أن نذكر الشعار الذي رفعت رايته دولة المرابطين وعلى رأسها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، هذا الشعار ممثلًا في قوله تبارك وتعالى: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»([49])، هذا الشعار الذي نقش على العملة المرابطية إضافة إلى غيره مما نقش على ذات العملة، ولعل ما سبق ذكره عن حال يوسف بن تاشفين في رعايته لشؤون دولته يكفي ليحدد القارئ الكريم هل التزمت دولة المرابطين بهذا الشعار أم لم تلتزم؟!!، هل هذه الشعارات كانت حقيقية أم أنها مزيفة كما هو حال شعارات زماننا إلا من رحم ربي جل وعلا؟!!

بمرور الأيام دبّ الضعف والوهن في جسد المرابطين، وبعد أن كانوا يحرزون النصر تلو الآخر على القوات النصرانية، بدأت الهزائم تتوالى عليهم حيث اضطروا إلى سحب قواتهم من الأندلس، مما أدى إلى سقوط العديد من المدن الأندلسية ومنها سرقسطة عام ٥١٢هـ/١١١٨م، والمرية عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وطرطوشة ولاردة عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م، وبعد وفاة تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ثالث أمراء المرابطين في الأندلس عام ٥٣٧هـ/١١٤٥م، توالى سقوط العواصم الأندلسية في يد النصارى، وذلك بسبب انشغال

المرابطين بالدفاع عن أنفسهم، وبهذا أصبح الأندلس لا تشمل سوى ربع شبه جزيرة أيبيريا.

بضعف الدولة المرابطية، نظرًا لصراعاتها مع النصارى من جهة، والموحدين الذين حاولوا انتزاع ملك الأندلس منهم من جهة أخرى([50])، خضعت الأندلس لسلطان الموحدين الذين حققوا نصرًا ساحقًا على النصارى في معركة الأرك عام ١١٩١/٥٩٠م، إلا أنّ دولة الموحدين ما لبثت أن ضعفت، شأنها شأن سابقتها دولة المرابطين، وبضعف الدولة الموحدية انهزم المسلمون في الأندلس انهزامًا فادحًا في معركة العِقاب عام ١٢١٢/٦٠٩م.

على الرغم من سقوط أغلب المدن والقواعد الإسلامية في الأندلس في عهدي المرابطين والموحدين، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أن دخول المرابطين والموحدين من بعدهم إلى الأندلس للذود عن أهلها، قد أخّرَ سقوط الأندلس ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان.

أفضى العصر الموحدي في نهايته إلى سقوط العديد من القواعد الأندلسية الكبرى، حيث ضعفت مقاومة المسلمين في حين قويت الهجمات النصرانية عليهم، وبالرغم من عدم مقدرة الموحدين على حماية والذود عن الأندلس إلا أن أهل الأندلس لم يستسلموا لهذا الأمر، حيث سعوا إلى القيام بالدفاع عن بلادهم للاحتفاظ بما بقي في أيديهم من مدن، وتقسمت الأندلس في هذه الفترة من جديد إلى دويلات طوائف متناحرة، فغلب ابن هود على مرسية وشرق الأندلس، وغلب بنو مردنيش على بلنسية، وغلب ابن الأحمر على أرجونة وجيّان ووادى آش، ثم تمخضت هذه الأحداث الأخيرة على مولد مملكة غرناطة الأندلسية، هذه المملكة الصغيرة التي ظلت تحمل مشعل الحضارة الإسلامية في الأندلس زهاء قرنين ونصف من الزمان حتى أتى موعدها مع السقوط شأنها شأن شقيقاتها من المدن الأندلسية الأخرى، وكان ذلك عام ١٤٩٢/٨٩٧م.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

محمد بن يوسف بن نصر (ابن الأحمر)
(مؤسس مملكة غرناطة)

يقترن اسم مملكة غرناطة([51]) في التاريخ الأندلسي بصفة خاصة، والتاريخ الإسلامي بصفة عامة ب أسرة بني نصر أو بني الأحمر، ويرجع نسبهم إلى سعد بن عبادة الأنصاري، الصحابي الجليل، وسيد قبيلة الخزرج من الأنصار بالمدينة النبوية.

نشأت مملكة بني نصر، واتخذت من مدينة غرناطة([52]) عاصمة لها، وذلك قبيل منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وانحصرت حدود تلك المملكة في الجزء الجنوبي من الأندلس وراء نهر الوادي الكبير، وامتدت حتى ساحل البحر المتوسط وبمحاذاة جبل طارق، وقد اتسعت حدودها الشرقية لتضم ولاية مرسية التي امتدت شرقًا حتى البحر، وامتدت حدودها الشمالية إلى ولايات إشبيلية وقرطبة وجيّان، كما امتدت الحدود الغربية إلى أرض الفرنتيرة وولاية قادش.

أسس مملكة غرناطة أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر، من مدينة أرجونة([53])، ولد بها عام ٥٩٥ه/١١٩٨م؛ وكان في بداية حياته منصرفًا إلى الزراعة والعناية بأملاكه، وحينما ساد الاضطراب أرجاء الأندلس في أواخر عهد الموحدين أولى اهتمامه وعنايته لشؤون الحرب؛ حيث اشترك مع المسلمين في مجاهدة القشتاليين، وأظهر من الجرأة والشجاعة؛ بل وسداد الرأي ما لفت الأنظار إليه، فاختاره قومه سيدًا ل أرجونة، وما جاورها، كما دخلت تحت طاعته جيّان، ووادى آش([54]) وما حولهما فور ظهوره، فاتجه محاولًا ضم الثغور والقواعد الأندلسية الجنوبية، فدانت له قرمونة وقرطبة وإشبيلية عام ٦٢٩ه/١٢٣٢م لفترة قصيرة، ثم انتقلت قرطبة وإشبيلية إلى طاعة ابن هود([55])، ثم أطاعته شريش ومالقة وبعض المناطق المجاورة لهما عام ٦٣٠ه/١٢٣٣م.

دخل ابن نصر في طاعة ابن هود عقب توحد الأندلسيين تحت قيادة الأخير([56])، وبوفاة ابن هود خلت الساحة الأندلسية للأمير محمد بن نصر فاتجه لتوحيدها تحت طاعته، وفي الوقت نفسه اتصل به أهل غرناطة أثناء وجوده في جيّان، وبعثوا إليه ببيعتهم والدخول في طاعته، وذلك عندما خشوا على مدينتهم من جيوش القشتاليين التي كانت تتحين الفرص للسيطرة على ما تبقى في يد المسلمين من أراض، فاستجاب ابن نصر لرغبتهم، وانتقل إلى غرناطة واتخذها منذ ذلك الحين مقامًا له وحاضرة لدولته الناشئة.

تابع محمد بن نصر أغلب فترة حكمه (٦٣٥-٦٧٢ه/١٢٣٨-١٢٧٣م) التي امتدت ما يقرب من ستة وثلاثين عامًا بعد دخوله غرناطة ونضاله من أجل تحقيق هدفه في تأسيس دولة قوية، وقد خاض في سبيل ذلك العديد من المعارك، خاصة ضد بني مرين أصحاب المغرب للاستيلاء على أملاكهم في المناطق الجنوبية من الأندلس، ثم انتقل ابن نصر إلى محاربة القشتاليين، وكان أول نصر حققه عليهم عام ٦٣٦ه/١٢٣٨م عندما هاجم القشتاليون حصن مرطوس، فتصدى لهم ابن نصر، وهزمهم هزيمة منكرة، فارتفع شأنه في أعين رعيته، ولم يتوقف ارتفاع شأنه والاحتفاء به على أهل المناطق الخاضعة له؛ بل احتفى به الأندلسيون في كافة الأنحاء المتبقية من الأندلس آنذاك، واعتبروه هو الأمل والمخلص لهم.

اشتبك ابن نصر مع القشتاليين في معارك، استولى على إثرها على حصن أرجونة مقر أجداده، مما اضطر القشتاليين إلى محاصرة غرناطة نفسها وكان ذلك عام ٦٤٣ه/١٢٤٤م، فرُدوا عن أسوارها بخسائر فادحة.

أدرك ابن نصر مع مرور الوقت أنه لا قبل له بمحاربة القشتاليين، ولا أمل له في نجدة المغرب أو غيرها من بلدان العالم الإسلامي؛ لذلك آثر مصانعة ملك قشتالة فرناندو الأول، فقدم له فروض الولاء والطاعة، وحكم مملكة غرناطة تحت مظلته، وبعد وفاة فرناندو الأول عام ٦٥٠ه/١٢٥٢م، جدد ابن نصر العهد مع خليفته ألفونسو العاشر ملك قشتالة وليون الملقب بألفونسو العالم.

هذه الهدنة التي عقدها ابن نصر مع القشتاليين مكنته أن يقضي باقي أيامه في توطيد وتثبيت أركان مملكته، فاعتنى بتنظيمها، وتوطين المهاجرين إليها من المدن الأندلسية التي سقطت في يد القشتاليين واحدة تلو الأخرى، كما عين ابن نصر ابنه محمدًا وليًا للعهد من بعده، ثم توفي ابن نصر عام ٦٧١ه/ ١٢٧٢م عقب فترة حكم دامت ستة وثلاثين عامًا.

إن الوضع الجغرافي لمملكة غرناطة الذي قدر لها أن تنشأ بين عدة دول تفوقها قوة وعُدة، وتحيط بها من كل جانب؛ وهي: مملكة قشتالة شمالًا، والبرتغال غربًا، وأراجون شرقًا، بالإضافة إلى دولة بني مرين في المغرب جنوبًا، هذه الظروف أجبرت حكام مملكة غرناطة أن تكون سياستهم مرتبطة بالظروف السياسية المحيطة بها والمتمثلة في الدول المذكورة، ولهذا فإن حكامها لم يلتزموا في سياستهم خطًا واحدًا؛ بل كانت سياستهم تتغير دومًا وتتبدل في حذر من يوم إلى يوم حسب الظروف الخارجية المحيطة بهم، وتماشيًا مع سلامة مصالحهم مع جيرانهم، لذلك نجدهم تارة ما يقتربون من قشتالة ضد أراجون، وتارة أخرى يقتربون من المغرب ضد قشتالة، وتارة ثالثة يقتربون من ملوك البرتغال وأراجون ضد قشتالة وهكذا.

قام محمد بن نصر بالعديد من الأعمال التي كانت بمثابة اللبنة الأولى في بناء صرح مملكة غرناطة، هذه الأعمال التي مهدت الطريق لمن جاء بعده من الحكام في إكمال بناء هذا الصرح الذي يعتبر أحد مشاعل الحضارة الإسلامية آنذاك، وصفه ابن الخطيب قائلا: «كان هذا السلطان آية من آيات الله في السذاجة والسلامة والجهوزية جنديًّا ثغريًّا شهمًّا عظيم التجلد، رافضًا للدعة والراحة، مؤثرًا للقشف والاجتزاء باليسير، متبلغًا بالقليل، بعيدًا من التصنع، جافي السلاح، شديد الحزم، موهوب الأقدام، عظيم التشمير، محتقرًا للعظيمة، مقربًا لصنفه، مصطنعًا لأهل بيته، فظًّا في طلب حقه، مباشرًا للحرب بنفسه، يخصف النعل ويلبس الخشن ويؤثر التبدي ويستشعر الجد في أموره».

على الرغم من الفتن والمخاطر التي كانت تحيط بمملكة غرناطة، فإن ابن نصر لم يدخر جهدًا في سبيل دفع مملكته قدمًا نحو الازدهار والتقدم، فقد اهتم بتأمين حدودها ضد العدو؛ كما أنه عمد إلى محاربته تارة، ومداراته تارة أخرى، وعني بمحاولة إنعاش مملكته اقتصاديًّا، مما كان له أبلغ الأثر في ازدهارها واستقرارها، أيضًا لم يغفل ابن نصر عن الاهتمام بازدهار مملكته علميًّا وفكريًّا، فنجده بالإضافة إلى المجلس الذي كان يعقده مرتين في الأسبوع للاطلاع على مظالم ومطالب رعيته يعقد مجلسًا يضم فيه كبار شعراء وعلماء وأدباء وأعيان دولته، يتدارسون فيه العلوم والفنون والآداب، وذلك بخلاف المجلس الذي كان يجتمع فيه مع وزرائه وقواده وكبار رجال دولته من أجل دراسة شؤون المملكة.

إن طول فترة حكم ابن نصر التي بلغت ستة وثلاثين عامًا مكنته في أوقات السلم من الانصراف إلى العناية بشؤون مملكته؛ حيث قام بتنظيم الشرطة والقضاء، وطبق القوانين التي وضعها فقهاء دولته، وقام بإنشاء العديد من المؤسسات التي أسهمت إسهامًا فعالًا في ازدهار مملكة غرناطة على كل المستويات، لا سيما المستوى العلمي والفكري؛ حيث قام بنشر المؤسسات التي تخدم العلم وأهله في ربوع مملكته، كما أنه اهتم بالحياة الاقتصادية مما انعكس إيجابيًّا على الحياة العلمية، فأقام المخازن للحبوب وسائر المواد الغذائية «فتوفر ماله وغصت بالصامت خزائنه فأفعم الأهراء، وملأ بطن الجبل المتصل بمعقله حبوبًا مختلفة، وخزائن دوره مالًا وسلاحًا، وأواريه ظهرًا وكراعًا([57])، فوجد فائدة استعداده، ولجأ إلى ما ادخره من عتاده».

كذلك اهتم ابن نصر بالمنشآت المعمارية، ومن أروع التحف المعمارية التي قام بتشيدها قصر الحمراء إلى جانب البرك والنوافير وسبل المياه والحمامات العامة، وقد مد إلى سهول غرناطة قنوات الري التي لا يزال بعضها قائمًا إلى اليوم.

توفي ابن نصر عام ١٢٧٢/٦٧١م، وقد قارب الثمانين من عمره، بعد أن قضى ستّة وثلاثين عامًا من حكمه محاربًا العدو تارة، ومهادنه تارة أخرى، مستغلًا أوقات السلم في تثبيت دعائم مملكته، فعند وفاته كانت مملكة غرناطة قد توطدت دعائمها نوعًا ما، واستقر بها حكم بني نصر على أسس ثابتة، ولم يظهر في مملكة غرناطة في بداية أمرها زعماء منافسون ينازعون بني نصر زعامتهم، وإن كان تاريخ الدولة النصرية لم يخل من ثورات وانقلابات واضطرابات محلية، وقد كان من غرائب القدر أن استطاعت هذه المملكة الصغيرة على الرغم من الاضطرابات في الداخل، والمخاطر التي تحيط بها من الخارج، أن تعيد ولو لمحة من مجد الأندلس الذاهب، فاستطاعت بما امتاز به أهلها من الشجاعة والجلد وتحمل الخطوب والمحن، الحفاظ على تراث الإسلام في الأندلس، زهاء مائتين وخمسين عامًا أخرى.

إن كانت كل الأقاليم الإسلامية متشابهة في عناية حكامها بالعلم ورعايتهم لأهله، وبذل الغالي والنفيس في سبيله، إلا أن مملكة غرناطة يظل لها سماتها الخاصة بها، فأغلب الأقاليم الإسلامية أدى استقرارها الأمني ورخاؤها الاقتصادي إلى تقدمها وتطورها؛ أما بالنسبة إلى مملكة غرناطة هذه البقعة الصغيرة التي تحاط بالعدو من كافة أركانها، وتنام وتصحو وهى تعلم علم اليقين أن لها موعدًا مع السقوط شأنها شأن كافة المدن الأندلسية الكبرى التي سبقتها، إلا أنها على الرغم من ذلك أبت كل الإباء إلا أن يكون لها بصمة في ازدهار الحضارة الإسلامية، وذلك بنشر العلوم والفنون والآداب بين ربوعها.

عمرت مملكة غرناطة، على الرغم من المحن التي كانت تحيط بها من الخارج، والفتن التي كانت تنخر في عضدها من الداخل، ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان، وتوالى على حكمها خلال تلك الفترة ما يربو على عشرين حاكمًا، وقد تمتع الكثير من هؤلاء الحكام بصفات أهلتهم لأن يسيروا بمملكتهم الناشئة خطوات رائدة في طريق الازدهار والتقدم.

الجدير بالذكر أنّ من طالت فترة حكمهم من حكام بني نصر الذين بلغوا عشرين حاكمًا، لم يتجاوزوا خمس حكام، قاموا على رأس المملكة في غرناطة، منهم أربعة كان لهم الدور البارز في نهضة مملكة غرناطة وازدهارها؛ وهم السلطان محمد بن نصر (٦٢٩-٦٧١هـ/١٢٣٢-١٢٧٣م) المؤسس الأول لدولة بني نصر، وابنه السلطان محمد الفقيه (٦٧١-٧٠١هـ/ ١٢٧٣-١٣٠٢م)، والسلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (٧٣٣-٧٥٥هـ/ ١٣٣٣-١٣٥٤م)؛ الذي عاشت دولة بني نصر في عهده عصرها الذهبي، وابنه محمد الخامس الذي أكمل عمل أبيه، وكانت ولايته الأولى (٧٥٥-٧٦٠هـ/ ١٣٥٤-١٣٥٩م)، وولايته الثانية (٧٦٢-٧٩٤هـ/١٣٦١-١٣٩٢م)؛ لذلك سنكتفي في

هذه الدراسة بذكر الإسهامات التي قدمها هؤلاء السلاطين، والتي كان لها أبلغ الأثر في ازدهار مملكة غرناطة علميًّا واستمرارها زهاء قرنين ونصف من الزمان، على الرغم مما أحاط بها من خطوب وأخطار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وسقطت الأندلس..

لم أجد من المعاني التي أختم بها إلا المعاني التي أفاض لنا بها أستاذنا ومعلمنا الجليل د/ عبد الحليم عويس، حيث كان من جملة ما قال عن سقوط الأراضي الإسلامية: «هناك الكثير من دولنا الإسلامية التي سقطت على مر تاريخنا الإسلامي إلا أن سقوط بعضها كان درسًا أبديا وذلك لخبث وفتاكة الأمراض من جهة، ومحاولاتنا طلب الدواء من أعدائنا، فكانت هذه فرصتهم التي قد لا تتكرر لإعطائنا السموم القاتلة وإن كانت تدريجية حينا ولحظية أحيانًا أخرى، ولعل هذا الدرس يتضح جليًّا في الأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط كصقلية».

كما تابع أستاذنا عبق معانيه مسلطًا الضوء على المرض الذي منيت به أمة الإسلام مما أدى إلى تكالب العدو عليها، واغتصاب أراضيها حيث قال: «لقد سقطت الأندلس كعضو اجتمعت فيه كان عناصر وعوامل السقوط وكان لابد من بتره لأن سنن الله لا تتغيير ولا تتبدل ولا تحابي أحدًا»، واستمر أستاذنا في حديثه موجها كلماته لي ولك: «وتسألني: لماذا طردنا من الأندلس؟!!!، فأقول لك: لأن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، ثم أقول لك عبرة التاريخ، وهو قانون سقوطنا: «حين يبحث كل عضو منا عن نفسه تسقط سائر الأعضاء».

ما سبق تأصيله من أستاذنا ومعلمنا لم يمنعه أن يبعث في نفوس الأجيال بعضًا من شعاع الأمل، حيث قال: «لعل من الملاحظات التاريخية أن القرن الذي شهد سقوط غرناطة آخر مصارعنا في الأندلس ١٤٩٢م كان هو نفس القرن الذي شهد فتح القسطنطينية هذه العاصمة التي أعيا المسلمون فتحها على مر تاريخهم».

ولعل هذا يبعث الأمل في نفوسنا أن أمة الإسلام قد تمرض ولكنها أبدًا لا تموت، فليتنا ننتفض وننزع عنا ثياب المرضي متغلبين على مرضنا ونحاول أن نخط في صفحات تاريخنا بصمة في نهضة أمتنا كلٌّ في مجاله..!!

وفي النهاية نتمنى ألا يمثلنا قول القائل:

«الدرس الوحيد الذي نستفيده من التاريخ أنّ أحدًا لم يتعلم من التاريخ».. (هيجل)

الخاتمة

إن ما سبق ذكره من تراجم لهؤلاء القادة والقدوات يجعلنا نستخلص عددًا من النتائج لعل من أبرزها:

إن التاريخ ليس مجرد أحداث صلبة جامدة لا تسمن ولا تغني من جوع، باعتبارها أحداث مضت وانتهت، وإنما التاريخ مادة طيعة لينة زاخرة بالخبرات والتجارب لأناس لم نرهم؛ بتدبر هذه المادة في أي زمن من الأزمان أو عصر من العصور نستطيع أن نستفيد منها في حاضرنا؛ بل ونرسم بها صورة المستقبل مهما كانت هذه الأحداث موغلة في القدم، وبهذا المفهوم يمكن أن نخرج من عقولنا نحن جيل الشباب والفتيات في هذا العصر الذي يسعى فيه أعداؤنا لهدم قدوات الأمة ورموزها حتى لا يكون هناك طريق واضح نسير فيه أو نبراس نهتدي به، نُخرج من أذهاننا أن التاريخ ما هو إلا بكاء على اللبن المسكوب أو البكاء على الأطلال كما يردد الكثيرون.

إن البشر منذ القدم حتى يوم الناس هذا ليس بينهم تفاضل في الطبائع إلا في حالة قدرة الشخص أن يتغلب على الضعف الإنساني الذي يحمله بين طيات نفسه، بمعنى يظل البشر على مر العصور والأزمان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وحسابهم على الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر

-ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد لله بن خرداذبة، ت٢٨٠ه/٨٩٣م) المسالك والممالك، مطبعة بريل (ليدن)، دار صادر (بيروت)، ١٨٨٩م.

-ابن الخطيب (محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الخطيب، ت ٧٧٥ه/ ١٣٧٤م) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي (القاهرة)، الطبعة الثانية ١٣٩٣ه/١٩٧٣م.

-الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة (بيروت)، ١٩٨٣م.

-أعمال الأعلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف (بيروت)، الطبعة الثانية ١٩٥٦م.

-معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة)، ١٤٢٣ه/٢٠٠٢م.

-ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى العنسي، ت٦٨٥ه/١٢٨٦م) المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقى ضيف، دار المعارف (القاهرة)، الطبعة الرابعة، ١٩٦٤م.

-ابن عذاري المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، ت ٦٩٥ه/ ١٢٩٦م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س. كولان، وليفي بروفنسال، دار الثقافة (بيروت)، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.

-ابن كردبوس (أبو مروان عبد الملك بن أبي القاسم التوزري، عاش في أواخر القرن السادس الهجري) الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: صالح بن عبد الله الغامدي، الجامعة الإسلامية (المدينة المنورة)، الطبعة الأولى ١٤٢٩ه/٢٠٠٨م.

-الحميري (محمد بن عبد المنعم، ت ٩٠٠ه/١٤٩٥م) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان (بيروت)، الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

-خير الدين الزركلي، (ت١٣٨٦ه/١٩٧٦م) الأعلام، دار العلم للملايين (بيروت)، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.

-الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت ١٣٧٤/ه٧٤٨م) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

-صفي الدين البغدادي شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار مكتبة الحياة (بيروت)، ١٣٥٥ه.

-الضبي (أحمد بن يحيي بن أحمد بن عميرة، ت١٢٠٣/ه٥٩٩م) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري (القاهرة)، الطبعة الأولى ١٤١٠ه/١٩٨٩م.

-المراكشي (أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي، ت ١٢٤٩/ه٦٤٧م) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢٦ه/٢٠٠٦م.

-المقري (أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيي المقري التلمساني، ت ١٠٤٠ه/ ١٦٣١م) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر (بيروت)، ١٣٨٨ه/١٩٦٨م.

-أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة (القاهرة)، ١٣٥٨ه/١٩٣٩م.

-عبدالله بن المقفع، كليلة ودمنة، تصحيح: فاروق سعد، الطبعة الاولى ١٩٧٧م، دار الآفاق الجديدة (بيروت).

-عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، ت ١٣٣٨/ه٧٣٩م مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: على محمد البجاوي، دار المعارف (بيروت)، الطبعة الأولى ١٣٧٣ه/١٩٥٤م.

-ياقوت الحموي (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، ت ١٢٢٩/ه٦٢٦م)

-معجم البلدان، دار صادر (بيروت)، ١٣٩٧ه/١٩٧٧م.

ثانيًا: المراجع العربية والمترجمة

-إبراهيم أحمد العدوي: موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي، مجلة الكتاب العربي، العدد (٣٩)، ١٩٦٧م.

-إبراهيم على طرخان، المسلمون في أوربا في العصور الوسطى، مؤسسة سجل العرب (القاهرة)، ١٩٦٦م.

-أحمد الطاهري، دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس، منشورات كلية الآداب (مكناس)، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

-أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية (بيروت)، ١٩٧٢م.

-أسعد حومد، محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت)، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.

-جاسم بن محمد القاسمى، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة (القاهرة)، ٢٠٠٠م.

-جودة هلال، محمد محمود صبح، قرطبة في التاريخ الإسلامي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٦م.

-حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة)، الطبعة الرابعة عشر ١٤١٦ه/١٩٩٦م.

-حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد (القاهرة)، الطبعة الخامسة ١٤٢١ه/٢٠٠٠م.

-خليل إبراهيم السامرائى، وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة (بيروت لبنان)، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

-خالد بن محمد مبارك القاسمى، تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، مكتبة النافذة (القاهرة)، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

-خليل خلف الجبوري، الموانئ الاندلسية في عصري الغمارة والخلافة، دار صفحات، الطبعة الأولى ٢٠١٦.

-خوليان ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف (القاهرة)، الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

-سلمى الخضراء الجيوشي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

-السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة (الاسكندرية)، ١٩٨٥م.

-قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية)، ١٩٩٧م.

-رينهرت دوزى، المسلمون في الأندلس، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

-عبد الحليم عويس، الحضارة الإسلامية إبداع الماضي وآفاق المستقبل، دار الصحوة (القاهرة)، الطبعة الأولى ١٤٣١ه/٢٠١٠م.

-عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧ه/٧١١-١٤٩٢م)، دار القلم (بيروت)، الطبعة الثانية ١٤٠٢ه/ ١٩٨١م.

-علي المنتصر الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

-عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤١١ه/١٩٩١م.

-محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي (القاهرة)، الطبعة الرابعة ١٤١٧ه/١٩٩٧م.

-محمد محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، ١٤١١ه/١٩٩٠م.

-ول وايزيل ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤١٢ه/١٩٩٢م.

-يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلمية في أفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجرى ٩٠-٤٥٠ه، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٢١ه/٢٠٠٠م.

ثالثًا: المواقع الالكترونية

-راتب النابلسي: ومضات في الإسلام

/http://www.alukah.net/sharia/0/48219

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات

عن الكتاب..

إهداءٌ خاص

مقدمة..

موسى بن نصير
(الشيخ المجاهد)
عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)
(قاهر المستحيل)
عبدالرحمن الثاني (الأوسط)
(باذِر بذور النهضة)
الحكم المستنصر
(الحاكم العالم)
المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر
(جاعل الحلم حقيقة)
أضواء على ملوك الطوائف
المعتمد بن عباد
(صانع الفرق)
يوسف بن تاشفين
(منقذ الأندلس)
محمد بن يوسف بن نصر (ابن الأحمر)
(مؤسس مملكة غرناطة)
وسقطت الأندلس..

المصادر والمراجع

Notes

[←1] (1) أصل مصطلح الأندلس مأخوذ من قبائل الوندال التي تعود إلى أصول جرمانية، احتلت شبه الجزيرة الأيبيرية حوالي القرن الثالث والرابع وحتى الخامس الميلادي، وسميت باسمها (فاندلسيا): أي بلاد الوندال، ثم نطقت بالعربية الأندلس؛ أما مدلول هذا المصطلح فقد أطلقه المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون أحيانًا على كل شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال حاليًا)، والتي يطلقون عليها شبه الجزيرة الأندلسية أيضًا، ثم استعمل للدلالة على كل المناطق التي سكنها المسلمون وحكموها من شبه الجزيرة الأيبيرية.

(2) إحدى قرى منطقة الخليل بشمال فلسطين. [←2]

(3) عين التمر: بلدة تقع على طرف الصحراء غربي نهر الفرات. [←3]

[4←]

(4) تحدث أحد المعاصرين عن هذه الحادثة قائلًا: «تولى موسى أمر خراج البصرة في أواخر عام ٧٣ه/٦٩٢م فسار في عمله بجد ونشاط، وكان همه منصرفًا كله إلى إشباع رغباته من الخبرات وإحاطة نفسه بهالة من السلطان والنفوذ الذي يحلم بهما طيلة عمره وفتح قصره للمادحين والأنصار وأسرف في عطائه إسرافًا لا حد له مما أغضب الخليفة عبدالملك وأمره برد ما استحوذ عليه من أموال الدولة التي بددها في سبيل شهرته والتشبه بالخلفاء والولاة، ولما عجز عن تسديدها ووجد أنه واقع لا محالة في يد الخليفة ليقتص منه جزاء إسرافه لم يجد أمامه سوى الفرار من البصرة والتوجه إلى صديقه عبد العزيز بن مروان في مصر ليستجير به للمرة الثانية»، ثم أعقب ذلك قائلًا: «خرج موسى من البصرة خائفًا مترقبًا حتى وصل مصر فأدى عنه مولاه عبد العزيز بعض المال المطلوب وشفع له في الباقي، وظل مقيمًا بجوار عبد العزيز في مصر».

هذا الكلام لم تشر له المصادر التي تعرضت للحديث عن موسى بن نصير لا من قريب أو من بعيد، ومنها على سبيل المثال لا الحصر «البيان المغرب» لابن عذاري، و»نفح الطيب» للمقري التلمساني، و»الإمامة والسياسة» لابن قتيبة الدينوري، و»تاريخ الخلفاء» للسيوطي، أضف أنّ الذي ذكر هذا الرأي لم يشر إلى المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات. عبد العزيز حافظ دنيا: موسى بن نصير حياته وعصره، الدار القومية للطباعة والنشر، العدد (٨٦).

[←5]

(5) أطلق الجغرافيون العرب (منهم الإدريسي) على الأندلس «الجزيرة الأندلسية» تجاوزًا مع معرفتهم بأنها شبه جزيرة، وسميت نسبة إلى أمة قديمة يقال لها «الأيبير»، عمّروا هذه البلاد، ولم تعرف أمة استوطنت هذه البلاد قبلها.

[←6]

(6) جزيرة طريف: مدينة صغيرة يحيط بها سور من التراب ويشقها نهر صغير. وقال صاحب نفح الطيب: «أما جزيرة طريف فليست بجزيرة، وإنما سميت بذلك الجزيرة التي أمامها في البحر مثل الجزيرة الخضراء».

[←7]

(7) ولاية أشتوريا: كانت هذه الولاية النواة التي بدأت منها المقاومة المسيحية للوجود الإسلامي بأرض الأندلس حيث اتسعت رقعة المنطقة المسيحية تدريجيًا، فشملت جليقية، ثم اندمجت جليقية وأشتوريا فيما عرف باسم مملكة قشتالة وليون فيما بعد، كما قامت مملكتا نافار، وأرجون في منطقة الحدود عند سفح جبال البرانس.

[←8]

(8) هناك روايات أخرى تعرضت لسبب وكيفية مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير يمكن الرجوع إليها في المؤلف الزاخر «البيان المغرب» لابن عذارى.

[←9]

(9) يلاحظ القارئ الكريم أنه في البعض من المحادثات التي حدثت مع الخلفاء والأمراء ورجال الدولة والعلماء قد تم إيرادها كما هي بالنص، والاكتفاء بتوضيح بعض الجُمل أو الكلمات الغامضة، وذلك بهدف التلذذ ب حلاوة وطلاوة وعبق وألق اللغة العربية الفصحى، إضافة إلى عذوبة وعمق المعاني التي طوتها بين أحرفها هذه الكلمات التي سطرها مؤرخو هذه العصور التي تشبَّع أهلها بالحضارة والرقي، ناهيك عن الفخر والعزة بكل ما يرمز للدين الإسلامي.

(10) أغلى أنواع الحلوى آنذاك. [←10]

(11) أغلى أنواع الدهن آنذاك. [←11]

[←12]

(12) بدأ نجم الدولة العباسية يتألق في سماء الكون متباهيًا في اليوم الذي بويع فيه لأبي العباس عبد الله بن محمد في الكوفة عام ١٣٢/٧٤٩م، ولم تمضِ أشهر حتى رفرفت رايات العباسيين على دمشق، وفر مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية بمن معه من الجند، ولحق بهم عبد الله بن على عم السفاح (لقب أبو العباس الخليفة العباسي) وأوقع بهم هزيمة منكرة على نهر الزاب (أحد فروع نهر دجلة) واستمر عبد الله بن على في مطاردة مروان بن محمد حتى قتله في قرية بوصير بمصر، وبذلك زالت الدولة الأموية في المشرق من الوجود، وأعقب ذلك مذبحة كبرى أنزلها العباسيون بالأمويين حتى لم يفلتوا منهم رجلا عثروا له على أثر، واستمرت المذابح بعد ذلك سنوات حتى لم ينج من بنى أمية إلا أفراد قلة شردوا في البلاد.

[←13]

(13) البيرة: كانت البيرة هي المدينة قبل غرناطة، فلما بنى حبوس بن ماكسن الصنهاجي مدينة غرناطة انتقل الناس إليها، خاصة بعد أن تم تخريب البيرة على يد البربر، ولقد زاد في عمارتها ابنه باديس من بعده، ثم أخذ اسم غرناطة يسيطر تدريجيًّا على الإقليم حتى حل محل البيرة.

[←14]

(14) الربض: هو كل مكان يؤوى إليه ويستراح فيه، وبالضم: وسط الشيء وأساس البناء؛ الجمع: أرباض؛ وقد وصف لسان الدين ابن الخطيب أرباض قرطبة قائلًا: «وبلغت المدينة -يقصد قرطبة- من الاتساع والانبساط وبعد الأقطار إلى أن كانت أرباضها واحدًا وعشرين ربضًا كل ربض منها يعد أكبر مدينة من مدائن الأندلس»، وقال في موضع آخر «كان عدد أرباض قرطبة واحدًا وعشرين ربضًا، في كل ربض منها من المساجد، والأسواق، والحمامات ما يقوم بأهله، ولا يحتاجون إلى غيره» وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سعة هذه الأرباض التي يحوي كل ربض منها بين طياته كافة المهن والصناعات والبضائع حتى إن كل أهل ربض لا يحتاجون إلى الذهاب إلى أسواق خارج ربضهم، لاقتناء حاجاتهم.

[←15]

(15) كانت حرفة الوراقة من أجود الصنائع وذلك لعنايتها ب كتابة المصاحف وكُتب العلم ووثائق الناس وعهودهم؛ لذلك نجد ابن خلدون يصنفها ضمن أمهات الصنائع الشريفة؛ حيث قال: «أما الشريفة الصنائع بالموضوع كالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب»؛ كما عرَّفها ابن خلدون بأنها عملية: «الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين»؛ كما عرف السمعاني الوراق بقوله: «هو من يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها، وقد يقال لمن يبيع الورق وهو الكاغد ببغداد الوراق أيضًا». وقيل: إن الوراق هو من يقوم بانتساخ الكتب وتصحيحها ونشرها بين الناس، وقد يكون هو الناسخ أو غيره، إلى جانب قيامه بما يتبع عملية النسخ من التجليد والتذهيب وبيع الورق والأقلام والمحابر وغيرها من أدوات الكتابة، وهذا يعني أن الوراقين كانوا يقومون بما تقوم به المكتبات ودور النشر في عصرنا من الطبع والتوزيع وبيع الورق وأدوات الكتابة.

(16) سبق الإشارة إليه أثناء الحديث عن الأمير عبد الرحمن الأوسط. [←16]

(17) سكتوا وعجزوا عن الكلام انبهارًا بما شاهدوا. [←17]

(18) استغلق عليهم الكلام. [←18]

[←19]

(19) المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٢، ص٣٦٨-٣٧١.

[←20]

(20) كان لدى الأندلسيين سوق في كل مدينة يعرف عندهم ب «كايثر» ويقصد بها «القيسارية»، وكانت هذه القيساريات أوسع من الأسواق المقامة في الشوارع العادية، حيث كانت تبنى فيها الكثير من الحوانيت التي تباع فيها مختلف أنواع البضائع والسلع، فالقيسارية كانت أعظم اتساعًا وأكثر تركيزًا للحرف والصناعات والبضائع والسلع؛ حيث كانت عبارة عن مدينة على شكل سوق، بلغت من درجة اتساعها أن يكون لكل أصحاب مهنة درب أو حي مستقل بهم، يمارسون فيه أعمال مهنتهم، ويعرضون فيه منتجاتهم لمن يرغبون فيها.

(21) يقصد الطبيب الذي يأخذ عينة الدم لفحصها وتحليلها. [←21]

[←22]
(22) خالد بن سعد: يكني أبا القاسم، من أهل قرطبة، كان أحد أئمة الحديث البارعين فيه آنذاك، وكان يحدث الناس في المجالس.

[←23]

(23) أحمد بن أبان بن سيد اللغوي الأندلسي: كان من أئمة اللغة والعربية في زمانه، تولى شرطة قرطبة، لذلك عرف بصاحب الشرطة، أخذ عن أبي على القالي وغيره، تصدر لشرح كتاب الأخفش وغيره من الكتب.

[←24]

(24) ويقصد بالبضائع هنا الكتب في مختلف العلوم والفنون.

[←25]

(25) أحمد بن خالد بن عبد الله بن قبيل بن يبقي الجذامي التاجر: من أهل قرطبة، ويكنى أبا عمر، رحل إلى المشرق ودخل العراق تاجرًا فسمع من علمائها، كما أنه رحل إلى مكة، ولم يحرم نفسه من السماع والتعلم على يد علمائها، وما يذكر بشأن رحلته إلى العراق ومكة، كذلك يذكر عن رحلته إلى مصر، ذكر عنه أنه: «كان رجلًا صالحًا صدوقًا، إلا أنه لم يكن له فهم، ولا كان يقيم الهجاء إذا كَتب».

[←26]

(26) محمد بن مفرج بن عبد الله بن مفرج المعافري: يعرف ب القبشي، من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق طلبًا للعلم، ثم قفل راجعًا إلى الأندلس حاملًا معه الكتب المذكورة رواية، كان يعتقد مذهب ابن مسرة، ويدعو إليه، وكان قليل العلم، حدث وسمع منه، ثم ترك الناس الأخذ عنه.

[←27]

(27) قاسم بن ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرف بن سليمان بن يحيي العوفي: أصله من سرقسطة، ولد بها عام ٨٦٩/٢٥٥م، كان عالمًا بالحديث والفقه متقدمًا في معرفة الغريب، والنحو ، والشعر، وكان مع ذلك ورعًا ناسكًا، وذكر أنه ألف كتابًا في شرح الحديث أسماه: «كتاب الدلائل»، بلغ فيه الغاية من الإتقان، إلا أن المنيه وافته قبل أن يتمه، فأكمله أبوه ثابت بعده.

[←28]

(28) محمد بن عبد الله بن الغازي بن قيس: من أهل قرطبة، سمع من أبيه، رحل إلى المشرق، فأخذ عن علمائه، وعاد إلى الأندلس محملًا بالعلوم التي قام بتحصيلها، ثم خرج من الأندلس مرة أخرى في أخر عمره يريد الحج، وكان ذلك عام ٢٩٥هـ/٩٠٨م، ثم اتجه بعد قضاء الحج إلى طنجة، فتوفي بها عام ٢٩٦هـ/٩٠٩م، وكانت كتبه عند أقوام من طنجة.

(29) قيل: إنه دخل إلى الأندلس متجسسًا. [←29]

[←30]

(30) ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي: كان من أبرع علماء زمانه في علم النبات، بل ذكر أنه كان أوحد زمانه في إتقان هذا العلم، من أشهر مصنفاته كتاب «الأدوية المفردة»، توفي بدمشق عام ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م.

[←31]

(31) أبو محمد عبدالحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر المرسي: درس العربية والآداب على علماء بلدته مرسية، ثم انتقل إلى سبته، وانتحل بها التصوف، وكان يقصده الناس للأخذ عنه، ثم رحل إلى المشرق، للتزود بالعلم، كما أنه تصدر لنشر علمه وسمع منه أهل المشرق وأخذوا عنه.

[←32]

(32) أحد أفراد البيت الأموي الذي انتزع الحكم من يد عبد الرحمن بن المنصور المعروف بابن شنجول.

[←33]

(33) مجريط: مدينة أندلسية ابتناها الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، تقع بالقرب من طليطلة، ومما اشتهرت به غناها بالتربة التي يصنع منها البرام (أنية الفخار) وكان لجودة هذه التربة التي تمتعت بها مجريط، أنه روي أن البرام من الممكن أن يوضع على النار مدة عشرين سنة لا يكسر، كما أن جودته كانت سببًا في عدم تغيير مذاق الطعام ورائحته وتأثره بالطقس سواء كان حارًّا أو باردًا.

[←34]

(34) قنطرة طليطلة: بناها القدماء، وفي نهايتها ناعورة، يصعد من خلاله الماء إلى الأعلى، فيجرى في المدينة، ونتيجة لأهمية هذه القنطرة، عقب ظهور بعض التمردات في المدينة عمد الأمير الحكم الأول (١٨٠-٢٠٦ه/٧٩٦-٨٢٢م) إلى بناء حصن بالقرب من تلك القنطرة للسيطرة عليها والتصدي لكل التمردات التي تمر بالقنطرة وكان ذلك عام ١٨١ه/٧٩٧م؛ كما حدث أن قام أهل طليطلة عام ٢٤٤ه/٨٥٨م بالتمرد على الإمارة، فقام الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣ه/ ٨٥٢-٨٨٦م) بالتوجه بجيش إليها، وسيطر على القنطرة وأمر المهرة من البنائين والمهندسين بوضع المتفجرات على القنطرة ثم الانسحاب، وعقب دخول المتمردين على القنطرة، قاموا بتفجيرها، فقضوا بذلك على المتمردين، ثم تم بناء وتعمير القنطرة في عهد ابن أبى عامر كما ذكر.

[←35]

(35) كانت والدة عبد الله جارية سيئة السمعة، وكان مما اتهمت به أنها لم تحمل بابنها عبد الله من المنصور.

(36) الأعراف: آية (١٤٣)

[←36]

[←37]

(37) كان أول من جمع فلول النصارى في الأندلس بعد تغلب المسلمين عليها رجل يدعى بلاي، من أهل استوريس من جليقية، حيث فر هاربًا إلى قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفي ثاني أمراء الأندلس ، وكان ذلك عام ٩٨هـ/٧١٦م، أي بعد مرور ستة أعوام على فتح المسلمين للأندلس، ولقد جد بلاي ومن تحت إمرته من الجنود الإسبانيين في مدافعة المسلمين عما بقى في أيديهم من أراضي، إلا أن المسلمين تغلبوا عليهم، واستمروا في فتح المدن الأندلسية مدينة تلو الأخرى حتى وصلوا إلى أربولة فرنسا ، فلاذ بلاي ومن معه من الجنود، وكان عدتهم ثلاثمائة رجل إلى منطقة تدعى الصخرة، ولم يزل المسلمون يقاتلونهم حتى مات أغلب رجاله جوعًا وبقى في ثلاثين رجل وعشرة نسوة، ولا طعام لهم إلا العسل يتحصلون عليه من خروق بالصخرة فيقتاتون به، حتى أعيا المسلمين أمرهم، واحتقروا شأنهم، ولكن بلغ أمرهم فيما بعد من القوة والكثرة ما لا خفاء به.

[←38]

(38) كان الصقالبة يجلبون من فرنسا وإيطاليا وشمال أوربا، وعند دخولهم الأندلس أو بلدان العالم الإسلامي بصفة عامة، يعتنقون الإسلام، ومن ثَمّ يتم تعليمهم آداب الدين الإسلامي وفنون الفروسية، لأنه كان الهدف من جلبهم في الغالب هو استخدام الحاكم لهم في الحرب أو لأجل حمايته من أي عدو أو متربص ينتهز الفرص لانتزاع الحكم من بين يديه.

[←39]

(39) أبو جعفر هارون بن محمد بن هارون الرشيد: ولد ببغداد وولي الخلافة عقب وفاة أبيه المعتصم بالله عام ٨٤١/٢٢٧م، وتوفى عام ٨٤٧/٢٣٢م.

(40) المعرة: هي الأذى والمساءة والمكروه. [←40]

[←41]

(41) وذكر بعض المؤرخين أنه تم الاستيلاء عليها عام ١٠٨٢/٥٤٧٥م من يد حاكمها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن تمت محاصرتها مدة سبع سنوات.

(42) إشارة إلى المرابطين بالمغرب. [←42]

[←43]

(43) يرجع أصل المرابطون إلى قبيلة لمتونة، وهى بطن من بطون صنهاجة الكبيرة، ويسمون أيضاً بالملثمين، وكان اللمتونيون من البدو الرحل الذين يتنقلون في صحاري إفريقيا، ثم نزلوا في أقصى غرب أفريقيا قرب المحيط الأطلسي؛ أما دينهم فكان الوثنية، ثم تحولوا إلى الإسلام في أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بجهود رجلين، أحدهما من لمتونة وهو يحيي بن إبراهيم اللمتوني، والآخر هو عبدالله بن ياسين الكزولي، وازداد عدد اللمتونيين يومًا بعد يوم واتخذوا لأنفسهم اسم (المرابطين)، وبسطوا نفوذهم على موريتانيا ومع اتساع ملكهم رأى زعيمهم آنذاك وهو أبو بكر بن عمر أن يبنى لهم حصناً يتخذوه قاعدة لهم، فاختار مدينة مراكش، وشرع في بناؤها عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م، وظلوا كذلك إلى أن تولى زعامتهم يوسف بن تاشفين الذي عبر إلى الأندلس لنجدة المسلمين بها عندما تكالبت عليهم قوى النصارى.

[←44]

(44) الحنفاء: اسم فرس حذيفة المذكور في البيت.

(45) غلبه في لعب القمار. [←45]

(46) أداة من أدوات الشطرنج. [←46]

[←47]
(47) المرتزقة: هم الأشخاص الذين ينضمون إلى الجيوش طمعًا في الغنيمة، أو مقابل مبلغ من المال يأخذونه.

[←48]
(48) يقصد الشخص الذي يهتم وينشغل بتخير الجيد من الخيل التي يخوض بها الحروب ضد عده.

(49) آل عمران: آية (٨٥).

[←49]

[←50]

(50) هذا الصراع الذي أفضى في نهايته إلى سقوط العديد من المدن الأندلسية الكبرى مثل: قرطبة التي سقطت عام ١٢٣٦م، ومرسية عام ١٢٣٨م، وكذلك شرق الأندلس حتى مالقة عام ١٢٤١م، وإشبيلية عام ١٢٣٨، وشذونة وقادش، وغيرها من المدن.

[←51]

(51) غرناطة: ويقال إغرناطة - بالهمز- واختلف في سبب تسميتها بذلك، فقيل: إنها مشتقة من مصدر روماني وهو Granate ويقصد به «الرومانة»، وسميت بذلك لكونها ذات طبيعة جمالية خلابة؛ حيث تحيط بها الحدائق والمروج وبساتين الرمان الكثيرة المنتشرة حولها. وقيل: لأنها أنشئت على الأرض التي زرع فيها الرمان بعد جلبه من إفريقية لأول مرة. وقيل: لأنها تشبه الرمانة المشقوقة بموقعها وانقسامها على التلين، فتبدو منازلها الكثيفة وسط هذا المشهد كالرمانة المشقوقة، وهناك من يرى أن التسمية تعود إلى أصل بربري أو قوطي مشتق من اسم إحدى القبائل.

[←52]

(52) لم تكن غرناطة مدينة أيبيرية قديمة ولا رومانية البناء، وإنما كانت مدينة إسلامية الإنشاء من مدن إقليم ألبيرة، ولم تكن زمن الفتح الإسلامي عام ٩٢ه/٧١٢م، سوى قرية صغيرة افتتحت عنوة على يد عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي ندبه أبوه موسى بن نصير لإخضاع المناطق الشرقية في الأندلس، والتي لم تكن قد خضعت له بعد، فعندما كان عبد العزيز بن موسى في طريقه لإخضاع مرسية، احتل مالقة، وقطاع ألبيرة غرناطة وظلت حتى القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) لا تتجاوز كونها قرية كبيرة ذات أسوار تقع على الشاطئ الأيمن لنهر حدره عند التقائه بنهر شنيل، وعندما قام المسلمون بفتحها ضموا إليها اليهود، حتى قيل: إن غالبية سكانها كانوا من اليهود والأقلية مسلمة؛ ولعل ذلك السبب في تسميتها «إغرناطة اليهود»، وذكر أيضًا أنها كانت تدعى «دمشق الأندلس»، وذلك لسكنى أهل الشام بها عند دخولهم الأندلس، وقد شبهوها بدمشق لكثرة المياه والأشجار بها، وفي ذلك يقول ابن جبير (صاحب الرحلة):

يا دمشق الغرب هاتيك لقد زدت عليها

تحتك الأنهار تجرى وهى تنصب إليها

[←53]

(53) مدينة أرجونة: حصن من حصون المسلمين تقع بين جيان وأندوجر، ويقال لها «جيان الحرير» لكثرة اعتناء باديتها وحاضرتها بدود الحرير والذي تقام عليه صناعة الحرير.

[←54]
(54) ووادى آش: مدينة متوسطة المقدار، ومحاطة بالأسوار، وهي ضمن أعمال مملكة غرناطة.

[←55]

(55) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامى: سرقسطي الأصل بدأ حركته من مرسية عام ٦٢٥ه/١٢٢٨م، فأطاعته مرسية، وقرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، وغيرها من المدن، ولكن ابن هود لم يكن على مستوى الأحداث التي كانت سائدة آنذاك، مما أدى إلى هزيمته في العديد من المعارك التي قامت بينه وبين القشتاليين، حتى إنه لم يستطع نجدة قرطبة، بل تركها تسقط في أيديهم عام ٦٣٣ه/١٢٣٦م دون أدنى محاولة منه لإنقاذها، وقد كان سقوط العاصمة قرطبة ضربة قاصمة للمسلمين في الأندلس فتتت من عزيمتهم، ولم يعش ابن هود بعد سقوط قرطبة طويلًا، حيث توفي في ثغر المرية عام ٦٣٥ه/١٢٣٧م في ظروف غامضة، وذلك بعد أن استولت مملكة أراغون على الجزر الشرقية من يد المسلمين.

[←56]

(56) كما انحاز ابن نصر لابن هود وأظهر طاعته، كذلك بعد وفاة ابن هود أظهر طاعته في أول أمره لملوك أفريقية طمعًا في إمدادهم له وإعانته على القشتاليين الذين ينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض على غرناطة وأخذها من يد المسلمين شأنها شأن المدن الأندلسية الأخرى التي سقطت في أيديهم، كما أنه افتتح أمره بالدعاء للمستنصر العباسي ببغداد، ثم بعد يسير من الوقت ترك ذلك كله.

(57) يقصد به الطعام. [←57]